نور الدين فارح

خرائط

رواية

@ketab_n
Follow Me
8.10.2012
ketab.me
Best Books

منشورات الجمل

نور الدين فارح

خرائط

رواية

ترجمة: سهيل نجم

ketab.me
Best Books

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

نور الدين فارح: **خرائط**، رواية

Twitter: @ketab_n

ولد **نور الدين فارح** عام ١٩٤٥ في بايدوه / الصومال. درس في الصومال، انكلترا والهند (الآداب والفلسفة). درّس في جامعة مقاديشو لسنوات قبل أن تجبره الأحوال على اختيار المنفى. حيث يعيش متنقلاً بين جامعات العالم. فارح مؤلف العديد من الروايات والقصص والمسرحيات، يقيم اليوم في جنوب افريقيا. يصدر له قريباً عن منشورات الجمل: **الأسرار**، رواية.

ولد **سهيل نجم** في بغداد عام ١٩٥٦. حصل على شهادة البكالوريوس في الأدب الإنكليزي من كلية الآداب -جامعة البصرة عام ١٩٧٨. ومنح شهادة الدبلوم في الأدب الإنجليزي من كلية الآداب - جامعة صنعاء عام ١٩٩٤. شاعر ومترجم، من مؤلفاته: **فضُ العبارة**، شعر (بيروت ١٩٩٤)؛ **نجارك أيها الضوء**، شعر (دمشق ٢٠٠٢)؛ **الشعر الإنكليزي المعاصر**، مختارات (بغداد ١٩٩٠)؛ نيكوس كازنتزاكيس: **الثعبان والزنبقة**، رواية (بغداد ١٩٩٠)؛ نيكوس كازنتزاكيس: **القديس فرانسيس** (بيروت ١٩٩٦)؛ خوسيه ساراماغو: **الإنجيل يرويه المسيح**، رواية (بيروت ٢٠٠٠).

نور الدين فارح: **خرائط**، رواية، ترجمة: سهيل نجم
جميع حقوق النشر باللغة العربية محفوظة لمنشورات الجمل
الطبعة الأولى، كولونيا - ألمانيا ٢٠٠٥
Nuruddin Farah: *Maps*
© 1986 by Nuruddin Farah
© *Al-Kamel Verlag 2005*
Postfach 210149 . 50527 Köln . Germany
Tel: 0221 736982 . Fax: 0221 7326763
E-Mail: KAlmaaly@aol.com

Twitter: @ketab_n

دم في الشمس

بعد أن أبعد نور الدين فارح عن بلاده الصومال قبل ما يقارب العشرين عاما تحول إلى مشروع حياته الأدبي: «أن أحيي بلادي بالكتابة عنها.» منذ ذلك الوقت اصبح فرح ليس «أهم روائي أفريقي ظهر في الخمسة والعشرين عاما الأخيرة فحسب، بل واحد من أوسع الأصوات ثقافة في الرواية الحديثة.» (نيل اشيرسون، مجلة نيويورك لعرض الكتب).

في هذه الرواية الغنائية الملفتة للنظر يقص فارح قصة اليتيم عسكر. كان عسكر قد فقد والده قبل أن يولد في الحرب الدموية التي دارت بين الصومال وأثيوبيا، وتموت أمه عند ولادته. ويعود الفضل إلى مصرا، المرأة الطيبة القلب التي عثرت عليه إلى جانب جثة أمه وأخذته إلى بيتها ليحيا. لكن عسكر طفل يمثل عصره بحق، فما أن يكبر حتى يجد نفسه يشعر بالاختناق من الحياة في قرية مصرا الصغيرة. ولكونه مراهقاً صغيراً يبحث عن منظور لبلاده ولنفسه، يذهب للعيش مع خاله وزوجة خاله الكوزموبوليتانيين في العاصمة مقاديشو.

انه وقت عصيب وخطر في مقاديشو، إذ يناضل الصوماليون من أجل توحيد الصف الوطني الذي تحطم بوساطة ثورة الحداثة وتضليلات حربهم الأهلية التي لا تنتهي. يتحدد كل يوم بالانفجارات المتجددة للعنف. ويقذف عسكر نفسه في النشاط السياسي الراديكالي الذي يتحدى باستمرار الآفاق المعتمة لوجوده، تماما مثلما تعيد كل «ثورة» تعريف الحدود الصومالية. وفي هيجان الأحداث اللاحقة، وحينما توجه تهم بالقتل

Twitter: @ketab_n

والخيانة إلى مصراً، سوف تعارض تلك الآفاق الشخصية والسياسية بصرامة لم يكن عسكر أبدا قد تخيلها.

تمثل «خرائط» الجزء الأول من ثلاثية فارح «دم في الشمس» التي تزامن نشرها مع «هدايا» (الجزء الثاني) وتبعها ظهور «الأسرار» (الجزء الثالث) ليشير إلى حدث أدبي كبير: أول نشر كامل للثلاثية. إن ثلاثية فارح الأولى، «تنويعات على موضوع دكتاتور أفريقي» قد عرفت بأنها واحدة من الإنجازات الكبيرة للأدب الأفريقي الحديث، «رواية سياسية شديدة القوة تتحول باطراد إلى أغنية» (نيويورك تايمز لعرض الكتب). ولو أخذنا ثلاثية «دم في الشمس» لرأينا أن كل واحدة من هذه الروايات تقف وحدها لتكون واحدة من البورتريهات غير العادية التي كتبت في عصرنا عن الوطن.

تكلل نور الدين فارح بجائزة نوستات العالمية في الأدب لسنة ١٩٩٨، «التي تعد الجائزة الأدبية العالمية الأكثر أهمية بعد جائزة نوبل» (نيويورك تايمز). انه مؤلف لثماني روايات، نالت العديد من الجوائز وترجمت إلى العديد من اللغات. يعيش فارح في كيب تاون، في جنوب أفريقيا، مع زوجته أمينة ماما، وأبنتهما، أبيان، وولدهما، كاهيا.

المترجم

Twitter: @ketab_n

إلى محمد

أخي الأكبر

ومستشاري الموثوق

Twitter: @ketab_n

تبدأ الحياة عندما تبدأ بالشك في
كل شيء ظهر أمامك.

سقراط

Twitter: @ketab_n

شكر

نمت جراثيم «خرائط» في تربة عقلي كما تنمو الجراثيم عادة، مع أنها مقوم ضروري لاستنباتها. لقد تعرضت لكائنات متنوعة من بكتريا أخرى نمت في عقول أخرى، تُرب أخرى. ومن المؤكد أن من الاستحالة تسمية كل مصادري. على أية حال، من أبرز تلك المصادر هو «الجرح الحكيم» لبيتر ريدغروف وبنيلوب شاتل (روتلج وكيكانبول المحدودة) و«ملحمة أفريقيا» لأنسايدور أوكبهو (مطبعة جامعة كولومبيا.

أود أن أغتنم هذه الفرصة أيضاً لأشكر عميد كلية الآداب في جامعة جويس، في نايجيريا، الذي تلقيت منه الكثير من المساعدة والتشجيع حين التحقت في قسم اللغة الإنجليزية لسنتين بين سنتي ١٩٨١ و١٩٨٣، بوصفي قارئاً زائراً. خلال تلك الفترة كنت قد كتبت ليس فقط مسرحية كاملة بل أيضاً النسخة الأولى من «خرائط». عموماً، حين كنت أعمل في هذه النسخة الأخيرة، كنت متنعماً بالمساعدة الكريمة، مادياً ومعنوياً، من أصدقائي الطيبين لنري بيترز وليز دي وهيويت والدكتور عقبة - إليهم أرفع شكري.

نور الدين فارح

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الجزء الأول

لا تعطني أطفالاً. أعطني بالغين.

تشارلس ديكنز

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول

(١)

تجلس، متأملا، تعابير وجهك مرهقة، شاحب السحنة؛ تجلس لساعات وساعات وساعات، مصاباً بالأرق، تحدق في الظلمة، تسمع شخيراً خفيفاً يأتيك من الغرفة المجاورة. تستحضر الماضي، الماضي الذي ترى فيه جواداً يُسقط راكبه؛ الماضي الذي تتبين فيه طيراً يكسر قشرته ليطير في سماوات الحرية. وخارج ذلك الماضي نفسه يظهر رجل متلفعا بعباءة مثقبة غير مرقعة، كل ثقب بحجم النافذة - وكل نافذة بحجم السر الذي ترتبط به وكأنه الروح الوحيدة التي امتلكتها. وأنت تسأل، تتحدى كل فكرة تخطر في بالك.

بَلى. أنت سؤال على نفسك. وهذا حق. لقد أصبحت سؤالاً لكل الذين قابلوك، أولئك الذين عرفوك، أولئك الذين لهم أي ارتباط بك. أنت تشك، أحياناً، فيما إذا كنت موجوداً خارج أفكارك، خارج رأسك، أو رأس مصرا. يبدو كأنك كنت مخلوقاً ولدته الأفكار المتشككة في الرؤوس، مخلوقاً أنجبته الأفكار، وكأنك لست طفلاً وُلد ببخته السعيد أو المشؤوم، طفلاً له إسم كالآخرين، طفلاً تكون حركاته مبررة على أنها جزء من ماضي تجربة الناس وحاضرهم. تفكر بأنك موجود، بالطريقة التي تتواجد فيها الأجرام السماوية، إذ على الرغم من أن أحداً يرفع اصبعه ويشير إلى

Twitter: @ketab_n

السماء، فهو يعرف، أجل هذه هي الكلمة، «يعرف» أن تلك ليست السماء. ما لم.. ما لم يكن ثمة، بمعنى ما، الكثير من السماوات بعدد المخلوقات المفكرة، ما لم يكن ثمة الكثير من السماوات بعدد الأصابع التي تشير.

في أوقات، حين يتحدث عنك خالك، بحضورك، يشير إليك بصيغة الغائب، وفي حالة، يتحدث بحرية من أجلك، وأنت أتساءل إن كان وجودك مميزاً بسهولة عن مخلوقات الخيال الذين جرت العادة في أن يتكلم الواحد عنهم كأنهم أصدقاؤه المقربون - مخلوقات خيالية جعل التراث الشعبي الفرد متآلفاً مع أسلوبها في الكلام؛ ورد فعلها إزاء المواقف؛ وشروط الوجود ومع ما ترغبه وما لا ترغبه. تشعر، من معرفتك المحدودة بالأدب، أن لك صلة دم ببعض الأسماء التي تتبادر إلى ذهنك، ويأتي على طرف اللسان التفكير بفتى صغير اسمه عسكر الذي يحتوي خياله الهائل على إشارات ثرية للنبوغ المبكر - لأنك أنت ذلك الفتى الصغير.

وأنت تجلس متأملاً، يسرح تفكيرك إلى حقل فيه ظلال كثيفة وكبيرة الحجم عاشت نيابة عن «الآخرين» الذين مضت عليهم سنوات قبل أن يكفوا عن أن يكونوا بشرا. وأنت تجلس عيناك مفتوحتان إلى الداخل، كما هي عيون العميان. ثم أصبحت مخدر الروح: أو بكلمات أخرى، أنت لست نفسك - أنت لست أنت بأية حال. تأخذك الرحلة عبر الممرات العديدة فتتمكن من أن تسترجع حوادث جرت منذ زمان بعيد قبل أن توجد أنت نفسك. يقودك سفرك عبر الغابات الخالية من أية فسحات إلى سلالم حجرية لا نهاية لها، وعلى الرغم من وصولك إلى أعلى مكان، فإن إرهاقك ينتهي في اللحظة التي ترى فيها رجلاً عجوزاً، أصبح رمادياً من تقدمه في السن، ويسعى على السلالم أيضا. أنت تتذكر الآن، أن في صحبة الرجل العجوز كانت ثمة بنت، في السابعة من العمر، تتبع العجوز مثلما تتبع المعزى الجزار، وهي تعرف أن قدر السكين في انتظارها.

وأنت...!

Twitter: @ketab_n

أنت، أنت يا من تضطجع منتظراً، مترب الوجه، أنت يا من تضطجع غير عازم على أن تولد. نعم، أنت تضطجع منتظراً كأنك في كمين حتى تأتي امرأة لم تكن تتوقع وجودك لتدخل في الغرفة المظلمة التي ولدت فيها قبل لحظة. كنت ورطة. كنت منظراً مرعباً. وصفت المرأة التي عثرت عليك البرودة الشديدة لتلك الغرفة المظلمة بأنها تشبه القبر. أحست أن الهواء يشي برطوبة مستودع للجثث. صرخت عند وصولها ولم تهدأ حتى وضعتك في حوض ملأته بالماء الدافئ. ثُم أطعمتك جرعة من حليب الماعز. هل أخبرك أحد كيف كانت هيأتك يوم عثرت عليك المرأة في ذلك الغسق قبل ما يقارب ثمانية عشر عاماً مضت؟ كلا؟

كنت ترتدي على رأسك قبعة من الدم جعلتك تبدو مثل مهرج مقنّع. وحول رقبتك كانت ثمة لطخات أظافر، ربما كانت لأمك. (لا أحد يعرف حتى اليوم فيما إذا كانت قد حاولت قتلك أم لا). أظهرت نزعة عصبية ثم رحت تسترخي فقط حين تعانق من قبل شخص ما أو تغطس في ماء دافئ. حين كنت تكف عن البكاء، كنت تبحث، ويداك مرفوعتان في الهواء لتلمس أي أحد.

عند الفجر، حين أفشت المرأة سر عثورها عليك لبعض الجيران، تولى الرجال أمر دفن أمك. لاحظت مصرا، وهي تخلو بك، أن عينيك مشحونتان بالريبة. إنهما تحدقان فيها، تركزان النظر على يديها بشك! عيناك ستقولان ذلك بعد سنوات، سافرتا في كيانها، سافرتا إلى ما بعدها، رحلتا إلى ماضي الأحلام غير المتحققة. باختصار، جعلتها نظرتك المحملقة تشعر بأنها غير ملائمة. قالت: كان ثمة عنصر للوعي الذاتي في الشيء الصغير الذي عثرت عليه. واستمرت: كان واعياً لذاته جداً حتى أنه حرّك وكأنه كان يمسح المأزق الذي هو فيه؛ لقد حرك عينيه، حين لم يكن يحدق فيّ، كأنه يعتذر عن عيوبه. أية عيون! وأية يدين!

لم يمض وقت طويل حتى ذقتَ في مصرا أمومة تشرّبت فيك، أمومة

Twitter: @ketab_n

شعرت بمتعة قوتها ودفء عناقها في لحظة، وتعاسته في اللحظة التالية. مرة أخرى، ستحاول الاتصال وحين تفعل ما بوسعها لتبادلك الاتصال تبدو أنت مرتعشاً ومتأهباً للتراجع، ستتجنب أي اتصال معها تماما وتبتعد. لقد ساعدتك في تقليص كروب الحياة. تألمت معك يوم كنت تئن منقبضا، ساعدتك كي تريح نفسك بملاطفتك ولمسك وبسرد القصص الجميلة لك، وتخاطبك، رغم أنك ورطة صغيرة، بشيء مثل «يا رجلي» و «يا اعز الرجال» وبالكثير من التحبب مما سيشعرك بأنك محبوب ومرغوب فيه ومدلل.

كنت منتشياً برفقتها - وليس ثمة كلمة أبلغ من ذلك، نعم، كنت منتشياً على نحو ملحوظ. وكنت تثير الضوضاء. نشرت رغباتك بقنبلة وعرض يتماشى مع جنون العظمة الذي يصيب الملوك. لكنك بعد ذلك تغدو هادئاً بمعانقتها أيضاً، متأملاً ومفكراً - مفكراً حتى أن بعض الجيران لم يصدقوا أعينهم، وهم يراقبونك هادئاً مستغرقاً في التفكير، عيناك تلمعان برؤى لا يراها أحد إلا أنت. وحينما لم تكن هناك، حينما تفتقد حضورها، حينما لا تتمكن من شم عطر أمومتها، عند ذاك كنت تصرخ، وتضج في الصراخ، وكأن بك مساً من الجنون، تبدو مثاراً، شيطانياً وفوضوياً كالعفاريت. عند عودتها من حيث كانت، كانت تغطسك بأكملك في الماء، تحك جلدك وتغسلك بتفان مثلما كانت تغسل أرضية غرفتها. وقرر جمع الأقارب أن مصرا، المرأة التي عملت مرة خادمة، ستكون أماً لك. وهنا ثمة شيء لابد أن يقال - كنت أنت من جعل اختيار الأقارب لابد أن يكون بالموافقة؛ أنت، إبن السبعة أيام. ووافقت مصرا على ذلك. وكم كان العم قورح في كالافو ضاناً بذلك عليها.

حين تستثار تمد يدك إلى الأمام مثل أعمى يبحث عن شواخص، وإن لمست أحداً ما غير مصرا، كنت تنفجر مباشرة في نوبة بكاء عنيفة ومتشنجة. ولكن إن كانت هناك مصرا، تبقى صامتاً، تلمسها ثم تلمس

Twitter: @ketab_n

نفسك. بدا لها كأنك ربما تعثر فيها فقط على نفسك. مرة أسرّت بذلك إلى من ستشير إليه على أنه عوضان وقالت له: «حين يلمسني، يدرك أنه موجود».

كان ثمة شيء أمومي في الكون الذي أدخلتك فيه مصرا منذ اليوم الذي قررت فيه أنها مسؤولة عنك، منذ اللحظة التي صار بإمكانها أن تناديك، في الغرفة المخصصة لكليكما، بكل الملاطفات التي تحشدها في كلامها. لكنك بالنسبة لها في الغالب، «رجلي» أو ما شابه - خصوصاً حين تبلل نفسك، تلمس وتضغط على فحولتك أو تمسح عجيزتك، بخشونة. أحياناً، عموماً، تضربك على الكفل برفق وتخاطبك بكلام جديد. لكنها تبقى دائماً أمومية، تماماً مثلما الكون، تعطي وتعطي. قالت لك «حين يكون الإنسان طفلاً يستقبل في داخله الكون ذاته، ويكبر الكون مثل الكوة كلما زدت له في العطاء». من المؤكد أن هذا كان من الصعب عليك استيعابه. ولكن مهما كان الذي قالته، مفهوماً أو غير مفهوم، فقد «كانت» هي الكون. كانت هي من أخذك بعيداً عنْ «نفسك»، مثلما كانت، هي من أعادك إلى عالم الرحم والبراءة، وحممتك بنقاء في ماء الحياة الجديدة والتعميد الجديد، كي تخلق فيك الأساس الصحيح للذات الشابة، دون ذكريات مؤلمة، لتعوضك عن والديك المفقودين بذاتها الثرية التي تمنحها بكرم لك أنت - طفلها الذي عثرت عليه من جديد! وأنت؟

(٢)

وُجدتَ لمصرا أولاً وفي البداية في النظرة الغريبة: التي نظرت بها إليها، عيناك اللتان، حين عثرتا عليها مرة، ركزتا على خطيئتها - نفسها! أمسكت هي بالنظرة التي ترمقها بها مثلما يتشبث طفل أخرق بكرة وحفظت تلك النظرة في ذاكرة عقلها الفوتوغرافي. وظهّرتها، طبعتها بألوان مختلفة، كل واحدة منها عبرت عن مزاجها. كانت متيقنة، مثلاً، أنك رأيتها كما

Twitter: @ketab_n

هي: إمرأة تعسة، لا طفل لها ولا أصدقاء، إمرأة، في ذلك الغسق - هل كنت ستصدق ذلك؟ - تحيض أمامك مباشرة، تحت تسلط نظرتك الجبارة تلك. رأت في نظرتك تلك، أباها، الذي رأته لآخر مرة حين كانت في الخامسة من عمرها.

«أغظ طفلاً ولسوف تكتشف فيه البلوغ»، كانت تكرر ذلك على أنه مَثل. «أفرِح بالغاً بالهدايا عندها يظهر الطفل الذي فيه». وهي أغاظتك وأفرحتك، وكنت صبوراً بما فيه الكفاية لتراقب البالغ فيك وهو يخرج ويعرض نفسه. لم تر فيك أباها فقط، بل أيضاً الطفل في نفسها: لقد رأت مناطق مختلفة من الأرض، وسمعت لغات مختلفة يتحدث بها الناس، وشاهدت، على شاشة ماضيها، عدداً من الصور أُعيد عرضها على أنها كانت حقيقية ومؤلمة كما بالأمس. لقد بحثت عن طفولتها حيث أخفت أسرارها الأشد ثراءً وكانت تود أن تفشيها لك، لك وحدك. رأت فيك، أيضاً، أميرة، لم تزد على الخامسة من العمر، أميرة جميلة يحوطها الخدم والمحبون، تلك التي كانت تحصل على كل ما ترغب فيه والتي كانت محبوبة من أمها، ولكن ليس كثيراً من أبيها لأنها فتاة ولن ترث لقبه - لن تستطيع أن تستمر بسلالته. مجرد أميرة.

لك أنت، أيضاً، رغم أنك صغير على الفهم، تحدثت عن أسرار والديك لم يكن أي أحد مستعداً لإخبارك بها. حدثتك عن السبب الذي جعل أمك تختبئ في الغرفة التي وجدتك فيها وسبب موتها بطريقة سرية هادئة. وهمست في أذنيك أيضاً بأشياء عن أبيك الذي توفي قبل بضعة أشهر من ولادتك، في ظروف غامضة، في سجن ما، من أجل مثله العليا. إلتجأت أمك إلى غرفة منعزلة في الباحة الخلفية من منزل رجل غني وهناك ولدتك - في الخفاء.

ربما كنت ستموت بسبب البرد الذي تعرضت له، لو لم تكن مصرا قد دخلت إلى هناك صدفة. لحسن حظك، على أية حال، أن مصرا عثرت على

Twitter: @ketab_n

الغرفة التي كنت فيها، المكان الملائم جداً للاختباء عن عوضان، الذي كان يضايقها بعروض صداقة لم تكن ترغب في الرد عليها بطريقة مشابهة. كانت الغرفة مفتوحة وتعثرت في داخلها وهي تغلق الباب خلفها عل عجل. لم تدرك أول الأمر أنك أنت وأمك كنتما هناك: أنت حي وأمك ميتة. بقيت هي الشاهد الوحيد ولابد من التسليم بكلمتها. كانت تصر إنها لم تكن تعرف حتى وقت قريب من هو والدك. لماذا انتظرت حتى تحممك وتغذيك وتمنحك الأمومة - هذه الأشياء ترفض الإفصاح عنها. مهما كانت الحال، في الوقت الذي أُعلم الأقارب بوجودك وبموت أمك، كانت قد مرت ستة عشر ساعة، وخلال هذا الوقت كنت أنت ومصرا قد تعرفتما على بعضكما البعض وتأكدت هي أن لا أحد قد وضع عينيه عليك. بالطبع لا أحد كان يجرؤ على تحدي روايتها. وفي الواقع، عد من الحكمة كتمان السر الذي يتعلق بإبن من تكون؛ لذلك لا أحد من العائلة الحالية كان يعرف شيئاً عنك إلا بعد أن مضت فترة طويلة. من أجل ذلك دُفنت جثة أمك على عجل، وسراً أيضا، أمك التي لم تترك خلفها أثراً سواك - أنت الذي أُرسل مكافأة لمصرا، أو كما قال البعض كأنك طفلها. كنت الهمسة التي تقال بلطف. إسمك سيصبح متكوناً من مقطعين ولا أحد يمكنه أن ينطقه بيسر، مما كان يعني أن ليس فقط لا توجد هناك بركات قرآنية قد تليت في أي واحدة من أذنيك لترحب بك في هذا العالم، بل أن حضورك في هذا الكون غير مرحب به كلياً. فيما يتعلق بالكثيرين لم تكن أنت موجوداً؛ ولم تكن لك أية هوية كما تتطلب بيروقراطية البلاد. عسكر! الحرف «س» في إسمك كان ينطق برقة كي لا يثير الشبهات؛ بينما الحرف «ك» كان يحتجز في حذر لسان مطرز بالأسرار المكتومة لصوت - عس - كر! إنه الـ«راء» الذي يتمرغ مثل بقرة في الرمل الساخن بعد قضاء نصف يوم في المرعى. عسكر!

كانت ميزتك، كبرت أم صغرت، أنك قد قررت كيف تكون حياة مصرا في اللحظة التي توليت فيه الأمر. منذ اللحظة التي «توليت فيها أمر

Twitter: @ketab_n

حياتها»، اتخذت شخصيتها انعطافاً كبيراً. لقد أصبحت أماً لك. راحت تسير بانحناءة خفيفة، أما وركها، فكأنه استعد لحملك، إذ نتأ جانباً. لم تعد ترى رجل الدين عوضان كثيراً، كما اعتادت، رجل الدين الذي اعتاد أن يعلمها، كل يوم، بعض السور القرآنية، والذي كانت تميل إليه قليلاً. ذلك الميل الذي فسد مع مرور الأيام وتلاشى أخيراً كما يتلاشى الضوء عندما ينعدم الزيت في المصباح. كانت ميزتك، كبرت أم صغرت، أن مصرا، مادمت قد أضحيت الآن لها، رأت طفولتها «على أنها مثال يتأرجح في مهد الذكريات». كان لها أيضاً طفل بلا أب لكنه مات قبل بضعة أشهر من ولادتك. كانت حزينة لأنها مجبرة على أن تطعمك من الزجاجة. كان طفلها في عمر الثمانية عشر شهراً حين مات، وكانت قد فطمته تواً. في الغالب، في الفضاءات السرية من أفكارها المكتومة، تبرز فكرة، أنها قد تحمل في صدرها بعض حليب الأمومة. فتقوم بتجريد صدرها لك وتجعلك ترضع ثدييها؛ وأنت تبتعد وترفض الرضاعة وتبكي فتبكي هي وتكون تعيسة. فكان بكاؤك يكمل الجزء غير المغنى من الكورس. وتعدك وتعد نفسها بأن لا تحاول أبداً تغذيتك من ثدييها ثانية. لكنها تعيد فعل ذلك مرة بعد أخرى. السؤال الذي لا أحد مؤهل كفاية للإجابة عليه، هو فيما إذا كانت أمك قد أرضعتك أم لا قبل مماتها. لست في موقع من يستطيع تأكيد ذلك. لكن مصرا «ينتابها قلق» من فكرة أنها أطعمتك من صدرها. وحين تضايقت، كانت تصر، «أنا أعلم، أعلم متأكدة أنها فعلت ذلك».

أبوك حاضر أمامك في صورته التي رأيتها، والتي يقف فيها خلف دبابة خضراء مثل الشق الخلفي الذي في الصورة، وقد أخبروك أنه قد حرر الدبابة حين كان يقاتل ضمن حركة تحرير الصومال الغربي، التي بقي فيها عضواً نشطاً حتى آخر لحظة من حياته، شجاعاً كما تحكي عنه القصص. وتحضر أمك أمامك في رضعة لا تكاد تذكرها، وليس ثمة أحد يمكن أن يناقش رواية مصرا أن أمك قد أرضعتك فعلاً. شيء واحد واضح جداً.

Twitter: @ketab_n

أنك لم ترث منها أية ثروة، وإن كان ثمة شيء يذكر فقد أورثت لك حوادث وقصصاً يُحكى لك نتفاً منها من قبل الآخرين. وما الذي أوصيت به أنت لمصرا؟ ثمة صورة أُخذت لك عندما كنت صغيراً جداً؛ ثمة يد، من المؤكد أنها يدك لامحالة، امتدت، بعيداً عن جسدك، تبحث عن يد (أخرى) - من المحتمل جداً أن تكون يدها، يد لتلمسها، يد لتساعدك وتمنحك الطمأنينة. وثمة أيضاً، واحدة من الصور التي لاتزال لديها رغم جلبة الحروب والسفر والإزاحات، صور أنت فيها وحدك، في حوض الاستحمام، نصف واقف وتعبث فرحاً بالماء المليء برغوة الصابون. وفي الصورة ثمة يد لامرأة - من المحتمل جداً أن تكون لمصرا - يد ممدودة لتلتقي بيدك لكنها صدفة «تحوم»، كالصقر، فوق أعضائك الخاصة - التي لم تلمسها اليد تماما! وثمة في الصورة، بقعة، معتمة كالدم، بقعة تسقط عليها عيناك محملقتين.

ولكن أهم ما في الأمر، أنك أبقيت لمصرا النظرة الثاقبة في عينيك عندما كانت تسير في ذلك المساء، هاربة من مداعبات عوضان الشهوانية. في أوقات معينة رأتك تعيد تلك النظرة التي ألفتها مما كانت تتذكره من أبيها؛ وفي لحظات أخرى، رأت نظرة أخرى أدركت أنها لإبنها - قبل أن يمرض ويموت.

فكرت في نفسها، للأسف الشديد، ليس ثمة حليب أمومي يمكنها أن تمنحك إياه، أنت مسؤوليتها الصغيرة. ولكن ثمة الكثير الذي منحته؛ لقد أبقتك دافئاً حين التصقت بين ثدييها، ضمتك إلى جسدها كي تشعر بحركتك، كي تكون حاضرة متى ما تحركت، كلاكما تقتسمان فراشاً واحداً فتشم هي بولك مثلما تشم أنت عرقها، على جسدك ختمت بصمات أصابعها، رطوبة الليلة الماضية؛ رطوبتك ورطوبتها.

(٣)

لقد غذتك، ليس فقط بالغذاء الذي كان يدفع ثمنه الأقارب، بل

Twitter: @ketab_n

بمجموع اعتقاداتها التي كانت لها وحدها. معك، وأنت صغير، رضيع تحتاج إليها وقنوع، بإمكانها أن تكون مع ذاتها - فبإمكانها أن تسير عارية لو أرادت، أو من الممكن أن تدعو عوضان ليتقاسما معك السرير الذي كان يأز عندما يمارسان الحب، ذلك السرير المتهدل من الوسط حيث كنت تتدحرج، ملفوفاً بينهما. عندما تستيقظ، تكون أنت الوحيد الذي في الغرفة معها، كانت مصرا تتحدث «معك»، وتقول لك كل الذي في نفسها، تتكلم عما يحزنها وعما يسرها. لكن ثمة شيء واحد فقط تفعله بحضورك، أو بحضور عوضان. كانت تتكلم بالأمهرية. كانت تلعن الناس بلغتها. لم يكن من المهم بالنسبة لها إن كنت تفهم ذلك أم لا، لكن المهم هو أن تنظر إلى عينيك، لترى إن كنت تنظر باندهاش أو عدم استيعاب لكلامها؛ نظرة كانت تعيدها للمقابلة الأولى؛ بينك وبينها.

بسبب علاقاتها معك، ولأنك كنت ملتصقاً بها، أصبحت حالتها موضوعاً للجدل بين الناس، لم تكن إلا تلك «الخادمة التي جاءت من مكان ما، من الشمال»، ويعاملونها بخساسة، وينظرون إليها باحتقار وينعتوها بشتى الأشياء. كان يقال أن اسمها لم يكن حتى مصرا. عموماً، لم يهتم أحد بمصدر الإشاعة. ولم يزعج أحد نفسه للوصول إلى أصل الحكاية الغامضة. ولكن من تكن هي حقاً؟ بالنسبة لك، كانت هي الكون وما تملكه هو مجموع الأفكار التي غذيت عليها عقلك المتنامي. لم يكن من المهم على الأقل إن كانت قد جاءت من أثيوبيا العليا أو لا ولم يكن من المهم أيضاً في الأقل إن كانت قد خطفت من قبل محارب من إحدى القبائل في الشمال عندما كانت في السابعة من العمر. فيما إذا كانت خادمة أو لم تكن فقد كانت تعني لك العالم كله. وقد آمنت أيضاً، أن لا أحد قد عرفها كما عرفتها أنت. لا أحد احتاج إليها كما أنت ولا أحد درس التقلبات في مزاجها كما أنت. باختصار، أنت تفتقدها إلى حد لا نظير له عندما لا تكون معك. ولذلك، بدأ الكثيرون يتعاطفون معك، مستسلمين، فأنت تصرخ

Twitter: @ketab_n

وتصرخ حتى يأتوا بها إليك. وباستسلام مماثل، تبدي سرورك برفقتها. مما جعل البعض يقول أنها قد سحرتك.

لقد علمتك كيف تستخدم جسدك بأفضل صورة. ساعدتك في تعلم تنظيفه، ساعدتك في مراقبته ينمو، مثل ظل النهار، من أقصر عبثية للزمان حتى أطولها؛ لقد عرفتك على حدود جسدك. أما روحك وحين تصل إلى كيفية المساعدة في تطوير ذهنك، كانت تقول أنها لا تستطيع أن تثق بنفسها في أن تتعامل مع ذلك على نحو مقنع. ليس آنئذ على أية حال. ألهذا كانت تذهب وتطلب مساعدة عوضان؟

لم تطيقا أنت وعوضان بعضكما البعض منذ مقابلتك الأولى معه. لم تحب النظرة التي كان يحدق بها إليك. ولم تكن تحبه حين تمنحه مصرا كل انتباهها لتتركك مع نفسك قليلاً أو كثيراً. لقد علق على النظرة التي في عينيك ووصفها بأنها شريرة وشيطانية. وكي تدافع عنك وصفت النظرة في عينيك بأنها «نظرة بلوغ». لم يبد على عوضان بأنه راض. ثم استمرت في القول، «لأنه واجه الموت عندما لم يكن قد أصبح كائناً حياً بعد، ربما يوضح هذا لماذا هو حاضر في النظرة التي في عينيه. ربما منحته نجومه فضيلة أن يمسك في الآن ذاته هويات متعددة لأناس من مختلف الممالك: من الأحياء والأموات، دون أن ننسى أنه رضيع وبالغ في الوقت نفسه». وإذ خاب أمل عوضان بتفسيرها هذا، خرج عازماً على أن لا يعود إليها أبدا.

لكنه عاد. كان مغرماً بها - أو هكذا اعتقدت. وكالعادة، لم يستطع منع نفسه من التعليق حول حقيقة أنها كرست حياتها لك: كنت زمانها كما يقول، لأنها حين تنهض، لا تنهض للصلاة أولاً، بل تهرع لتلبية طلباتك. وماذا كانت بالنسبة لك؟ قال عوضان، كانت هي «فضاءك». تتجول حول جسدها كما تزحف الحشرة على جدار، متوازنة الساقين، واثقة الأقدام مطمئنة. واستمر عوضان: «الله هو الفضاء والزمان لكل المسلمين، إلا أنت يا مصرا، فعسكر هو البديل عن ذلك». ولم ير أي خطأ فيما كان يقوله.

Twitter: @ketab_n

ولكن كيف يمكنه أن يقول ذلك؟ كان يشعر بالغيرة.

لم تكن مقتنعاً بالعالم اللافردوسي الذي كنت مقذوفاً فيه من قبل نجومك، مثل أي إنسان ذكي، لقد فتحت عينيك في عالم صغير مظلم. تصرفت كأنك لابد أن تجد و «تلمس» العالم خارج نفسك، وهذا ما فعلته كي تعيد التأكد من استمرارية معينة. أفصحت مصرا لعوضان في إحدى الليالي بينما كنتم أنتم الثلاثة في السرير ولم يكن رجل الدين في مزاج سيّيء، عن ثقتها أنه يتصرف كأنه يشعر بالضياع ما لم تعيد يديه الممدودتين إلى أحاسيسه المرهفة الرسالة التي تعيد التأكيد له أنني موجودة بـ «اللمس». «إنه لا يستطيع تخيل عالم دون ذاتي التي تعيد الإطمئنان إليه».

قال عوضان: «ما الذي علي فعله؟ إقترحي شيئا».

قالت: «كن لطيفاً معي مثلما أنا معه».

قال: «أنت مجنونة».

فردت: «وأنت غيور».

فقال عوضان، الذي كان يريد مصرا له وحده، متذمراً: «لم أحظ بك يوماً وحدك. أراك دائماً معه طوال الوقت، إلى حد أنني أراه حتى عندما لا يكون موجوداً. تفوح منك رائحة البول دائماً. حتى أنني في أوقات أشم رائحة البول في ثيابي أيضا، وهذا ما يضايقني ويشعرني بالتقزز. لماذا لا نتزوج، أنا وأنت؟ إنه حتى ليس طفلك. لكننا بمشيئة الله يمكن أن نرزق بواحد من صلبنا، معاً، أنا وأنت. تعالي وحدك - جسداً وروحاً - ودعي جسدينا يتحدان دون رائحة عسكر وصرخاته».

قالت: «لا أستطيع. أنا له - جسداً وروحاً أيضا. لست لأحد غيره. أكون لك أو لغيرك فقط في الخطيئة. أجل في الخطيئة فقط. تخيل - ذلك يا رجل الدين».

وانفجرت باكية.

Twitter: @ketab_n

وتململ عوضان.

فاستيقظت أنت وصرخت باكيا.

(٤)

وكي تكتمل الصورة أكثر، لابد أن يتحدث الإنسان عن عمك العم قورح. الحقيقة تقال أنه، قد خطط بشأن مصرا وأنت ظننت أنه وجد طريقه إليها عدة مرات. ليس سراً أنك لم تحب العم قورح أو زوجاته العديدات: عديدات لأنه طلّق وتزوج الكثيرات منهن حتى أنك لم تستطع حساب عددهن في أي وقت ما، وفي أوقات معينة، لم تكن تعرف أياً منهن كان متزوجاً. حتى جاء يوم وصلت فيه إمرأة كنت تسميها «شاهراويلو» وظهرت في المشهد و(مكثت) عنده (كما فعلت شهرزاد في ألف ليلة وليلة). ولكنك أيضاً لم تحب أياً من أطفاله.

كان رجلاً متحجر القلب، وكنت لذلك تشعر بالذعر منه. غالباً ما تتذكره يجلد واحدة من زوجاته أو واحداً من أطفاله. رفضت بالطبع عطفه الواضح قليلاً ولم تتقبل رقة يده التي كان يمدها نحوك بثبات. كنت تعزف عن أي اقتراب جسدي منه. كان يقال أنك كنت تبكي بصخب إن هو لمسك رغم أنه لم يضربك وقلما يجد تبريراً لتوبيخك. كنت يتيماً ولك «نظرة» تحمي بها نفسك. لم يشأ أن تتركز عليه «النظرة»، ولا على زوجاته أو أطفاله.

حين كبرت قليلاً وعشت في مقاديشو في عالم الخال هلال وصلاتو الأكثر تنوراً، بدأت تدرك ذلك: لم تحب أطفال العم قورح لأنهم يتصرفون كما يتصرف الأطفال عادة، لا أكثر ولا أقل، فيصرون على امتلاك اللُعب إن كانوا صبياناً، أو يصنعنَ عرائس ويلبسنها الثياب إن كن بناتاً. أولاده يحبون اللعب بخشونة مع بعضهم البعض وأضحوا يتمتعون بسادية في

Twitter: @ketab_n

إزعاج أو إيذاء الواحد للآخر بينما بناته يشغلن أنفسهن باحتضان وإرضاع لُعبهن أو اكساء العظام، ليس على أنهن نساء يرعين أطفالاً بقلوب عطوفة بل كأنهن بنات صغار. وباستعادة الأحداث، كنت ستقر أن ثمة جزءاً منك أعجب بأولئك البنات عندما يقفزن على الحبال، أو يتحدين الأولاد أو يشتركن بالألعاب الجريئة - ناهيك عن إنشادهن أغاني الأطفال التي يبرعن بها دائماً الصغيرات منهن. وقد أعجبك الأولاد، من بعيد على أية حال، عندما يقذفون رميات قوية من المرجامات، ويقتلعون الحياة من أبو بريص وهو يتسلق الجدار أو من سحلية تنعم بالشمس. إنها مظاهر حركتهم في أخذ الحياة ومنحها التي استمتعت بها.

قلت مرة لمصرا إن كان ثمة شيئاً تشترك به مع البالغين فهو الامتعاض الشديد من هذر الأطفال أو القعقعة الصبيانية لأدواتهم الميكانيكية وجلبة طلباتهم، «أريد هذا، أريد ذاك». استخلصت ملاحظاتك لتدهش أولئك الذين يستمعون إليك (ومن بينهم امرأة من الجيران متزوجة من رجل عاجز، يضطجع على ظهره طوال الوقت، يعاني من مرض في العمود الفقري لا تعرف اسمه)، بالقول، «متى يقومون بعمل ما، كما يقول زوج كارين، متى ينجزون شيئاً ما - لا كأطفال بل «كائنات»؟»

وعلّقت هي: «ولكنك بالغ».

ووافقتها كارين: «إنه لكذلك فعلاً».

الذي لم تقله، رغم أنه طرأ في بالك، أنك «كنت» بالغاً، ومهما كان لذلك أهمية، أيقنت أنك كنت «حاضراً» عند ولادتك. لكن أحداً لم يقل شيئاً. ربما لأنك كنت تعرف أن نوافذ غرف النوم عندما أغلقت على الأجفان النائمة لرؤوس الأطفال التي كانت تنود من النعاس، حين ملأ شخيرهم فضاءات الغرف التي ينامون فيها، عندما تذوق السنتهم طعم النوم التفه في أفواههم، عندما أسلم آباؤهم أنفسهم لأحلامهم، طاردين كوابح النهار لأولئك الذين تمتعوا بصحبة من معهم، في الفراش؛ حين تنطلق

Twitter: @ketab_n

الأفكار وتكون حرة في الطواف في الفضاءات المفتوحة للعقل المنفلت: عند ذاك كما كنت تعرف، يصير بإمكانك أنت ومصرا أن يقص كل واحد للآخر القصص التي لا أحد غيركما يصغي إليها. وفي خصوصية الساعة المتأخرة، في سرية ظلام الليل، يصير بإمكانك أن تتقدم بالسماح للبالغ فيك أن يظهر ويعبر بأفكار البالغين، مثلما تسمح مصرا للطفلة التي في داخلها أن تفصح عما في كيانها.

وعند ذاك تثرثران. وكالبالغين تتبادلان الأسرار التي جمعها كل منكما خلال اليوم الماضي، تدينان وتتبادلان الأحكام. ستتحدثان عن الناس، تتحدثان عن شاهراويلو التي يحكى عن إراقتها لدم قورح كل يوم لتكبح جماحه. ثرثرتما كذلك باحتقار ودون أسف عن ابن الجيران الذي يأكل اكثر منكما عشر مرات، والذي لا ينطق رغم أنه في الرابعة والنصف إلا كلمة «الطعام»؛ ولدٌ وزنه «طن» والذي لابد من حشو فمه بأي نوع من الطعام. لقد أسميتماه «الوحش» بعد أن سمعتما أمه تقول «يا إلهي لماذا جعلتني ألد وحشاً؟» وستتظاهر مصرا بالاستمتاع في سماعك وأنت تسرد لها القصة ولكن ستتغير تعابير وجهها فجأة لتقول لك قد بالغت، وستقول، «هذا يكفي عسكر» وستغير مجرى الحديث في الحال إلى شيء أكثر جدية، ولا يقبل الجدل الكثير؛ أو أنها ستحكي لك حكاية حتى يبطُؤَ نَفَسك ويعلو، وكأنك كنت تخوض في بركة موحلة يرتفع الطين فيها حتى الركبة. كانت مصرا خبيرة في التعامل مع مزاجك. كانت تختلف عن زوجات عمك. فهن ينشغلن عموماً كأمهات عطوفات في السنتين الأوليتين أو السنة الثالثة. ثم بعد ذلك يصبحن قاسيات ويتعاملن بلا رحمة مع أطفالهن الذين يُتوقع منهم أن يسلكوا وفقاً للتعاليم الصارمة في التهذيب التي لم يكونوا قد ألفوها بعد. تخيلتَ أولئك النسوة أنهن دائماً في الدورة الشهرية، من خلال مزاجهن الحاد والدائم عند تعاملهن مع أطفالهن وضربهن لهم عندما لا يخرجون في اللحظة التي يطلبن منهم ذلك.

Twitter: @ketab_n

كانت مصرا ستقول لك، بشأن أولئك النسوة، حين يكون مزاجهن في أحسن حالات، يكون الأطفال مثل الملوك العابرين. «ألا تلاحظ أن كل شيء يهدأ عندما يتمايلن وهن يمرُرن من فوقهم وكيف يتفاخرن؟»

وسألتها، «ولكن لماذا يحب الناس الأطفال؟»

«البعض منهم يمنحون الطفل لحظة تدليل بسخاء لأنه لم يوقظهم في الليلة الماضية؛ والبعض الآخر لأنهم يرون الملائكة في الأطفال الرُضع. فهم يستكشفون ويندهشون من كرم الرب؛ والبعض لأنهم ليس لديهم أطفال ويحقدون على أولئك المباركين. ثمة أسباب كثيرة يعجب فيها البالغون بالأطفال بعدد البالغين أنفسهم».

قُلتَ: «فلماذا إذن لا يحبونني؟»

أجابت: «لأنك لست طفلاً. هذا هو السبب».

إنفتح باب الذاكرة في عقلك ورأيت أقارب يزورون بيت عمك قورح وكانوا يهبون الأطفال نقوداً ليشتروا بها الحلوى أو الكرات؛ ورأيت أيضاً أن أولئك الأقارب أنفسهم يضربون الأطفال حين يسيؤون التصرف أمام الناس. ولكن حين يأتي دورك يسألون عن صحتك، رغم أنهم يفعلون ذلك بحذر شديد، يتحدثون بوضوح إلى مصرا بطريقة من كان يتحدث إلى أجنبي لا يدرك الفروقات الدقيقة للغته. ولا يأخذ الأقارب راحتهم معك تماماً، كلا، أبدا. كنت تتساءل إن كان «الذنب» هو الذي يجعلهم يتصرفون هكذا. «الذنب» الذي يجعلهم يشيحون بنظرهم إلى البعيد حين تنظر «محدقاً» بهم. أو لأنهم يتضايقون لأن «نظرتك» كانت لطفل يتيم.

قالت لك مصرا في إحدى الأمسيات: «أريدك أن تفكر بهذه الطريقة، أنت رجل أعمى وأنا عكازك، أنا من يقودك إلى بؤرة النشاط الإنساني. حضورك يُسكت الجميع، يجعلهم يخفضون من أصواتهم. وتعي أنت ذلك وتفسر صمتهم كأنه مناورة لإبعادك وتشعر كأنك مراقب، محرم عليك

Twitter: @ketab_n

الدخول في عالمهم. مذاك وأنت متشبث بالعكاز، على أنها مرشد وحام. ولأنك تشعر بالتعاطف من خلال صمتهم تظن أنهم يكرهونك. أنت، الرجل الأعمى، وأنا، العكاز. معاً نخترق الشدة - التي هي ضميرهم».

قلت: «فلا عجب أنهم لا يحبونني».

ومرة أخرى غيرت مصرا الموضوع إلى موضوع أقل تشابكاً، موضوع أقل ثقلاً من أفكار «الذنب». وتهدهدك لتنام: برقة ولطف، بصوت يغير إيقاعاته وبغناء تنويمي بلغة لست تعرفها. بعض القصص التي تحكيها لك كان فيها الكثير من سفك الدماء، لا يمكن إنكار ذلك. وفي قصتين منها، ثمة من يأكل البشر - دون أن يموت ديغدير ودون أن تمطر السماء! وأحياناً، تقدم لك أولاً المغزى الأخلاقي للقصة باختصار قبل أن تحكيها لك، في أحيان أخرى تدعك تعيد سرد القصة كي تمنحك الفرصة في إبداء تفسيرك. بعد سنوات، اكتشفتَ (كانت كارين هي التي أعلمتك) بأن مصرا كانت قد اعتادت أن تحرص على سماع هذه القصص عندما كنت بعيداً عن السكن كي تتمكن من تغذية خيالك بها حين تعود. وعليك أن تقر أن هذا ما كان يقربك إليها.

على العكس من أطفال العم قورح لم تسرق أبداً من أي أحد. تذكر ما تريده فتلبيه لك مصرا. وإن لم تستطع تقول لك السبب. وقد علمتك على عدم تقييم المال والامتلاك. وكذلك لم يضع أحد من الأقارب الزائرين في السر في يدك الممدودة قطعة نقدية ما كان أحد من والديك يمكن أن يعطيك إياها. وكما كنت تعرف فإن أطفال العم قورح كانوا يسرقون من أبيهم. يتآمرون فيما بينهم لفعل ذلك - يراقبه واجد منهم حين يدخل الحمام والآخرون ينقبون في جيوبه ليتلقفوا مبلغاً صغيراً لا يمكن أن يشعر بفقدانه ويتقاسمونه فيما بينهم. هم في الأغلب يوقتون ذلك مع قدوم البدو الذين يأتون لشراء المؤونة من دكانه، بعد أن ينصبوا خيامهم في الحي حيث تحدث جلبة كبيرة. كانوا يعرفون أنه لا يجرؤ على طرح أسئلة محرجة على

Twitter: @ketab_n

زبائنه هؤلاء وضيوفه. كان أبناؤه يعرفون أنه لن يعطيهم ولا أمهاتهم أي شيء يراه فائضاً. كانت شخصيته «العامة» هي التي تصر على الكرم في بعض الأوقات. فيمكن أن يكون لطيفاً مع أطفاله وزوجاته عند حضور «الآخرين» من الناس؛ وقد يكون سخياً. أما حين ينفرد بهم، فقد كان مزرياً. لذلك كانوا يسرقون منه في غيابه.

ولمصرا أيضاً شخصية خاصة وعامة. كانت أكثر دفئاً وأشد عطفاً حين تكون وحدها معك، فتناديك بأحب الكلمات، وتشاطرك أسرارها التي لا يعلم بها أحد. وفي كل الأحوال لست بحاجة لأن تسرق شيئاً من مصرا أو من نفسك. ينحصر الأمر عندما ترتدي هي الشخصية العامة فـ «تسرق» من وقتها بضع دقائق من المودة التي تبادلتماها خلسة.

وعندما تكون مصرا في دورتها الشهرية تتوتر أعصابها، فيُعهد بك إلى كارين، التي كانت كذلك عطوفة، وكريمة - وقد عاملتك ليس على أنك طفلها، بل حفيدها. لأن بينكما جيلين من العمر، اهتمت بك كارين بطريقة اختلفت عن طريقة مصرا الواضحة الاستحسان. كانت المرأتان هما أفضل صديقتين لك - المرأة ذات الزوج العليل الراقد على ظهره منذ سنوات والذي كان مقيداً إلى البساط على الأرض حيث يرى منه، كلما نظر عالياً إلى السقف، صورة لأرنست بيفن؛ والأخرى، المرأة، التي بفضل أنها أجنبية، شعرت أنها اقتربت من الكيان الصومالي - إن يكن ثمة شيء كهذا - من خلالك فحسب. كانت كارين ذات عقل طفولي بالنسبة لها. كذلك، عندما تكون كارين متوعكة، تعتني مصرا بالرجل العجوز. وعلى نحو يلائمكم ثلاثتكم كان بيت كارين وزوجها يقع بين بيتكما وبيت العم قورح. لذلك كنت تستمتع بالتنقل من مأوى لآخر دون أن تحتاج إلى لمس أطراف المأوى الثالث - الذي هو تحديداً بيت العم قورح.

لكن قورح يأتي إلى بيتكم إذا شاء، مفضلاً المجيء عندما تبدأ بالتنفس عالياً من أنفك، توشك أن تنام. كان ينتظر حتى يأخذك حلمك إلى المصير

Twitter: @ketab_n

المائي - حيث يكون رطباً، أخضر يغطيك بأكملك - إنه فردوسك. عندها يأتي للنوم مع مصرا.

آه كم كنت تكرهه!

(٥)

من الناحية الأخرى، أحببت الخال هلال وزوجته صلاتو، حالما التقيتهما. كان جريان دفئهما مبهجاً وعذباً كماء الربيع. وكل شيء يقوله أو يفعله أي واحد منهما، عندما تفكر فيه، يبدو ضرورياً كالدم بالنسبة للحياة. لقد أحببت هلالاً وصلاتو، أحببت البحر وأحببت مقاديشو.

رحت تكتب الرسائل إلى مصرا بعد بضعة أشهر من وصولك إلى مقاديشو. لكنك لم تكمل حتى رسالة واحدة، لشكك، وأنت محق، أنها لن تكون قادرة على قراءة اللغة الصومالية رغم أنها تتكلمها بطلاقة. وحزنت بشدة عندما علمت أن ليست هناك أية خدمة بريدية خلال المسالك الرسمية بين الصومال وأثيوبيا. أخبرك الخال هلال أن الرسائل لابد لها أن ترسل عبر طريق آخر، من المفضل عبر نظام القناة الأوربية، مثل الرسائل بين شخص يعيش في أبرتهيد في جنوب أفريقيا وآخر في أفريقيا السوداء، أو مراسلة بين شخص مقيم في سوريا وآخر في إسرائيل. لذلك فبالإضافة إلى جدار الإملاء الصومالي الذي يعزل بينكما، ثمة أيضاً خط التفكير الأثيوبي الرسمي، فهو معاد لأي اتصال يتم بين الصوماليين الذين يعيشون على كل من حدود دي فاكتو بين أثيوبيا والصومال. ثمة، بالتأكيد، إشاعات تروى عن عدد من المشكوك أن لديهم تعاطفاً صومالياً وقد اغتيلوا سريعاً، ويقال أن البعض منهم لا يزالون في السجون حيث حكم عليهم بأحكام قضاء عسكري. لم يكن بإمكانك برهنة صحة كل ما تسمعه لكنك سمعت تقارير عن رجل دخل أوغادين سيراً، في أحد الأيام وقد أُعتقل. وجدوا في محفظته رسائل يقال أنها كتبت من قبل أحد أعضاء جبهة تحرير الصومال

Twitter: @ketab_n

الغربية إلى عضو آخر. حكم على الرجل بالإعدام، إذ كان مما لاشك فيه، مخرباً، حسب رأي المحكمة.

كنت تبدأ رسائلك بالتحيات المعتادة ثم تكتب شيئاً كهذا: «ربما لم تعودي تتذكرينني. لكنني أنا عسكر الذي، منذ سنوات، كان مشدوداً إلى جسدك، بل يكاد يكون ملتحماً به. أنا آسف كنت قذراً ولم أكتب لك... ولكن!» وإلخ إلخ. وفي الرسائل تحدثت بحب عن هلال وصلاتو، تصفهما بطيبي القلب لأنهما ليس لديهما «مهرجان الفوضى» كما عند مسكن قورح، حيث ثمة الكثير من الناس، أقرباء وغيرهم، يأتون، ويتصايحون ويتسلون حتى أن الواحد يشعر معهم أنه جزء من جماعة. واستمررت في واحدة من تلك الرسائل التي ليس فيها طابع بريدي والتي لم تكتمل. أما هنا فيبدو أن الميزة المهمة هي الاكتفاء الذاتي - وهذا هو حال الخال هلال وصلاتو. وأنا الطفل الذي كانا في انتظاره كل تلك السنوات. أنا مبعوث الرب إليهما، رغم أنني متأكد أن هذا ليس هو التعبير المناسب، فهما كما بدا لي أول الأمر غير متدينين مطلقاً. إنهما يغمرانني بالحب وهذا ما يعني لي الكثير.

تفاخرت بممتلكاتك المادية. مثال ذلك، الساعة «تلك التي تدور مع دمي، تلك التي تتوقف إذا أضعها على جسدي» والراديو المفتوح نهاراً وليلاً، يسلينا بآخر الأغاني «ولا أنسى الغرفة التي هي ملكا لي بأكملها المزدانة جدرانها بالمرايا والخرائط، تلك التي تعكس محياي، لتريني فيما إذا كانت قد نمت أو لم تنمو لي لحية بعد الكثير من البدايات الكارثية - بضمنها، هل تتذكرين؟ قولي إن يكن شعر سن اليأس لدى كارين في ذقنها كان أكثر رجولية من شعري فقد حان الوقت كي أفعل شيئا بشأنه؛ أما الأخرى، وهي الخرائط، التي تبين المسافات بمقياس الكيلومتر - المسافة التي بيننا - التي دعنا نقول أننا متباعدين ملايين الدقائق التي تفصل بين تشريحك وتشريحي». ومرة أخرى تفاخرت بالتعليم الذي كسبته وتحدثت بثناء عن «عثمان» الذي أوكل إليه هلال وصلاتو ليكون معلمك.

Twitter: @ketab_n

وتباهيت بسؤال مصرا إن كانت تعرف كم تبعد الشمس عن الأرض.

كنت سعيداً. اشتقت إلى مصرا. ذلك شيء مؤكد. أو بكلمات أخرى. اشتقت إلى جسدها الدافئ وعطر عرقها - الذي كان طبيعياً. كانت صلاتو امرأة متمدنة، تفوح منها العطور الزكية ورائحة ثيابها تشم فيها رائحة النفتالين، أظفارها مصبوغة وحذاؤها يلمع. كان هلال هو الذي يذكرك بمصرا - فرائحة جسده طبيعية. وكان أكثر سمنة ويحب الاتصال الجسدي، تماماً مثل مصرا.

ثمة حقيقة أساسية لم تذكرها أبداً، حتى في تلك الرسائل التي لا تحمل طابعاً بريدياً والتي لم تكملها - هي أن هلالاً يقوم بطبخ كل الوجبات، وأن صلاتو هي التي تسوق سيارتهما الوحيدة وأن كل شيء قد سجل باسمها، الحسابات المصرفية وملكية الأرض، في الواقع كل شيء. إنه يعرف السياقة، نعم، ولكن فقط في الحالات الضرورية. وهي طباخة سيئة. ولم تترجم أنت إحدى عبارات الخال هلال المفضلة إلى الصومالية: «الجنس أولاً وأخيراً».

كانا رائعين: هادئين عندما تختلق عاصفة؛ مريحين عندما تكون منزعجاً؛ يتركان لك المكان عندما تكون بحاجة ماسة إليه؛ يثقان بك وبواحدهما الآخر وكذلك بحاجتك لكل منهما، يعطيان ويسامحان ويحبان طوال الوقت. كنت تملك حرية نفسك وحياتك ملك لك ولك أن تفعل بها ما شئت. وهما؟ هما طوع أمرك، مستعدان لمساعدتك إن تبحث عن ذلك؛ كانا هناك ليسمحا لك بالذهاب إن يكن هذا ما ترغب فيه. مثال ذلك، حين كنت في «هارجيسا»، حيث كنت أنت وصلاتو تستجمان - حصلت على رحلة لحصولك على درجات عالية في امتحان المرحلة الثامنة - عندما بعث لك هلال رسالة احتفظت بها حتى اليوم. وها هو متن الرسالة:

«عزيزي عسكر،

لقد صعقت حقاً من تصرفك، صعقت وانزعجت مما تشير إليه صلاتو

Twitter: @ketab_n

عن أشد حالات الكآبة لديك. وما الذي تعنيه بقولك أنك لست «رجلاً» بعد، لذلك تجدني في مقاديشو للراحة، آكل جبلاً من السباغيتي بينما نظرائي في أوغادين يموتون جوعاً أو ينزفون الدم من أجل تحريرها من أيدي الأثيوبيين؟» هل أفهم أيضاً أنك ترغب في طرح «هذا السؤال عن ولادتي؟»

فيما يخص النقطة الأولى، الرجل، هل أنت «رجل»؟ في يوم ما سأحب أن تعرّف لي من هو «الرجل». هل يمكن لأحد أن يصف نفسه على أنه رجل عندما لا يستطيع أن يقوم بمشاركة فعالة في نضال شعبه؛ عندما لا يكون متعلماً وواعياً بعالم السياسة كما هو العدو؛ عندما لا يكون قد تجاوز الخامسة عشرة من عمره؛ عندما كل الدليل على كونه رجل هو طوله وبضع شعرات تنبت في ذقنه؟ من ستقتل، عدوك أم نفسك؟ وما الخطأ في أن تأكل جيداً ولا تكون لاجئاً، وهو ما كان قد تكون حالك لو لم تكن ابن أختي، آرلا، ولو لم أكن أنا وصلاتو في حال ميسورة. أرجوك لا تتحدث بسوء عن جماعة مفوضية الأمم المتحدة للاجئين، فيما لو كانوا في جنيف أو مقاديشو أو هنا، في هذه القارة أو أية قارة أخرى: إنهم ليسوا إحصائيين(تنتابهم الهواجس) يقلقون من أرقام مجردة وخرائط الجوع وسوء التغذية، بالطبع، عليهم أن يثبتوا عدد اللاجئين هناك وكم من أموال يمكنهم جمعها وكم عدد السعرات الحرارية التي يحتاجها الطفل الأفريقي. ما لم يعجبني هي نغمة الكلام، أكل «جبلاً من السباغيتي» وغير ذلك. بالفعل! لابد للإنسان أن يكون شاكراً للنعم الصغيرة في الحياة يا عسكر. لابد للإنسان أن يكون ممتناً للأرواح المتفانية، وهي تخدم في تلك المعسكرات في ظل ظروف شاقة (بالنسبة لهم)، بينما ينتظرون الواهبين ليتبرعوا بالطعام والأدوية - يعملون ما بوسعهم (وهذا أمر في غاية الصعوبة) كي يتأكدوا أن تتلاعب المافيا المحلية بهم.

أعترف أنني أتألم حين أتذكر ما تحدثنا فيه أنا وأنت وصلاتو حول ذلك وحللنا جذور إحساسك بـ«الذنب». تقترح الرسالة البرقية لصلاتو أنه

Twitter: @ketab_n

سيئ مثل الأيام التي تبعت عطلة نهاية الأسبوع المأساوية وخلال الليل وبضربة مفاجئة، أنتزعت أوغادين من أيدي الصوماليين، و «أعيدت» إلى مخالب الأثيوبيين. الآن ما هذا الذي أسمعه، أنك أُخرجت من جثة أمك؟ هل ثمة من يدعم ذلك بدليل؟ لقد عاشت أمك وتمكنت من أن تكتب بعض الأشياء في دفتر يومياتها. وهذا يعني أنها ماتت بعد أن ولدت، خصوصاً لو أخذنا بالحسبان شهادة مصرا التي تتوافق مع رأيي.

وأن تفكر، وأنت في عمرك هذا، حيث تكون في هارجيسا في رحلة استجمام، فأنت لا تزال ينتابك القلق من بعض الأشياء الغامضة حول ولادتك، وذلك يشعر صلاتو بالاضطراب وهو يقلقني. تخبرني صلاتو بأنك تريد العودة إلى كالافو لتحصل على جواب لهذا السؤال مرة وإلى الأبد. وهو ليس الأمر ذاته في الالتحاق بجبهة تحرير الصومال الغربي، كما افهم؟ وصلاتو لديها انطباع أن الاثنين واحد بالنسبة لك ومتشابه. الآن ما الذي تريد فعله؟ بالطبع، لك أن تفعل الاثنين وليس لدينا اعتراض على قرارك في العودة إلى أوغادين عضواً متدرباً في الجبهة «التي نساندها كلنا» وحين تكون هناك، قم ببحثك عن بدايتك. قل لنا ما تريد ولسوف نطرح عليك فكرتنا.

سامحني لأنني لم أفهم أبدا، ولا صلاتو، إذا كان هنالك الكثير من الرجال والنساء في أوغادين من المؤهلين جسديا للرماية وقتل «أمهري» في معركة، وإن ارتأت الحاجة، مهاجمة أسد في عرينه، فان شاباً صغيراً مثلك ليس عليه الذهاب. لابد أن يذهب «شخص ما» ولكن من هو هذا الشخص؟ لو ان كل أب وأم وقريب قال، «كلا»، ليس ولدي، فلينظم للجبهة أحد آخر عند ذاك هل تعرف إلى أين سنصل؟ الفكرة التي لدينا أنا وصلاتو أنك مادمت ستثبت أنك باحث ممتاز فعلا، وأنك كاتب للمقالات وأنك من يمكنه نقل فكرة متنورة عن القضية، فلماذا لا تأكل جبالاً من السباغيتي بينما يموت الآخرون؟ ولماذا لا تكمل تعليمك وأنت تفعل ذلك؟

إن يكن من الضروري أن تصر بأنك ترغب في أن تدخل أوغادين ثانية

Twitter: @ketab_n

دون أن تمر بمقاديشو، عند ذاك أخشى أنني أنا وصلاتو لا يمكننا فعل شيء. وكل ما نقترحه أننا نعرض عليك المساعدة. لكنني أتوسل إليك أن لا تغادر دون أن تخبر صلاتو على الأقل. لو أنك تعلمني بالرسالة التالية أنك مغادر لا محالة، فلسوف أسعى للحصول على مزيد من المال لتحويله إلى هارجيسا بوساطة المصرف.

لو أنك تصدق بأنك حدقت بمصرا حين عثرت عليك وعلى آرلا، شقيقتي، فليس عمرك أقل من يوم. لأن النظر، يا عزيزي عسكر، باب لا ينفتح مباشرة في الوليد الجديد. أقصد، أنه يحتاج إلى وقت ليس بالقصير حتى يطور الوليد الجديد براعته في النظر، فما بالك بأن «يحدق». ليكن ما يكون. ولكن حقيقة أنه يغلف بدايتك بأسرار فائقة مثلما الأطفال في التراث الملحمي لأفريقيا وأوربا وآسيا - وهذه الحقيقة تشعرني بالمتعة حقاً. هل بزغت مثل نبات من الأرض؟ هل ولدت في تسعة أشهر أو ثلاثة أو سبعة؟

بكلمات أخرى، هل تقاسمت مزاجك مع شبيهيك سانجاتا أو ميوندو، الشخصيتان المعروفتان في ملحمة التراث الأفريقي؟ مثلاً يقال أن سانجاتا كان بالغاً عندما كان في الثالثة. ميوندو، يقال عنه في التراث أنه اختار أن يولد ليس عبر الرحم بل عبر الإصبع الوسطى. ثمة أطفال ملاحم تكونوا في يوم واحد ثم ولدوا في اليوم نفسه، وآخرون تطلبت ولادتهم مائة وخمسين عاماً حتى يولدوا بأية حال. لماذا انتظر هذا «الطفل الملحمي» لمائة وخمسين عاماً؟ لأنه قام بطلب غير عادي (أكاد أقول عقلانياً) بأن يأتي من الفتحة (أم هل كانت مدخله) التي تستخدمها أمه للبول. وثمة الميزة الأخرى بين أطفال الملاحم أنهم كلهم يحملون أسلحة. وأنت يا عسكر جاء تسليحك بالاسم، أليس كذلك؟

مرة أخرى ليس هذا شيئاً فريداً للناس في التراث الملحمي. أنتجت أديان العالم الأطفال «المعجزة». هل تتخيل آدم، الرجل الناضج، يقف عارياً تغطي أوراق البراءة عورته، عندما سحبه الرب من ضلعه ويقول له، «عفواً، ولكن الأمر لا يستغرق أكثر من لحظة، أؤكد لك، ولن تؤذيك

Twitter: @ketab_n

حتى. أنظر ها هي: امرأة، حواء، خلقت من واحد من أضلاعك»؟ أنا متيقن أنك سمعت بأبطال ولدوا من الجبال والأنهار أو الأسماك أو من حيوانات أخرى. يبدو لي أن هذه الأساطير تقوم بالأمر ذاته مرة بعد أخرى: وهو أن «الشخص» الذي يولد هكذا يحمل في داخله أو في داخلها ميزة خاصة بالآلهة. حسن. أين سنذهب بعد هذا العالم؟

الجميع في شك.

هل أنت طفل «ملحمي» من الأزمنة الحديثة أم لا؟ هل تعرف كيف كان الطقس في اللحظة التي ولدت فيها؟ أجل، تعرف. تخبرنا أمك في خربشاتها أن السماء كانت ملبدة بالغيوم وأن عاصفة عاتية صدمت رأسها حينما وهنت من آلام المخاض فالتمعت السماء بتلك الرعود والأمطار. ولكنك لم تمض أكثر من شهر لتتكون وتولد، أو لم تمض سبعمائة سنة. ولم يكن ثمة كسوف أو خسوف للشمس والقمر. لقد قرأت يوميات أمك للبحث عن إشارات. يظهر لي أنك أكملت تسعة أشهرك.

أرجوك فكر جيداً. وأرجوك أن لا تندفع. سنفتقدك كثيراً لو ذهبت - لكننا سنتفهم. لم يبق غير أننا لن نقف في طريقك لو رغبت في العودة إلى بداياتك.

مع الكثير الكثير من الحب.

المخلص لك دوماً

خالك هلال.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني

(١)

لم تقل لي مصرا أبداً أنني موجود بالنسبة لها في نظرتي فحسب. لكن الذي قالته إنها من الممكن أن ترى في تحديقي بها لهفة ذكاء - هذا هو كل ما في الأمر. قالت من المرجح إنني قد أواجه الموت وجهاً لوجه وأنني قد أبحلق في ملاك الموت. ذلك لأن في تحديقي بقائي وأن في بقائي، ربما «بقاء العالم» - عالمي وعالمها. أتذكر كم كانت تقربني منها، وكيف كانت تهمس في أذني، حزينة ونائحة، بكلمات تحبيب من غير المحتمل أبداً أن أسمعها ثانية. إحدى تلك الكلمات التي أذكرها، كانت، «يا أعز الناس يا عالمي الصغير»! ثم تتحول للكلام بالأمهرية، لغتها الأم، ثم تمطرني بالقبلات. كانت تقول الكثير من الكلمات المحببة التي لم أكن أفهمها. ثم كانت تنهيها بواحدة من الكلمات التي تقولها غالباً حين تود مداعبتي أو تحميمي، تلك التي، لو ترجمت، ستعني «يا رجلي الصغير»!

ولأنني طفل يسأل البالغين بفضول، سألت مصرا فيما إذا كان بمقدور امرأة ميتة مثل أمي، أن تلد كائناً حياً مثلي. ردت علي مصرا «لقد ولدت قبل ذلك عند المساء. كأنك كنت تعيش لحظة حياة مع نجم آفل. لقد رميتما في الظلام كلاكما، على الرغم من أن النجمة قد انطفأت بينما كنت مُلقىً في الظلام. كلا. لم تقتل أمك». استنتجت ذلك وعادت لتقربني منها. «ثم أنك قد رضعت من ثدي أمك وهذا، بالنسبة لي، هو السبب

Twitter: @ketab_n

الذي جعلك لم تتقبل حليب نساء أخريات، مثل المربيات اللائي عرضن المساعدة. كيف كان لثدي أمك أن يغذيك لو لم تكن حية وقد ولدتك - قل لي كيف؟»

ورغم ذاك تناهى إلى سمعي، في أحد الأيام، أنها كانت تقول لعوضان إنها عندما جاءت إلي وتواجهت بنظرتي بدا لها كأنني قد صنعت نفسي، كأنني كنت الخالق لنفسي. «كان عليك أن ترى كم كان واعياً لنفسه. ما كنت لتظن أن ذلك الشيء القذر سيكون متفاخراً بنفسه وهو يلمس جسده معجباً به بتلك الطريقة. كأنه نحات يداه تداعبان صورته الشخصية، فنان عيناه تلمعان بالفخر بنفسه. شيء صغير قذر، شيء صغير واع لنفسه، لكنه ذاك الذي ليس له عالم غير الذي في رأسه الصغير وقلت لنفسي، نعم، وقلت لنفسي...!»

أشعر كأن ذلك كان بالأمس، اليوم الذي ولدت فيه؛ أشعر كأنني كنت هناك، كأنني كنت قابلة نفسي. تتذكر مصرا كيف كنت، وماذا فعلت، بالامتزاج مع ما كانت هي تبدو عليه، وماذا كانت تفعل - هذه الأشياء حفظتني مثل رحم وأنا أحاول عبثاً أن أفك نفسي. من الصعب القبول أو الرفض عندما تقال لك أشياء عن نفسك حين كنت طفلاً. ليس بمقدورك أن تدحضها، وكذلك ليس بمقدورك أن تقتنع بسهولة. فضلاً عن ذلك لا يقبل اثنان بكيفية ما كنت عليه أو ماذا فعلت. هل هذا يعني أن كل إنسان يعبر عن نفسه أو تعبر عن نفسها على نحو منفرد؟ أم أن كل واحد متفرد ولا شيء يمكن أن يعبر عنه بكل دقة؟

انه لشيء عبث، ان كنت تريد معرفة رأيي، عبث لأنني لا أعرف ميلاداً مثل ميلادي. ساعة ولادتي، قراءة الأبراج، مكان الولادة، موقع النجوم، موت أمي بعد أن أنجبتني، موت أبي قبل يوم من ولادتي - هل تشترك كل هذه الأشياء قليلاً، باتجاه تحول ولادتي إلى حدث فريد؟ ودعني لا أنسى مصرا - كيف لي أن أنساها؟ مصرا التي الصقتني فعلاً إلى الحنان المتدفق بين ثدييها (كانت امرأة هائلة وأنا شيء صغير) لدرجة أنني

Twitter: @ketab_n

أصبحت ثديها الثالث؛ مصرا التي بسبب إصابتي بضيق التنفس ضمتني باللفافة التي تضم بها صدرها - اللفافة المطرزة كصدرية الثديين؛ مصرا التي كانت تظللني منذ المساء وحتى طلوع النهار كما تظلل شجرة ثمرة ناضجة والتي كانت تكور ظهرها وتبعد اللفافة التي كانت تغطينا كلينا، فأجد نفسي في مكان ما بين ساقيها المفتوحتين هذه المرة، كأنني الساق الثالثة.

أخبرتني مصرا مرة بعد أخرى بتفاصيل اليوم والساعة التي عثرت فيها عليّ. وأعرف ما الذي كانت ترتديه في ذلك اليوم ومع من كانت. دخلت الغرفة التي كنت فيها، كان مظهرها أنيقاً بينما أنا كنت في حالة مزرية وأكاد أموت. وأصبحت، حالما رأتني، مركز اهتمامها. فالتقطتني - كانت يداها قد مثلت لي الحياة. منذ اللحظة التي رفعتني فيها وقربتني منها (ولهذا توسخ الفستان الذي كانت ترتديه)، صرت كائناً حياً وصرت موجوداً. كنت وسخاً، نعم؛ لم يكن لي اسم، نعم، لكنني وُجدت في اللحظة التي لمستني فيها. هل حدقت فيها؟ لا أدري. على أية حال، ربما كانت نظرتي تشبه نظرة أعمى، ذاك الذي لا ترى عيناه شيئاً سوى ما في داخلهما. هل بمقدوري القول أنها جلبتني للوجود؟

لم يسمع أحد بوجودي حتى اليوم التالي. لأنها اختارت أن تحتفظ بي على أنني لقيتها السرية. رفعتني قريباً منها، بعد أن حممتني وجعلتني نظيفاً؛ رفعتني إليها، دافئاً كسر لا يود المرء البوح به. بقيت بلا اسم طوال اليوم دون أن يعبأ بي أحد. ثم وثقت بعوضان. جاء وهمس بالصلاة في أذني وقام بتسبيحاته الهامسة لله. في ذلك اليوم تحديداً كنت قد «أُطلقت» بين يدي العالم، إذ هبت عاصفة واستيقظت أشباح الموتى. منحت أمي اسماً ثم دفنت، أيضاً؛ وأُقيمت الصلاة على والدي وسميتُ «عسكر». ربما حينذاك صرت أعني شيئاً آخر لمصرا. أم هل هذا كلام عبث يقال؟ حتى يوم أُرسلت إلى المدرسة - أو بالأحرى، حتى قابلت عالماً أكبر فيه عدد كبير من الأطفال - كنت أُنادي مصرا «ماما».

Twitter: @ketab_n

الذي أبقى الحياة لأمي الحقيقية هي «الذاكرة»، ولست أنا. كان الناس، عموماً، أشد عطفاً وكرماً لي، لأن أبوي قد توفيا وكنت يتيماً. يتفوه الناس بكلمات رقيقة بخصوص والديّ، وهم يعرضون نصائحهم، مجاناً بالطبع، لمصرا، ويعلمونها أفضل الطرق للعناية بي وأفضل طريقة لحملي، لذلك كنت سأكون نصباً تذكارياً للوفاء لهم. كان البعض ينظرون بعدم ارتياح حين أنادي مصرا «ماما» ويغتنمون أول فرصة لتصحيح ذلك. أما الآخرون فلا يهتمون لذلك ويقولون أنني مع الوقت سأعرف أنها لم تكن أمي. وكلما كبرت عرفت الكثير والكثير من أولئك الناس، وقررت فعلاً أن أكف عن مناداة مصرا بأي شيء إلا عندما نكون وحدنا في غرفتنا، كي أستطيع أنا، وهي كذلك، بمناداة بعضنا كما نحب. خلال هذه الفترة سألت مصرا إن كانت تتذكر أي شيء عن طفولتها. وأجابت أن الشيء الوحيد الذي تتمكن من استرجاعه في ذاكرتها أنها لم يكن يسمح لها بأي شيء تحبه فتاقت إلى أن تكبر لتعتمد على نفسها. سألتها، هل «تعنين أنك عندما كنت طفلة لم تكوني حرة؟»

قالت، «أفضل وصف للطفولة هي الحالة التي تكون فيها شخصاً آخر عندما تكون مع البالغين، وتكون أنت ذاتك عندما تنفرد بنفسك أو تكون مع الأطفال الآخرين؛ انه لمن الصعب أن تعتاد على أي من هذين. أقصد أنه من الصعب الاعتياد على فكرة أنك رغم حصولك على ثياب أشتُريت لك خصيصاً، فان الاختيار هو متى ولماذا ترتديها أو فيما إذا كنت ستبقى بدونها فهذا ليس من حقك».

تذكرت أنني كنت حينها في السادسة. وأتذكر أنني كنت أفكر بـ«العري». في تلك الأيام، كلما رأيت شخصاً عارياً، كنت أفكر بشيئين - الأسرّة والحمامات. في أحد الأيام رأيت مصرا وعوضان عاريين. كانا قريبين من السرير ولكنهما ليسا فيه، ولم يكونا يستحمان. فتساءلت إن كان الاختيار بالبقاء دون ثياب هو اختيار البالغين أيضا. كان يسمح للطفل، وهذا شيء متيقن منه، كان يسمح له بالتجوال في المنزل أو حتى في

Twitter: @ketab_n

الشارع، عارياً تماماً. رغم ذاك فإن «منْ» يكون الطفل أمر شديد الأهمية. لو كنت طفلاً لواحد من أولئك الناس الذين لا يتمكنون من اقتناء ثياب لهم كيف يمكن أن يقتنوا ثياباً لأطفالهم؟ لذلك، لابد للمرء أن يتفهم ويتعاطف، أليس كذلك؟ من هنا، ومن خلال الكثير من الأفكار التي في ذهني المترابطة وغير المترابطة صغت سؤالاً في رأسي، سؤال بطريقة ملتفة، هل ثمة شيء له علاقة بـ «العري»، فيما يتعلق الأمر بي، قد ارتبط مباشرة برؤيتي لعوضان، رجل الدين، ومصرا، وهما عاريين، رغم أنهما حينذاك لم يكونا في السرير بل قريباً منه. سألت عن علاقتهما تلك.

بالنسبة لمصرا، السؤال هو، «ما علاقة هذا الشخص بي؟» - لا تعني شيئاً أكثر أو أقل من «من هو هذا الشخص؟» - والتي كانت تعني بدورها، «هل هو عم أو عمة أو إبن عم؟» بالنسبة لها، كان نسيج المجتمع الصومالي أساساً متهماً بسفاح القربى وأنت تنفذ في عقل الصومالي لو عرفت إلى من يقرب أو تقرب من خلال الدم أو الزواج، لم تكن هي ولا عوضان صوماليين بالولادة وأظن أنها كانت تعرف أنني كنت واعياً لذلك ولهذا لابد أنها شعرت أن قصتها المحبوكة بالصور وتلفيقاتها لن تقنعني بالحقيقة المفترضة - التي هي الزخرفة الفائقة للحياة. إبتسمت بعذوبة صامتة وأشاحت بنظرها إلى البعيد وكأنها تبحث عن إجابة. ربما كانت تختلق شجرة نسب توفر جذورها وفروعها أصلاً للأجوبة الملائمة لسؤالي. لكنني شككت كثيراً أن تكون من نوع النساء التي تضيع نفسها في لانهائية البحث عن أصلها -لأنها كانت تعرف من تكون.

حين ألححت أجابت على سؤالي، وقالت ببساطة ووضوح، كأنها كانت تتحدث بالكلمات لأول مرة، «عوضان؟ إنه رجل».

للحظة أو اثنتين، بحثتُ لائذة بالظل البارد لأصل المصطلح التكويني «شجرة الإنسان» - وابتسمت بسعادة - كنت متيقناً أنها تحت تأثير انطباع مغلوط لأنها أجابتني بارتياح. ثم سألتها، «وماذا عن العم قورح؟ هل هو رجل أيضاً؟»

Twitter: @ketab_n

إنفضحت على نحو فريد، مثل شجرة يوكالبتوس منفردة صعقها البرق. جلست قانطة، دون كلام مبعدة نظرها عني، محرجة.

(٢)

لم أحب العم قورح، ولم يكن ذلك سراً. لم يكن عمري قد تجاوز الثلاثة أيام حين جعلت ذلك واضحاً إلى حد بعيد للجميع، حتى نفسي. تُحكى القصة كيف أنه رتب لزيارة رسمية لابن أخيه - الذي هو أنا - وكيف طلب أن يحمّموني بصابون معطر يعد لهذا الغرض، وكيف أنه قد أرسل قبله زوجته الصغرى لمساعدة مصرا في الترتيبات وتكون حاضرة عندما يأتي لزيارتي.

جاء مرتدياً أحسن ثيابه إزاراً حريرياً يرتديه لأول مرة، وسنماما زاهية الألوان تلائمه وقبعة بارافان. وكان مرتدياً أيضاً حذاءه الجلدي المميز وجواربه المفضلة. جاء من مسكنه متهللاً أنني سأحبه. أضاف، «لقد قررت أن أجعله يحبني». قال ذلك لشاهرويلو. وأشك إن كانت قد أخبرته كم يبدو مضحكاً، يزور ابن أخيه الذي لم يتجاوز عمره الثلاثة أيام، متهندماً كأنه جاء لزيارة ملك. ولكن ما فائدة كلامها مع نفسها لها أو لغيرها؟ وقفت جانباً داعية إياه يمر من أمامها، وضحكت مع نفسها وهو يخطو بخطوات طويلة. وبعد أن ذهب، أنا واثق أنه كان ثمة تجمع عفوي وقد علق كل واحد من هذا التجمع بأن الأمر مزر، البعض منهم ضحكوا حتى آلتمهم أضلاعهم. عموماً، يُقال أن شاهرويلو قد أفصحت أن الرجل ليس بثيابه و «أن الطفل يرث كراهية أمه وحبها». وهي تراهن بحياتها، مقابل أي أحد يراهن بأصغر عملة، أن الصغير لا يحب عمه.

كنت نائماً حين دخل. كان غاضباً من مصرا، متهماً إياها بعدم الطاعة، لائماً إياها لأنها لم تهيئني للمناسبة. وقام بجلبة لا داعي لها ليجعلني أستيقظ. لكنني لم أستيقظ. حتى خرجت مصرا من الغرفة لتبكي

Twitter: @ketab_n

في الخارج. سمعت بكاءها فاستيقظت. نظرت إلى هذه الجهة وتلك. لم تكن مصرا موجودة. ومن هذا - رجل يرتدي ثياباً خرقاء وعلى رأسه قبعة ويبدو قبيحاً ونحيفاً وطويلاً؟ الأدهى من ذلك أنني كنت أضطجع على ظهري، عاجزاً، مثل خنفساء مستلقية على ظهرها، ويداي مهما رفعتهما، تعودان إليّ خاليتين. خاليتان من مصرا ومليئتان بالهواء. ثم سمعت صوت عمي القبيح، الناعم والحاد، وهو يخترقني ليشطرني نصفين. فصرخت صرخة مذعورة، وشنيعة جعلته يتجمد في مكانه، خائفاً من فكرة أنني قد أوذي نفسي. حين اقترب مني، صرخت بقوة أشد وبحقد ولم يستطع أحد إسكاتي حتى عادت مصرا. وما إن عادت إلى الغرفة حتى تشعر أن صرختي لم تعد مدوية كما كانت. كل ما كان عليها أن تفعله هو أن تضع أي إصبع لها على أي جزء من جسدي فأعود إلى السكينة. لكن جسدي بقي متوتراً وثمة هياج في الجو حتى خرج العم فورح من الغرفة. عندها رحت أسترخي بعد أن ابتعد عني صوته القبيح.

مسألة أنني انفجرت بالبكاء حالما دخل عمي الغرفة التي كنت فيها - أصبحت حكاية معروفة من الحكايات التي تُحكى في مسكن عمي. من الواضح أنها جعلته منزعجاً. ولكن ليس ثمة شيء بيده ليفعله لي أو لمن حولي. كما أن موقعه المحترم بين الناس يحتم عليه معاملتي بعطف واضح، ومن بين ذلك أنه قد وفّر لي شخصاً ما ليحل محل أمي. كانت مصرا حتى ذلك الحين ليست عضواً أساسياً في مسكنه. ويبدو لي أنها أصبحت كذلك عندما اخترتها - اخترتها مفضلاً إياها على كل النساء اللائي حاولن معي مرة بعد أخرى. فقد وقعت بين الأذرع المفتوحة لدزينة من النساء أو ربما أكثر. كنت أصرخ بقوة حالما تغيب مصرا. إلى أن خضع جميع الأقارب لاختياري. سوى عمي الذي لم يرضخ إلا بعد مرور سنة.

وكي يقلل عمي من التوتر قرر أن يبني لنا كوخاً طينياً ذا سياج له مدخله المنعزل لاستخدامنا الخاص. وبهذه الطريقة لن يواجهنا حين ندخل

Twitter: @ketab_n

أو نخرج من مسكنه، الذي هو سيده دون منازع. كما أننا صرنا نعرف إن كان موجوداً أو غير موجود. حينما يكون موجوداً، لم نكن نسمع غير صوته المروع، حين يأمر أو يصرخ على أحد ما. وغالباً ما كنا نسمع أيضاً صرخة تطلب العون لزوجة أو طفل للتخلص من الضرب. وحينما يكون غائباً يكتسي المسكن والمقيمين فيه بجو احتفالي، وتتبادل النساء والأطفال الثرثرة والنكات البذيئة عنه أو عن الرجال الذين من أمثاله، كما أنهم يقومون بزيارة الجيران للتسلية. لكننا كنا مبعدين عن أفراح وأحزان ذلك المسكن، لنا حياتنا الخاصة التي نحياها وحدنا في سكننا الخاص أنا ومصرا. عشنا الحياة التي نراها مناسبة، حتى هبوط المساء على الأقل. فعند ذاك يأتي عمي.

جاء بعد هبوط الليل وراح يراود مصرا. كان ذلك أولاً من أجل أن يعبر بلباقة (هذا في الظاهر) ليبدو عطوفاً عليها وعليّ، وثانياً ليبدو أنه يعطي شيئاً دون مقابل. لم يكن يمزج الأمور - كان بالإمكان أن يستأجر امرأة أخرى بدلاً عنها ويستغني عن خدماتها ما لم تعطه نفسها. وعرفتُ فيما بعد أنها فعلت ذلك. قالت أنها فعلت ذلك كي يسمح لها بالبقاء معي. عانت مصرا مذلة النوم معه كي تبقى معي. لا أعرف ما الذي كنت سأفعله لو علمت. تبدو الأشياء مختلفة من هذا العلو (فأنا الآن بالغ ورجل)، من هذه المسافة؛ ثم، يزمع الواحد أن يغرق نفسه حتى نهاية أيامه، يتحدث حتى الفجر، عن خيارات ممكنة وتسويات لوضع معقد كهذا. ولكن هل ثمة من سبل أو خيارات أخرى، تسويات أخرى ممكنة كان عليها أن تتوصل إليها مع العم قورح؟

ظننت أن عوضان من الممكن أن يغدو اختياراً صحياً -لو أنني أحببته. لكنني لم أفعل. وحين أعيد النظر الآن، أعتقد أن الأسباب التي جعلتني لا أحب عوضان كانت تختلف - تختلف بمعنى أنه هو ومصرا كان لهما عالمهما الخاص، لغة خاصة بهما، لذلك حين ينغمران فيه، أو يختاران الإلتجاء إلى عالم سري له معانيه الدقيقة وتعابيره وإشاراته، أشعر أنني مبعد

Twitter: @ketab_n

كلياً. كنت أخشى أنهما إما يأخذانني من العالم الذي يتحدث بالصومالية أو يأخذان مني مصرا، التي هي بالنسبة لي نهاية العالم وكون عواطفي.

ربما من الصعب الإقرار بذلك، لكنني أفترض أنني كنت طفلاً عرضة للانتقاد من أي أحد آخر. لقبني عوضان بـ«عندليب مصرا»، ولم أفهم ما كان يقصده إلا بعد سنوات. لكنني حتى وقت قريب كنت أفهم منه أنه كان يعني أنني كنت أغني بأسماء مصرا المحببة - لكنه لم يكن يقصد ذلك أبدا. كان يقصد أن مصرا وحدها كان يسمح لها بالدخول في فضائي الخاص، دنياي الخاصة التي كسبتها لنفسي.

صحيح أن مصرا وحدها لها مدخل خاص للمملكة الخاصة التي كنت مِلكها بلا منازع. ولأنني اتخذت موقفاً مستريباً تماماً من العم قورح وزوجته وأطفاله وأن ثمة مسافة تفصلنا فيبدو أن ليس ثمة غير مصرا وكارين هما من حافظتا على رفقتهما المتمدنة. ولم احب اللعب مع أطفال الجيران عندما كبرت قليلاً، لأنهم بقوا على حالهم صغاراً يتشاجرون على امتلاك اللعب والدمى والكرات. كنت أفتخر بثقتي بنفسي وعدم كآبتي ما دمت أعرف أن إما مصرا أو كارين هما على مرمى البصر مني أو على مدى سمعي. في الليل تشغلني الأحلام؛ وخلال النهار إن كانت مصرا منهمكة في واحد من مشاغل الحياة التي يحتاج منها الانهماك فيه، كنت أبحث عن الرفقة في خيالي. وفقط عندما تكون مصرا سيئة المزاج (وهذا لا يكون إلا حين تأتيها الدورة الشهرية)، أو عندما تضربني حين تكون في مزاج سيّيء (حين تأتيها الدورة) - عند ذاك فحسب كنت أعرف أني مجرد طفل ويتيم. ولم تكن مصرا تطيق نظرة اليتيم. فتبعدني عنها إلى سكن كارين - كارين التي كانت لي مثل الجدة، رقيقة كالجدة وكريمة مثلها.

(٣)

أنا متيقن أن من الملائم مخاطبة نفسي بالسؤال: هل كان ثمة أي وقت

Twitter: @ketab_n

أتذكر فيه أنني أحببت العم قورح؟ هل ثمة فترة أتذكر فيها أن لي لمسة رقيقة مع ذلك الرجل الذي تكلف بكل مستلزماتي، الرجل الذي هو شقيق أبي؟

في صغري كنت مولعاً بأحذية البالغين، كما هم أغلب الصغار، وأتذكر الفكرة الرائعة عن امتلاك حذاء مبهرج وملون كلما مر في خاطري العم قورح. كان من المعتاد أن يمنحني السعادة الهائلة حين ألمسه ساعة أزحف قريباً منه. وكنت أشعر بالحزن حين لا يسمحون لي بأن أضعه في فمي أو ألحسه. ولكنني حين تجاوزت مرحلة الولع بحذاء البالغين، توقفت عن الذهاب إليه أو التودد له.

أعتقد أن نماذج أحذيته تستند إلى إحساسي الجمالي، إذ أن تصاميمها ذكرتني بالصور الخطية التي رأيتها مرسومة على أبواب قصور أخذتني إليها أحلامي لكنني لم أدخلها أبدا. على أية حال، فالليالي العربية كانت مليئة بمثل هذه البوابات التي لها مثل تلك الموضوعات والتصاميم الملونة. والحقيقة أنني أعجبت بها حتى عندما كبرت قليلاً وأحببت ألوانها البراقة. رغم أنه حين سألني عن لوني المفضل، أدهشته بالقول أنني فضلت اللون الترابي على المشع - مدركاً تماماً لما يعنيه ذلك. وهذا ما جعله يقرر أن لا يشتري لي زوج حذاء ذا ألوان براقة وقطعة قماش يخيطونها ثوباً هدية للعيد كما كان ينوي - بل بدلاً من ذلك، أعطاني خرائط. ونوه لي أن أفتحها عند الصباح. جاء مكتسياً السواد كأنه في مأتم. تساءلت مصرا إن كان أحد ما قد مات. كان مزاجه متعكراً. قال «سيموت أحد ما، أحد ما».

بدا الحزن على مصرا في ذلك اليوم والذي تلاه. ليتها انتبهت إلى كلماتي بأن أحداً ما يموت دائماً، وأن أحداً ما يولد عندما يموت الآخر وأننا نتأثر بموت وولادة من نعرف، أو كنا على قرابة منه، أو نحبه.

قالت: «ما الذي تتحدث عنه بحق السماء؟»

قلت: «عن الموت».

Twitter: @ketab_n

(٤)

كان الحديث عن موضوع الموت شيئاً من المحرم التحدث فيه في منزلنا ولا يسمح لأحد للحديث فيه أو ذكر اسم ملاك الموت في حضوري. كان علينا التحدث بشؤون الحياة، والدم وحيوية الحياة التي هي جوهر وجودنا. حتى الماضي عندما كان يرتدي حلة الموت أو التأبين، كان موضوعاً محرماً، إذ كان يخشى أن هذا الماضي قد يقود بالضرورة إلى اسمي والديّ المتوفين لدرجة أنني كنت أكاد لا أعرف شيئاً عن أمي وأبي.

كان ثمة أوبئة وجفاف، وكانت الأرض تمتد مقفرة، ميتة بلا أشجار، لاشيء ينمو فيها، مما تسبب في تفسخ الأشياء وصدأ المعادن - ولم يكن يسمح لنا بالحديث عن الموت. همسات. مؤامرات. بهبوط الليل سراً وزحف العم قورح إلى سريرنا ليضاجع مصرا - تكون دورة الحياة والموت قد انتهت من حيث بدأت - ويكون جريان الحيض والموت قد تأكد - وعلينا أن لا نتحدث بالموت. ولا حتى عندما أعانوا مصرا على الإجهاض، ولا حتى عندما جُلبت رزنامة إلى المسكن رُسمت عليها دوائر خضراء للإشارة إلى الأيام والليالي المطمئنة. البويضة تعيش لأقلِ من ست وثلاثين ساعة، أما الحيوان المنوي فيعيش لما يقارب أربعاً وعشرين ساعة. أجل يوم واحد لا غير، وفي أعلى معدل يومين في كل دائرة. وعلينا أن لا نتحدث عن الموت.

إلى أن جئت إلى مقاديشو خلال حرب ١٩٧٧ في القرن الأفريقي، عند ذاك صار التعقل حول الحديث عن الموت قد أهمل تماماً، وعند ذاك صار بإمكان «الموت» أن يحدث في لغتي بالطريقة التي يحدث في أفكار العانس التي تلبست به. أتذكر أنني كنت أقول للخال هلال، الذي ساعدني على الارتخاء والذي كنت أتحدث معه بارتياح، أن الموت كان يمثل لي ببساطة استعارة لـ «الغياب»؛ وكان الله هو الحضور. كان خالي قد أطال التحديق بي ولكن كان من الصعب عليّ تفسير ذلك. لقد صمت لبرهة،

Twitter: @ketab_n

ثم، تنهد، وهمهم بشيء عرفت منه أنه مقاطع من اسم مصرا، م.. ص.. را!

ثم كررت على خالي القصة عندما سألت مصرا لتوضح لي ما الذي يحدث حينما يزور الموت ضحاياه.

قالت: «يتوقف القلب عن الخفقان».

وتساءلت: «ولا يحدث شيء آخر؟»

فأوضحت: «هذا هو الموت. يتوقف القلب».

«وبقية الجسم؟»

«إنه يتصلب نتيجة ذلك».

«مثل... مثل ساق عوضان؟ يتخشب مثل ساق عوضان، أهذا ما يحدث؟ يفارق الحياة ولا ينثني... مثل ساق عوضان؟»

لم أر مصرا حانقة كما كانت مثل ذلك اليوم. سكتت لعدة ساعات. وفي غمرة تخيلاتي حدث شيء ممتع: تذكرت كم كانت الرجل الثالثة (الرجل الخشب ذاتها)سريعة النزول، وكم كانت واحدة أخرى بين ساقيه ترفع رأسها سريعاً، تهتز، ببطء وبانفعال؛ وكيف يغرق المكان بأكمله بملاطفات مصرا المتنهدة التي تناديه... أجل تناديه هو دون كل الناس... «يا رجلي، يا رجلي، يا رجلي!»

ثم تذكرت فجأة شيئاً ما - سؤال قصدت أن أطرحه على شخص ما، أي شخص بالغ، ولا يهمني من هو. وحدث أن مصرا كانت غاضبة، أجل، لكنني كنت أشعر أنها ستجيبني لو سألتها. وهكذا فعلت. قلت: «والروح؟»

من المؤكد أنها نسيت ما كنا نتحدث عنه قبل أن تصمت وهي في أوج الحنق والغضب. قالت وهي ضائعة في اندهاشات ملتوية من الحيرة «ماذا عن الروح؟ ماذا عنها؟».

قلت: «ماذا يحدث للروح حين يموت الإنسان؟»

Twitter: @ketab_n

سكتت لبعض الوقت - سكتت بطريقة مفضوحة، إن جاز لي أن أقول ذلك، واستغرقت وقتاً كافياً لتستجمع أفكارها مثل رداء متألق يلفها، يداها انشغلتا في ملامسة ومداعبة وجهها، مسكنة ومهدئة الصدمات والخشونة التي يسببها غضبها مني، وخطرت ببالي فكرة (فأفكاري بدأت كالعادة تسبقني): ما الذي تلتقطه القرود حين تنبش رؤوس بعضها البعض؟ القمل؟ أم شيئاً آخر؟ أو لا شيء مطلقاً؟ فكرت أن أنتظر اللحظة المناسبة لأسألها عن ذلك.

تنحنحت. فعلمت أنها مستعدة للكلام. فجلست أنتظر. في تلك الأثناء رأيتها تتمتم مع نفسها. وأدركت أنها إما كانت تستشهد بالقرآن أو بعوضان. قالت، «الروح هي ما يتحرك في داخل الإنسان، وهي تكف عن الحركة حين يموت».

وخاب ظني من إجابتها. فتعجبت وقلت لها: «لماذا؟»

فردت مستاءة: «وماذا تريد مني أن أقول لك؟»

خاب ظني لأن سؤالها كان موجزاً، وانتهى بجملة قبل أن أعي أنها بدأت. كنت أريد منها أن تتكلم عن الموت بأكثر ما تستطيعه من تفاصيل كي يفهم من هو مثلي بعمر السبع سنوات. لم أكن بحاجة إلى أن أُذكّرها أنني قد واجهت الموت من قبل في نظرة أمي وفي تصلب جسدها. لم أكن بحاجة إلى أن أذكرها، فيما يتعلق الأمر بها، أنني صنعت نفسي، أنني كنت خالق نفسي، وقد وهبت، من نفسي بالطبع، كل شيء رغب فيه بقية البشر في أحلامهم.

لذلك قلت بعناد: «إذن؟»

بدا عليها الدوار. هل كان ذلك ربما لأنها لم تستطع أن تتذكر أنها قالت لي بنفسها أنها حين واجهت نظرتي القوية أول مرة ظنت: «أنني قد صنعت نفسي وكنت خالقها!»؟ ربما كانت ثمة أسباب أخرى. لكنها حدّقت بي وكأن العالم قد تقلص إلى الأرض التي تحت جسدها الثقيل وكأن أية

Twitter: @ketab_n

ذاكرة لها ستختفي معها أيضاً وأنها ستموت. على أية حال، ظلت صامتة لوقت طويل جداً. على أن هذا الصمت كان مختلفاً عما سبقه من صمت إذ بدت أنها مذعورة، خائفة من نظرتي. لذلك سحبت ثوبها، قلقة.

قلت «يتخذ الموت أشكالاً عدة في رأسي. عموماً، كلها ترتدي البياض، تلتف برداء ملاك الموت الذي أسقط في جيوبه العديدة حصاد أرواح ذلك اليوم. أتساءل إن كانت روحا أبي وأمي قد انتهتا في الجيب ذاته، تماماً مثلما تدفن الزوجة المحبة في قبر زوجها نفسه أو كما يدفن طفل عند أمه لو كانوا جميعاً ماتوا معاً. أتساءل إن كانت لي روح أتحدث عنها لو مت عند ولادتي - أنا بدلا من أمي».

ولأنها مذهولة لم تستطع غير أن تحدق فيّ. واستمررت: «وكنت مستعداً لأن أولد ولكن يبدو أنها كانت مستعدة للموت. ربما كنت سأموت لو أنها لم تمت. وأشك أنني ما كنت لأحكي هذه القصة، أشك في حقيقة الأمر، إن كانت القصة ستكون ذاتها، ليس الموضوع ذاته. ما كان موتي سيكسبني أي نعي وأن حياتي ما كانت ستشغل وقت وطاقة أي أحد. كما ترين، ينهي الموت كل كلام. منذ ذلك الوقت، الموت هو الذي يحكم أو، إن أحببت ذلك، الله».

حدقت فيّ ثانية غير مصدقة. وسألتني بعد صمت غير طويل: «كم عمرك، عسكر؟»

أجبت: «أنا في السابعة».

قالت: «أنا بدوري قد أسأل نفسي إن يكن الشيطان أكبر من ذلك».

«عفواً؟»

قالت: «أوه لا عليك».

وقبل أن يمضي وقت طويل، عادت ثانية، لترعاني بأمومة، طالبة مني أن أنحني وأعرض ثيابي للفحص، لتذكرني لمرة وفي الوقت نفسه أنني صغير جداً، وعرضة لـ«الحوادث» غير قادر على التنبؤ بالأشياء، وهذا ما

Twitter: @ketab_n

جعلها مهيمنة على الموقف ثانية وأنها كانت تقول أنني عليّ أن أغير ثيابي، وإلخ، إلخ، إلخ. ولكن يا ويلي لو كانت في عادتها الشهرية. ثم - حسناً، تلك قصة أخرى.

(٥)

لم تكن رؤية الدم تثيرني أو تخيفني. أما الماء، مهما كان صغيراً أو كبيراً في الحجم، فهو يجذبني. كان الماء يريحني وحين أكون فيه أميل إلى الصمت، كأنني أُبجل إله الماء. كنت أطربش فيه كي تطير في الهواء بلوراته صافية كالفضة رائعة، جامحة، مثل خيالي، حتى ترجع تلك الكرات للجمال السحري إلى المكان الذي انطلقت منه. لا أستطيع أبداً تحديد علاقتي بالماء. حتى جاء الوقت الذي التقيت فيه بخالي، الذي أخبرني أن الماء كان له الولع الشيطاني ذاته عند أمي، آرلا. كانت قد وضعت حياتها في خطر عدة مرات حتى قرر في النهاية تعليمها السباحة. كانت المرأة الوحيدة التي تعرف السباحة، إذ كان من غير المعتاد في الصومال أن تتعلم المرأة. كانت قد أوضحت له أن الماء يمنحها الحيوية والفضاء الذي تتطلبه تخيلاتها، واعتادت ان تحسد الماء في المحيط على تبدل أمزجته بين الهدوء والغضب، والماء في النهر تحسده على الإصرار في العودة إلى «الوطن» بشكل تجاري أو الانتهاء في المحيط الأكبر.

غالبا ما سألت نفسي فيما إذا كان هو ما أتذكره من وجودي الجنيني - ألا وهو الماء - لقد كان لي هو النعيم المطلق، هكذا قلت يوماً لخالي هلال. وكان سعيداً لسماعه هذا مني - قال - ولست متأكداً إن كان يستشهد بشيء ما كان قد قرأه - ان الماء الأول كان هو الأفضل بلا شك، إنه النعيم السماوي. وليس ثمة تعبير مثل هذا يليق بهذا الشعور.

كانت بدايتي، إذن، في الماء الذي لا قرار له. لقد كان هو الماء الذي أرشدني إلى حيث أكون، الماء الذي جعلني بشراً، الماء الذي منحني دفئي

Twitter: @ketab_n

الجنيني - والمزيد من ذلك. كان الماء مرآتي أشاهد صوري فيه، الصور التي أبدو فيها مبتسماً والتي تزرع الأمواج - أمواج داكنة كالظلال - حين أدس يدي فيه. كنت مولعاً بالشرب منذ البقعة ذاتها التي سقط عليها ظلي. لم يكن الماء عذباً يوماً في أي وعاء كما هو في يدي المكورتين.

في الماء العميق، أيضاً، رأيت مستقبلي. قرأته لي مصرا التي كانت موهوبة في مثل هذا النوع من قراءة الطالع - من خلال موجات الماء أو في رعشة اللحم أو في بركة الدم. ماء في حاوية أو دم في أخرى، الدم من دابة مذبوحة، تستلقي لم يلمسها أحد حيثما سقطت وبقيت هناك حتى فرغت من دمها الحي الجاري. ولكن هل كان هذا يحدث لعواطف دينية أم صحية؟ لم تكن مصرا تعلم. على أية حال كانت تعرف كيف تقرأ المستقبل في رعشة اللحم. الأمعاء والشحم والأحشاء - وكل قطعة أو شريحة لحم، هي بالنسبة لها مثل راحة يد وتقرؤها. كان من المؤكد أن لا طفل مثلي كان لديه هذا القدر من المتع. لا أحد من أبناء العم قورح بالتأكيد. كانوا يُضربون في الصباح، وفي العصر أو في المساء من قبل والدهم المستبد، ومن قبل عوضان الذي كان (وكذلك بالنسبة لي فيما بعد) معلماً لهم، أو من قبل أمهاتهم أو من قبل أحد الأقارب. إلا أنا. إذ كنت من حصة مصرا.

وكانت مصرا تحممني. تزيت جسدي بعناية. أتقرفص في الطست عيناي نصف مغلقتين، بتركيز وقلق في انتظار هبوط الماء من الأعلى. كنت أهتز وارتجف، كأن الماء البارد ساخن وقد حرقني - يداي تتحركان في كل الاتجاهات وكأنهما ينويان الإقلاع للطيران. غَرفة ثانية وثالثة من الماء تؤكد لها أن جسدي قد ابتل بما فيه الكفاية كي تغطيني بالصابون. في بعض الأوقات، أتشبث بكتفيها كي لا أقع إلى الأمام. وتبقى عيناي مغمضتين، حتى أسمعها تقول أن بإمكاني فتحهما. فهي التي تقرر متى يتم ذلك. وكجزء من الطقس، كانت تصر على أن أتمخط. لهذا كانت تضع راحتها اليسرى المفتوحة المباشرة تحت حنكي وبإصبع السبابة والإبهام تضغط الأنف حالما أتمخط. الآن أين كنت أُحمم؟ في داخل كوخنا الطيني تماماً،

Twitter: @ketab_n

أو في الباحة؛ إن كان الوقت نهاراً، تحت الشجرة التي زرعت في يوم مولدي. أما هي فتتحمم في الداخل وحدها مغلقة الباب، وهذا ما صرت أقوم به حين بلغت. ليس للأطفال عورة، إن كانوا ذكوراً أو إناثاً، فليس غريباً أن يسيروا عراة، يعرضون أعضاءهم الجنسية حتى يبلغوا. عموماً ثمة متعة أخرى بعد الاستحمام.

كانت تزيت جسدي ثانية - تداعبني كما كانت في العادة، تداعب عضوي وتضغطه. كانت تجعلني اضحك، تجعلني سعيداً. ثم تحضر وجبة طعام لكلينا لنأكلها. وحين أكون في أحسن حال، تمتعني بحليب ساخن تحليه بالسكر وأشربه دافئاً. وقد رفضت، عابثاً، أن ألحس شاربي الحليبي فتضايقني فنمرح كثيراً ونضحك مطاردين بعضنا البعض تحت السرير أو خلفه. وفجأة تغير صوتها. لا مزيد من شرب الماء كي لا أبلل الفراش الذي ننام عليه معاً. كانت تداعبني. «ما الذي لديك في مثانتك؟ لماذا ترشح؟» وكان القرص، وهي تقرص عضوي، يضحكني.

الماء: أقرنه بالمتعة؛ أما الدم فلا يرتبط كثيراً بالألم بقدر ما يرتبط بفقدان الأعصاب وارتفاع النبض. لكنني أربط شيئاً آخر بالدم - هو المستقبل كما تقرؤه مصرا. وقد صغت مرة تورية أن - مستقبلي في دمي. الشيء المضحك أن عمي قورح أساء فهمها على أن قدري هو قدر العائلة التي هو كبيرها. والحقيقة، أنني لم أصحح ما أساء فهمه. فضحكنا أنا ومصرا. إذ لم يكن المسكين يعرف أنها قد قرأت مستقبلي بالدم.

فيما يخص الماء، هل صادف أن شاهدت عاصفة ممطرة؟ تخيل هذا: كل قطرة مطر محمية بملاك يظل يرافقها حتى تصل الأرض، الملائكة الذين يعملون على ضمان تبدل الفصول نحو الأفضل عندما تمطر، كي يزدهر حال البشر، فيتحول العشب البني إلى الأخضر والتراب إلى طين - ويصلي الناس إلى شاكرين، ذابحين الحيوانات ليأكلوها على موائدهم الاحتفالية - وذلك ما كان يمكِّن مصرا من قراءة المستقبل - الذي هو الماضي.

Twitter: @ketab_n

بالنسبة لمصرا، وكذلك بالنسبة لي أيضا، لكل شيء ماضٍ وحاضر ومستقبل. الأرض لها تاريخها، الشمس لها حياتها. القمر له سلوكه. الدم ـ الرمل ـ الأوراق الجافة ـ الغصون الجافة. الأوراق، صفراء ذابلة تتطاير في الفضاءات المفتوحة، معتلية الغبار والريح - كل شئ ينبئ بمستقبل وعلى المرء ان يعرف كيف يقرؤه، أو هكذا قالت مصرا.

وللصخور وجوه، وللعناكب أرواح، وللأفاعي أفكار وللسحالي ذكاء. ليس البشر هم الوحيدون من الكائنات المفكرة. فللأنهار ذكريات، كما تقول. إنها تتذكر من أين نبعت، ولها ولاء للناس الذين تجري في بلدانهم. تتذكر الريح من قابلت في رحلاتها عبر الصحاري الشاسعة، إنها تتبادل التحايا مع البعض، بينما تسد آذانها عن تحايا البعض الآخر. عود القصب له عقله الخاص وهو متمسك بهذا، على الرغم من أنه، أحياناً، يشعر بالدوار بفعل الريح، يفقد رأسه وتوازنه ما إن يتقلّب على الصخور، والشواطئ الرملية وما إلى ذلك. الأرض تستقي القوة من السماء، والسماء من الأرض. والأحياء من الموتى. يمكن أن يقرأ تاريخ الأرض من خسوفاتها، أما تاريخ الشمس فمن كونها جزئياً أو كلياً غامضة من ظل جسم آخر - الأرض أو القمر.

أستمرُ، منذ أن سمعتها تنشد «أنشودة الطبيعة» عدة مرات: الطفل لأمه، مثلما القمر للشمس، فما تكون الأرض للسماء. الأم تأخذ القليل وتعطي الأكثر. إنه يجعل الأم تشعر بالسعادة حين تعطي الطفل «أو الرجل» الذي يأخذ. تكون الصدمة أكبر حين يتعلم الإنسان أن عليه أن يعطي - لا أن يأخذ دائماً. تكون الصدمة كبيرة جداً، إنها مثل السقوط المفاجئ وغير المتوقع من مكان عال، في حضن الموت. آمين! الأحياء يستمدون القوة من الموتى، أليس كذلك؟ وأولئك النائمون يستمدون السند من أولئك المتيقظين. آمين! وتذكر أن النبي قال أن «الناس نيام فإن جاءهم الموت انتبهوا.» آمين!

Twitter: @ketab_n

(٦)

كانت تبدو كأنها جثة حين تنام - بلا حركة، يداها مطويتان متصالبتان على صدرها، عيناها مغمضتان. تكاد لا تتنفس أو تصدر صوتاً يخرج من منخريها. لكنني قلت لنفسي أنها ليست بحاجة إلى أن تقلق، فإذ يموت الآخرون لن تموت هي، هكذا كنت أقول لنفسي - فما دمت حياً ستبقى هي، إما أن تعيش في داخلي، أو تعيش حياة مستقلة عني. وسأراقبها تتحرك، ثم تنهض، كأنها تبعث من الموت، كل صباح، بعد أن أكون قد أفقت منذ ساعات. ستنفض ثوبها من الغبار وتسير -كأنها كانت قد أفاقت من الموت، من قبرها. كل صباح الشيء نفسه. في أوقات كانت تنام عند القيلولة. وكان عوضان يأتي ويسحب كرسياً قريباً من رأسها، ويجلس هادئاً، يقرأ سوراً مختلفة من القرآن، كأنها كانت ميتة ويقرأ عليها دعاءً أو اثنين. إن لم تبد كجثة، كنت أحولها إلى جثة، قلت لها ذلك في أحد الأيام.

فسألتني مضطربة: «ولكن لماذا؟»

«أو كنت سأقتلك. لتكوني جثة مثل أمي».

«تقتلني لماذا؟ ما الذي فعلته؟»

وجدت أن من الصعوبة بمكان توضيح ما أريد قوله. أنا بالطبع ما كنت أنوي قتلها لأنني أكرهها، فهذا شيء بعيد. ما قصدته، أنها في الموت وحده ستتوحد معي. في الموت وحده، في موتها، يمكن أن نتقارب، عند ذاك فحسب سأشعر كأننا أم وولدها. وعند ذلك، عند ذلك لا غير، كنت سأجد نفسي، وحيداً وموجوداً حقيقياً - نعم، فرد مكتف بذاته - ولم أعد امتداداً ليد أمومية تهدئ لمستها الصراخ الطفولي بلمسة واحدة.

ثم تساءلت، «هل يمكن أن يأخذني الموت إلى أمي، يا مصرا؟ أجيبيني بنزاهة. لأن هذا شيء غالباً ما أسأل نفسي به ولا أعرف بماذا أفكر أو أقول».

هزت رأسها وقالت أنها لا تظن أن الموت سيخطأ بأخذ أحد بدل

Twitter: @ketab_n

الآخر. الأمر يتعلق بعمر الإنسان في هذا العالم وعلى أية حال، استمرت في القول، ليس سوى تحت ظروف استثنائية يمد عمر الإنسان في هذا العالم. وأخبرتني بحكاية رجل ظهر له الملاك وقال له أنه، أي الرجل، سيموت بعد سنة من هذا اليوم، وقد أطيل عمره بسبب الأعمال الخيرة التي كان يقوم بها. وعلى الرغم من امتنانه، فقد أقر الرجل أن سنة واحدة لا تكفيه لإنهاء كل الأشياء التي بدأها، ثم ما السنة سوى ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وما الحياة سوى تلك الأسرار التي لا حصر لها، الأسرار التي تبقى كما هي بالنسبة للإنسان، أسرار تهبط عليه مثل حبات رمل من السماء. قال الرجل للملاك، كنت أفضل لو أنك لم تخبرني بموعد زيارة الموت لي - فيما إذا كان بعد ساعة أو يوم أو حتى بعد سنة. فقال الملاك أنه قد أُعطي تعليمات بأن يقوم بذلك وترك الرجل دون أن يضيف شيئاً. ولمدة ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وليلة قضى الرجل فيها كل لحظة من ذلك الوقت في الصلاة وحرق كل قرش كان يملكه في الصدقة أو ما شابه ولم يذنب حتى في تفكيره أو عمله. بعد سنة من ذلك اليوم، جاءه الملاك مرتدياً رداءه الأبيض ووقف أمام الرجل، وكل ما قاله له، «لقد كنت ميتاً منذ سنة. لو أن أحداً أطال عمرك في هذا العالم لسنة أخرى، كان ليتساءل إن كنت ستعيش، لماذا تصلي الليل والنهار؟ لماذا حرقت كل قرش تملكه بالصدقة على المحتاجين؟ هل تعتقد أن الله قد خلقك لتصلي ليس إلا؟ عش حياتك. إنا نوصيك بأن تعيش. عش كباقي البشر». وترك الملاك الرجل في كرب جديد. (عاش) الرجل لسنة. بالغ في التقتير، فلم يصرف لله قرشاً واحداً، وصلى ليرضي ضميره. وعندما تحين الزيارة التالية للملاك يكون الرجل مستعداً لسماع خبر موته، إذ لا يزال مهموماً، متحملاً وزر معرفته أنه سيموت في أقل من سنة. ولكن حدث أن الملاك قد ظهر بعد سنتين ولم يعلق إلا بأن الرجل له طينة البشر الذين يذنبون ويعلمون بذلك. كان ذلك الرجل، هكذا تقول الحكايات، قد عاش مائة وخمسة وعشرين سنة قبل أن يطرق بابه ملاك آخر.

Twitter: @ketab_n

قلت: «ولكن ما الغريب في حياة الرجل؟»

قالت: «ظن أنه كباقي البشر، من الممكن أن يخطئه الموت إلى شخص آخر، لم يعرف لماذا خلقه الله، كالأغلبية منا».

ولم أفهم تماماً، فتساءلت إن كان عوضان قد حكى لها القصة التي نسيت تفاصيلها. سألتها، بعد صمت طويل، إن كان الأمر كذلك.

وكالعادة لم تكن راغبة في أن تقر أن ثمة فجوات في القصة التي روتها لي. لذلك غيرت الموضوع. اقترحت أننا من الممكن أن نلعب لعبة الاختباء حتى يحين موعد نومي.

فاختبأتْ؛ ورحت أبحث عنها.

(٧)

هل كنت أجعل العالم موجوداً من خلال نظرتي، هذا العالم الذي تتواجد فيه ليس مصرا وحدها بل الكثير من الأشخاص كذلك؟ هل كنت نتيجة ذلك التحديق الذي أقوم به، أجلب للوجود حياة الذكريات التي لست المتذكِر فيها بل المذكور؟ أنا - من أسلمت نفسي كلها لمصرا وعالمها؛ أنا - من وجد في نظرةٍ أنا نفسي لم أرها أو أعرفها؛ أنا - من عاش في كون معتم مثل غرفة المصور، كون يتطور إلى كائنات معرّفة، البعض منها متطابقة، والبعض الآخر في نسخ كثيرة كما يريد المرء - نظرة؟ أم لمسة؟

بالنسبة لي، بدأت الحياة في يديها و(في) لمستها بدأت الوجود. لا في النظرة الوحشية التي كانت بدائية إلى حد أنها نفذت إلى عمق خطيئتها، نظرة وحشية حركت في روحها رغبة لا أنانية فيها لتعطي وتعطي ولذلك لـ«تكون»، موجودة في العطاء. ألهذا ضايقني غيابها الجسدي جداً حين كنت صغيراً - لأنني لم أستطع أن أعيد الطباعة على شاشة ذاكرتي التي لم تكن قد نمت بعد، صورتي لها بعدد النسخ التي أريد؟ عموماً، كانت حياتي في يديها وبإمكانها أن تفعل ما تريد بها وقد قامت بذلك على أفضل وجه.

Twitter: @ketab_n

أجل، من خلال كل الحسابات، أقنعت أعمامي وعماتي وباقي الأقارب وكانت قادرة على الحصول على استحسانهم - رغم أن ثمة أسراراً بيني وبينها، أسراراً لم يدن منها أحد. تضمنت تلك الأسرار أشياء فعلناها معاً، أنا وهي؛ تضمنت ألعاباً لعبناها في غرفتنا عندما يحل الظلام ويغلف صمت الليل كل الأشياء فنندس تحت أغطية الفراش وتروي هي لي الحكايات أو تعلمني ما كان حرياً بها أن تعلمني إياه. تضمنت تلك الأسرار حقيقة أنني عرفت حقيقة كل شيء فعلته. مثلاً أن أحد أعمامي كان معتاداً على أن يأتي ويطرق شباك غرفتنا الصغير بعد منتصف الليل فتنهض مصرا من فراشها لتغتسل وتستعد للطرقة الثانية. وفي أوقات تفتح الباب ويدخل هو ليمارس الحب معها على الأرض أو تتبعه هي إلى مكان آخر. أنا غالباً، أتظاهر بالنوم. ولكن في بعض الأحيان اصرخ بصخب لأفسد السهرة عليهما، فتعود هي إلى الفراش معي لتهدئني، تضعني بين نهديها وتهمس بشيء بنغمة جادة - إما «آمل أن تتعلم الاعتماد على نفسك كمثل كل الأطفال الذين في عمرك»؛ أو تتضبب عيناها بالدموع من الحنق، لتقول، «سأقتلك ما لم تحسن التصرف. سأخنقك - كي أعيش حياتي». ثم تضع سبابتها والإصبع الوسط على عينيك المغمضتين. ويبقى الإصبعان هناك، كأنهما فتحتان لناي. وتستمر، «سأقتلك أو أقتل نفسي» فأبكي بعنف أشد وأبلل نفسي في النوبة الغاضبة التي تخللت التعبير عن النفس، وتنسكب دموعها عليّ، فترفعني إليها، غير آبهة بفوضى الرطوبة وارتدائها لأفضل ثيابها، لتهدهدني كي أستكين. وتضعني قريباً منها، إما على الأرض أو على المقعد. إن ابتعدت عني، وإن لم تضع يدها عليّ، كانت تعلم أنني سأنفجر في صرخة تالية متشنجة وأتقيأ أيضاً أو أكح أو أفعل الإثنين. بعد استحمام طويل، أجلس، وكأن شيئاً لم يكن، نعود إلى اللعب. فتختبيء وأبحث عنها في الظلام أو أنير أجزاء من الغرفة. وحين يسأل عني الجيران أو الأقارب الذين سمعوا صراخي الهائج في الليلة الماضية، لم تكن مصرا الكريمة والجميلة تتحدث عن الملابسات التي سببتها ولا عن الزائر الذي

Twitter: @ketab_n

جاء بعد منتصف الليل. كنا ننظر إلى بعضنا البعض ونتبادل التكشيرة أو الابتسامة، حسب المزاج. ولكن أحداً منا لم يتكلم عن أسرارنا المشتركة. حين تكون هي مستاءة، كانت تنهض من مكانها وتنظر إلى البعيد. كنت أبتسم أنا منتصراً، لأنني أعلم أنني أحمل حياتها في قوة فمي وبإمكاني أن أفعل بها ما أشاء.

أقر أن الكثير من الأشياء مختلطة في ذاكرتي. أشعر أحياناً، أن رأسي سينفجر من كثافة الحكايات التي أتذكرها - حوادث هي على الأرجح لم تحدث، كلا، تحت أي احتمال، كما أتذكرها. شيء واحد أتذكره بالتأكيد، بوضح النهار، هو كيف كانت تشعر مصرا أنها «مسؤولة» فيما يخصني، في جسدي وتفكيري. كانت مسؤولة عني مثل من يسكن مكاناً معيناً ويتحمل أو تتحمل مسؤولية أغلب ما يحدث فيه، إلى حد أن نواقص الماء وانقطاع الطاقة الكهربائية وأشياء كهذه تفسر على أنها نواقص بشرية. لو أصبت بالبرد أو الإسهال او لو أنني تكلمت بفظاظة مع أي أحد، كانت تعلمني - تبرر أو تشفع لي أو تقول أنها سوف تضربني بنفسها. لو مرضت، ستفسر لماذا ضعفت بنية جسمي أو لماذا لم أكن معافى أو قوياً كما هي عادتي. ولكن حين نكون بعيدين كانت تتذمر لي مباشرة أو تشكو وتدمدم، لتسمعني، كأنها كانت تحدث نفسها «الخساسة في أصلك». هكذا تهاجمني. «لماذا؟ أنت تعرف أنني غريبة هنا وإن وقعت مريضاً سيقول أهلك أنني أهملت في رعايتك وإطعامك. أنت تعرف أيضاً، حين تكون معافى، يجعلون الفضل يعود لهم لا لي، هذا هو شعبك (الصومالي) الذي لا أحمل هويته. لماذا تجعل حياتي تعيسة؟»

ولكن ثمة أشياء كثيرة لم أكن متأكداً منها. مثال ذلك، لم أكن متأكداً ممن قال: «كانت نظرتك رقيقة - مثل حصى في جدول ماء». أهي مصرا ذاتها؟ سيخبرني أحد ماذا تعني - بكلام واضح؟ أرجوكم؟ هلا أخبرتموني؟ هلا أوضحتم لي؟ (أنتم) يا من تحاكمونني، هل سيقوم بذلك أحد ما؟ أجل؟

Twitter: @ketab_n

الفصل الثالث

(١)

وكان يركض ويركض، كان يلهث بصعوبة ويركض. ولكنه لم يكن يعرف لماذا كان يركض، ولم يكن يعرف مم كان يهرب. ركض، أعماه الخوف؛ ركض بلا شعور. ولم يعرف الغاية من ركضه - ورغم ذاك لم يستطيع التوقف. عبر ما يقارب ثلاثة أرباع غابة كبيرة ورغم ذلك لم يتوقف حتى حين رأى نفسه أنه دخل فسحة خالية تتناثر فيها دمى مهملة لم يكد يلحظها. لم يكن يستطيع أن يحدد كم من الساعات قد أمضى حتى وصل إلى المكان الذي هو فيه أو فيما إذا كان يركض في دوامات.

بدأ الفجر يبزغ.

والتمع شيء صغير في السماء فوقه، فجذب انتباهه. سأل نفسه، هل ذلك ممكن - كوكب الزهرة عند الفجر؟ لكنه سمع ضوضاء فالتفت نحوها - كانت امرأة نحيفة وداكنة تقف أمامه، امرأة تشبه مصرا وهي رغم ذاك ليست مصرا لأنها قدمت نفسها حين اقترب منها على أنها ليست مصرا بل عمات؛ وحاول أن يكلمها، فطفق يقول «أنا..». لكنه لم يكمل الجملة. وعرضت عليه مصرا أن تكون دليلته. وعدت بأن تجيب على أسئلته، كل أسئلته. وهذا ما حصل. كان ثمة وشم على أجساد معظم الناس الذين قابلوهم في الطريق يبين هوياتهم التي تحوي أسماءهم وقومياتهم وعناوينهم. البعض منهم حفر على جلده السبب الذي جعله كما كان في

Twitter: @ketab_n

الحياة وآخرون طبعوا على جباههم أو ظهورهم علمهم الوطني أو شعارهم. كان ثمة رجل قد وشم على صدره العلم الصومالي فُقدت ثلاثة رؤوس من نجمته، وضحت مصرا سبب ذلك لعسكر. وقابلا أيضاً رجلاً يحمل لافتة كتبت عليها الكلمات «شهيد من الأوغادين». وظن عسكر أنه شاهد الرجل من قبل. ثم التفت إليها ليواجهها ويسألها إن كانت هي أيضا تعرفه. ولكن، واحسرتاه! لم تعد موجودة، وليس ذلك فحسب، بل لم يعد لها وجود في ذاكرته. لقد اختفت فعاد ليسأل نفسه، أكان من الممكن أن تكون كلمته «أنا..». التي خاطب بها مصرا، لم تكن غير كاملة؟ وكان هو مصرا؟ وأزاح في تفكيره النقاط التي تشير إلى الطبيعة الناقصة للتعبير فأعاده ثانية. سمع نفسه يقول «أنا»، وأعاد إليه الصدى صوتاً وجد أنه يحمل معنى.

وتطلع إلى الأعلى ليرى إن كانت «الزهرة» قد اختفت. ولم يخب أمله كليا هنا - ولكن كان متأملاً على نحو لافت بطريقة فريدة. شعر بالضيق مثلما تجد نفسك أنك لا تستطيع تسمية شيء ما تعرفه، حين لا يتماشى تركيب الحروف في فمك مع الصوت الذي تود شفاهك نطقه. قرر بانطباعه الفردوسي، أن تلك لم تكن «الزهرة». لقد كان نوعاً من الكائنات، يشبه العنكبوت كثيراً، كبير وملون - عنكبوت هائل بحجم مشهد الحلم الذي كان فيه، عنكبوت استطاع أن يحوك من خلال تلك البطن الصغيرة، شبكة معقدة، هي شرك طويل، يضيع فيه المرء. تسلق العنكبوت سلم أحشائه الطويل.

إبتعد الآن، مقتنعاً أن عليه أن يفعل مثل ذلك. فسار. بعد نصف ساعة، وصل إلى نهر يوشك أن يفيض من ضفتيه. جلس تحت شجرة مرتاحاً وراح يتأمل بينما ينتظر. ولكن، ماذا كان ينتظر؟ لم يكن يعرف. جلس ينتظر؛ جلس مشحوناً بتساؤلات توما الأكويني عن الذات: أخبر نفسه أنه كان يعرف الغرض من الأنهار - أن تسقي وتساعد في نمو الطعام في شكل فواكه وخضر وما إلى ذلك؛ ولكن ما هو الغرض من وجود الإنسان، ليخدم من؟ أن يعبد الرب؟ أن يدرس الله من خلال الطبيعة؟ لماذا

Twitter: @ketab_n

كان (هو) قد وُلد؟ لسبب غير مرئي يتعلق بالفكرة التي طرأت على باله للتو، وتذكر عسكر قصة الرجل الذي تحدى كل شيء، الرجل الذي احتج بـ «أن حتى المرايا لا تعكس الهوية الحقيقية للأشياء والناس». كان الرجل أصلع، لكنه اختار أن لا يرى صلعه، على الرغم من أن الناس رضوا بما تعكسه المرآة، أو بالأحرى ما رأته. وصفه الناس بالجنون، وكان عذرهم في ذلك أن كيف له أن يقول أن ما رآه الناس وأثبتته المرايا ليس حقيقياً؟ بعد أشهر، جُن الرجل. هل سيجن عسكر في النهاية وهو يناقش الأشياء، ويتحدى الأفكار المقبولة؟

وفي الأخير، كان يقف أمام بوابة كبيرة كتب عليها الحرف A بخط عريض. وتذكر، ربما في الحياة السابقة كان قد رأى تلك البوابة وأن رجلاً يرتدي زياً عسكرياً قد أبعده عنها. إنه الآن لا يملك الشجاعة على أن يطرقها، ولم يكن لديه أي فضول كي يكتشف أي عالم سري ينفتح عليه. جلس على حجر كبير إلى جانب الطريق. إلى يساره كان ثمة جدول ضفتاه مخضرتان بالأعشاب. كان يبدو أن ينبوعاً قد تفجر في تلك اللحظة وأمامه مباشرة، بحضوره تماماً، لينساب منه هذا الجدول المدهش الذي تطارد فيه الأسماك من كل الأحجام والأصناف بعضها البعض دون أي إحساس بالكبت أو التجمل.

واكتشف وهو يتطلع إلى السماء، أن السماء التي فوقه كانت ترتدي حللها السماوية السبع، التي تضاهي ألوانها ألوان القوس قزح ولكنه لم يرها من قبل - واحد بلون الياقوت، وآخر بلون اللآليء الفضية؛ وآخر ذهبي، وآخر فضي أبيض، وواحد بلون الياقوت البرتقالي؛ وأخيرا واحد له بريق مشع، لم يره إنسان من قبل، إلا إذا كان متصوفاً أو نبياً. إلى يمينه، حين التفت، كانت ثمة شجرة حطت على أحد أغصانها «دمى تتكلم». لم يستطع فهم ما تقوله الدمى. وهو على أية حال، تساءل فيما بعد إن كانت كل هذه الأشياء هي نتاج ذهن مرهق يعبر عن نفسه بأسلوب غريب.

ثم ناداه صوت (لم يكن يدري إن كان قد جاء من داخله أو من

Twitter: @ketab_n

الخارج)، صوت، حي ومتعجل. كان خائفاً أول الأمر فلم يتحرك مطلقا. ثم سمع صوتاً حريرياً، أي، سمع فحيح أفعى تقترب من جهته اليمنى، ولم يخش منها أبداً، بل توجه نحوها. عند ذاك، مست يداه، وهو يقترب من الأفعى، بقعة في فخذه كانت لدغته أفعى فيها عندما كان صغيرا. حدق في الأفعى، متوقعاً أن تبدي له إشارة التعرف؛ وفعلاً، رأى لسان الأفعى المنشطر يقطع الهواء، رأسها يومئ، وحلقها ينبض بكلام مشفر. ثم سكنت كل الحركات، التي في داخله والتي خارجه؛ ولم يكن يعرف أين كان؛ أو من يكون؛ ولم تعد لديه هوية ولا إسم؛ ولم يكن ثمة وجود للأفعى حتى. كان مرعوباً لبرهة، كأنه مسافر أضاع وثائق سفره. سأل نفسه، أيمكن إدراك أنه قد فقد كل معرفة قد كسبها حول نفسه عبر السنين؟

جلس على حجر كبير وحيداً وكئيباً، رأسه بين يديه كأنه في حداد. ومما جعله أشد حزناً أنه لم يجد من يوجه إليه حول هويته؛ ليس ثمة أحد يجيب عن أسئلته الملحة، «من أنا؟» أو «أين أنا؟» ولحسن الحظ، عموماً، اكتشف عسكر أن لديه هاجساً - أن الأفعى ستعود لترتدي قناعاً. وانظر وتبين، عادت الأفعى فعلاً، مرتدية وجه رجل كان عسكر قد رأى صورته من قبل، الصورة التي كان يعرف أنها لـ«أبيه». وعند ذاك لم يستطع إلا أن يتذكر أحد أقربائه الذي أوصاه أن لا يؤذيَ الأفاعي التي زارت مسكن العائلة قبل سنوات لأن ثمة رباط دم بين بعض الأفاعي والأسرة. فكر بذلك الأمر جدياً وأراد من أحد الناس، متمنياً أن يكون كبيراً، أن يجيب عن تساؤله: «إنه ربما يكون له جسم ومظهر أفعى لكنه له قرابة بالبشر في كل النواحي الأخرى التي ليس من السهل عليك أو علي كشفها - هل هذا ممكن؟» أجابت مصرا، نعم.

وفجأة سيطر على عسكر صمت غامر. وجاءه صوت مجهول، صوت من المؤكد أنه لم يصدر عن لاوعيه أو وعيه، ناداه هذا الصوت. وبكلمات أخرى، جره الصوت إلى حقل - حقل أشتد اخضراره بمرعى التخيلات - وشاهد جوادين يصهلان بتوتر كلما اقترب منهما. كان أحد الجوادين قبيحاً

Twitter: @ketab_n

إلى حد مخيف، والآخر وسيماً مثل جواد عربي عريق النسب. كان لون الجواد الوسيم، الذي أسرج بأفضل ما يمكن أن يعمله الإنسان، أسود كالكهرمان، جبهته بيضاء، وساقاه الأماميتان بيضاوان أيضا. عيناه داكنتان رغم أن شفته العليا ليست بيضاء كجبهته. كان الثاني قبيحاً، لكنه بدا أكثر قبحاً وهو يقف إلى جانب الجواد الوسيم. كان متعرقاً ونتن الرائحة، وكانت أسنانه حادة كالسيف. شك عسكر بأن الجواد الوسيم يعرفه لأنه اقترب منه (بينما تخلف القبيح، وظل يرعى تبنه بشراهة)، موطئاً رأسه طائعاً، ليقف إلى جانبه منتظراً أن يمتطيه. ما أن امتطاه حتى راح يجري سريعاً، رائعاً وهائلاً، ركوبه منعش إلى حد لا يوصف. راح يخب عبر الأنهار، واجتاز الجبال، وطار في الهواء كأنه مجنح! جواد، هل كان هذا حقاً جواد؟ لم تكن عظامه كبيرة كالخيول التي رآها من قبل، ولكن من المحتم أنه أطول بكثير، وبالطبع أسرع من الجواد العربي. كانت له سيقان تتكيف مع ظروف الأرض. فمثلاً حين كان يهبط تلاً، كانت قوائمه الأمامية تمتد، كانت تصبح أطول كي لا يجد، هو الذي لم يركب جواداً من قبل ولم يعرف كيف، أية صعوبة محرجة في التشبث بالسرج.

توقف الجواد دون أن يؤمر بذلك.

وظهر أمامهما رجل يرتدي ثياباً خشنة من الصوف. كان الرجل هادئاً جداً وساكناً، وبدا أن تنفس كل من عسكر والجواد قد أشعره بالضيق. إقترب الجواد من الرجل وانحنى مطأطِئاً رأسه كأنه كان يعتذر لخطأ ما قد اقترفه. ربت الرجل على رأس الجواد. وترجل عسكر. وذهب الجواد مبتعداً كأنه قد صرف وراح خلف الشجيرات التي خلف عسكر والرجل، مختفياً عن ناظريهما. رأى عسكر أن الجواد لم يهبط إلى مستوى أكل العشب مطلقاً، بل انتظر، أذناه منتصبتان، مباركاً بمعرفته أنه سيتناول غذاءً أنبل، ربما من طعام الآلهة.

«مرحباً»، قال الرجل، كان صوته ذهبياً وعذباً وعميقاً. «مرحباً بك أيها الشاب في أرضنا هذه أرض الأسرار والأفاعي والعناكب والخيول

Twitter: @ketab_n

والرجال الذين يرتدون الثياب الصوفية الخشنة. مرحباً بك بيننا، أيها المسافر. مرحباً»، راح يكرر.

وحلت برهة صمت بدت لعسكر لا نهاية لها، لأنه كان عليه أن يعبر خلالها من المنطقة المعتمة في مشهد الحلم إلى المنطقة المضيئة. ولأنه لم يألف ذلك، أخذت منه وقتاً أطول وعاد الرجل يكرر عبارات الترحيب مرتين حتى يكون عسكر مستعداً للسماع والفهم. واستأنف الرجل كلامه: «لقد تقابلنا أنا وأنت يا ولدي لفترة وجيزة.لقد اضمحل بصري ونزل الضباب على روحي، ولذلك لم يعد بإمكاني أن أرى وأستوعب. مرحباً بك».

حدق فيه عسكر صامتا.

واستمر الرجل، «لدي رسالة. هل تحب استلامها؟ وهل ستعدني بإيصالها إلى صاحبها يا ولدي؟»

أومأ عسكر برأسه موافقاً، ولكنه لم يسأل من كان صاحب الرسالة.

«قال النبي، (صلى الله عليه وسلم) أن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا، هل تقدر أن تعيد قوله هذا لي، كلمة بكلمة يا ولدي؟»

أومأ عسكر برأسه.

«أرجوك أعده لي كلمة بكلمة».

فأعادها عسكر.

«وثمة رسالة أخرى».

وأشار عسكر إلى أنه ينتظر استلامها، حتى إن كانت نيابة عن شخص آخر.

«أرجوك اصغ إلي جيداً».

إنتظر عسكر.

قال الرجل، «النسر يبني عشه بمخالبه».

وتبع ذلك صمت قصير. وانتظر الرجل.

Twitter: @ketab_n

وكرر عسكر، «النسر يبني عشه بمخالبه».

أخذ الرجل الذي يرتدي ثياباً خشنة من الصوف عسكر من يده وتبعهما الجواد، دون أن يطلب منه أحد ذلك، ولكنه أبقى على مسافة تفصله عنهما، منتظراً التعليمات. سار الرجل إلى مكان الجواد وهمس في أذنه. أومأ الجواد برأسه. وعند ذاك أشار الجواد إلى عسكر أنه مستعد أن يُمتطى. وتساءل عسكر، وهو يمتطيه، إن كانت ستنمو له أجنحة براقة كالفجر ويطير باتجاه شمس الصباح. وحين تودعا قال الرجل لعسكر، «فلتستيقظ بسلام».

واستيقظ عسكر.

(٢)

إستيقظ واغتسل، وسيماً، حليقاً، في السابعة عشرة من العمر، كان يقف خلف نافذة في منزل بمقاديشو - منزل خاله هلال. إلى يمينه، طاولة للكتابة عليها استمارة لم تملأ بعد من لجنة قبول جامعة الصومال الوطنية، الاستمارة التي لم يجد الطمأنينة في رأسه لينظر فيها، لأنه لم يكن يعرف، بعد كل هذا، أنه سيختار الذهاب إلى الجامعة رغم أنه اجتاز امتحان المدرسة بتفوق وكان من حقه اختيار الكلية التي يريد. وكان هنالك، إلى جانب الاستمارة غير المملوءة، ورقتان - واحدة من الخال هلال، الذي يتكفل بإعالته، يخبره فيها أن مصرا قد شوهدت في المدينة وأنها تبحث عن مكان عسكر ومن المحتمل أن تصل إلى عتبة الباب في أي يوم؛ والورقة الأخرى من مقر جبهة تحرير الصومال الغربي، بمقاديشو، يطلبون فيها حضوره أمام لجنة التجنيد للمقابلة. وقف خلف النافذة، متأملاً وبالغ السكون - يشبه رجلاً وصل إلى أرض جديدة غريبة عليه. ترك النافذة الآن والتقط الاستمارات والأوراق. أدرك أنه لا يستطيع تحييد ما يقلقه كما يريد. وحدث له، كفكرة تالية، أنه في قراءته للورقة من خاله هلال في الليلة الماضية حين عاد إلى روحه (كان قد أمضى أمسية رائعة برفقة صديقته

Twitter: @ketab_n

ريو)، شعر باليأس وانكمش حجم روحه، بينما تضخم جسده وانتفخ. فتساءل عن السبب.

مصرا هنا، في مقاديشو.

عسكر الآن كبير، طويل، نظيف كما يكون الكبار عموماً، وبصحة جيدة. سأل نفسه، كيف ستتصوره؟ تذكر كيف اعتادت أن تغدق عليه حباً لا حدود له حين يمرض؛ كيف كانت تعتني به بتركيز طفل يصلح لعبته المكسورة. كانت تحممه، وتزيت جسده مرتين في اليوم وتجري أصابعها على جلده الرقيق، تتوقف وتغور، وتسأل أسئلة حين تواجه خدشاً صغيراً، لم يعتنِ به، فيتقيح، أو يغدو بقعة سوداء. أما البثور فشيء آخر. فلم تقلق منها أبدا. كانت تقول مرددة فكرة العجائز عن البثور، «حين يكبر الأولاد يكون لديهم بثور نتيجة المني المكبوت».

ولكن كيف ستتصرف معه وقد غدا رجلاً ناضجاً، ربما يكون أطول منها، من يدري؛ ربما يكون أقوى وأكثر خشونة منها؟ هل ستمر بخاطرها الأفكار العبثية: أنها تحب لو تحممه؟ أو أن تعرض عليه غسل ظهره بالصابون، أو - لم لا؟ - تفرك بالإسفنجة تلك الأجزاء من جسده التي لا تصلها يده، ألا تفعل ذلك؟ من ذا الذي سيغض النظر هو أم هي؟ هل سيكون قادراً، بكلمات أخرى، على مغالبة نظرتها؟

ما يقف بينهما، الآن وهو إبن السابعة عشرة وهي في الأربعين، عشر سنين، كل سنة بارزة مثل حَكَم يوقف نزاعاً - عشر سنين أزاح فيها جلده الطفولي وأصبح له جلد بالغين تحت رعاية خاله هلال. إنه شخص مختلف كلياً. ربما لم يكن شخصاً حين رأته آخر مرة. لم يكن سوى صبي عمره سبع سنوات، وكان ربيبها، وفي بعض الأحيان كان يفكر في نفسه، أنه لعبتها. مهما يكن فإن السنوات العشر التي فصلت بينهما كانت حاسمة في أمور عديدة.

إن العالم الذي أدخله إليه خاله هلال وصلاتو، حياته في مقاديشو معهما، مدرسته هناك والعالم الذي فتحته له، كان عالماً يختلف عن العالم

Twitter: @ketab_n

الذي فُرض على تفكير مصرا في حرب الأوغادين. ولكن كيف أطعمت نفسها في الحرب؟ ولماذا أمست خائنة؟ ذلك لأن ثمة سياقاً معيناً في القصة الواحدة - وهو أنها باعت روحها كي تنقذ جسدها - ولكن هل هذا صحيح؟ أهو صحيح أنها قد خانت الثقة ونصبت شركاً فقد فيه مائة من محاربي كالافو حياتهم؟ أم هل أسلمت جسدها كي تنقذ روحها؟ تذكر عند ذاك أن العيش مع مصرا لم يكن مملوءاً بالغبطة والسعادة، بل كانت ثمة لحظات حزن، ولم تكن كلها متعة. كانت لها آلامها وكروبها، صعوداً وهبوطاً، خصوصاً عندما تفيض فجوة رحمها بالدم مرة في الشهر. حين يحدث هذا، تكون شرسة وقبيحة، منفوشة الشعر، ضيقة الصدر وعصبية المزاج، تضربه في أغلب الأحيان ولا تستطيع السيطرة على نفسها. كانت كئيبة، انتحارية، لا، ولكن يمكن أن تقتل.

هكذا دخلت كارين حياته.

(٣)

لمرة في الشهر، ولمدة خمسة أو ستة وحتى سبعة أيام، تغدو مصرا شاحبة، غير معافاة وكئيبة، وسيئة الطبع. وكانت تضربه بانتظام مثلما تجري دورتها. إعتاد أن يفكر بها على أنها الدمية الصينية التي عبأت زنبركها - ولو أنك انتظرت طويلاً، فلسوف تسقط جبهتها على حنكها، حين تبطل تعبئتها. وتبدلها بأم موقتة. ليست واحدة من زوجات العم قورح، لا. كان اسم المرأة هو كارين وكانت من الجيران، لها أبناء كبار ذهب كل واحد منهم في طريق، ولم يبق لها إلا زوجها الراقد على الأرض، على ظهره، طوال الوقت تقريباً، وربما يتوجع وربما لا، لم يكن عسكر متأكداً من ذلك. كانت كارين تأخذه أو تحمله أينما ذهبت، كأنه كان يسير المشاوير ذاتها التي تسير إليها. ولوقت طويل كان يناديها «عمتي» ولم يبد اهتماما لمعرفة اسمها، متسائلا إن كانت تحمل اسما. ذلك لأن الأطفال في المنطقة،

Twitter: @ketab_n

بضمنهم أطفال العم قورح كانوا ينادونها «عمتي»، أيضا. وقد قال أحد أبناء العم قورح أنها زوجة «الزوج النائم».

لم تخبره كارين بما يحدث لمصرا لوقت طويل. وحين كانت تفعل، فكل ما تقوله «آه، مصرا تنزف». ولكن هذا كلام لا معنى له بالنسبة لعسكر. فلم ير أي دم (حدث له مرة أن نزف من أنفه وعرف بالطبع كيف يبدو الدم) ولذلك قال أنه لم يفهم. وظن أن تلك هي طريقة البالغين في إخفاء شيء ما، أو أن كارين تحب التكلم بالألغاز. لم يكن يستطيع أن ينسى أنها هي التي سألها عن مشكلة زوجها وأجابته أنه لديه أوجاع في الظهر. وحين قام بالمزيد من البحث في ذلك، وهذه المرة من خاله هلال، أُعطي الاسم العلمي للأوجاع. ها هو يسألها، «وهل تنزفين أنت أيضا؟»

قالت كارين، «الحمد لله لأنني كبرت على ذلك».

ذلك ما حير عسكر. فوضحت له كارين، بصبر الجدة، «إن ما لدى مصرا هو الحيض. ونحن النساء لدينا له اسم قبيح آخر. النساء فحسب، فوق أو تحت سن معين، يحدث لهن هذا - أو يعانين منه. حينما تصبح المرأة في الخمسينيات من عمرها أو أكثر من ذلك، ينقطع عنهن. لم أعان منه منذ كنت في الثالثة والخمسين. هل فهمت؟» قالت له ذلك وعيناها المحمرتان مثبتتان عليه.

لم يكن عسكر بحاجة للكلام - فبإمكانها أن ترى من خلال التعبير في المرسوم على وجهه أنه لم يستوعب كلامها. فرغبت أن تجعله يفهم ما كانت تقصده - هي، التي يسرها أن تتحدث إليه حول أشياء لم تجرؤ على التحدث بها مع أطفالها. قالت، «حين تكبر قليلاً، سوف تفهم»، بأسلوب الطبيب الذي يطمئن مريضه أن كل شيء سيكون على أحسن حال لو تناول الحبوب كما وصفها له.

تساءل، «ولكنني لن أنزف؟»

نسيت أن تكرر له أن النساء فحسب يعانين منه - الحقيقة التي لم يكن

Twitter: @ketab_n

قد سجلها، أو أنها تسربت منه، حين قالت، «إنها تجلب معها الكثير من الآلام والمعاناة».

«لو عانيت منه قليلاً، ستعاني منه مصرا أقل، صح؟»

إكتسى وجهها بتعبير من يشعر أنه أُسيء فهمه. وراح رأسها يهتز كأنه لم يعد على رقبتها، وقالت لعسكر، «لا، لا، لا. فمصرا امرأة».

فهز كتفيه، «وماذا يعني هذا؟»

ودون أن تتكلم أدرك أنه أساء فهمها. ثم سمعها تقول: «النساء فحسب في سن معين تكون لهن عادة شهرية، النساء بين الثانية عشرة ودعنا نقول الخمسين. وليس الرجال. ومن المؤكد ليس الأولاد كذلك».

فحدق فيها مندهشاً، وهو صامت. واستمرت هي تتحدث ببطء، وعناية، «لا يعاني زوجي وأولادي من الآلام الشهرية للحيض. أما بناتي فبلى. أنا، بلى - حين كنت أصغر سناً من الآن»

«لو فرضنا أن امرأة ليست لديها دورة شهرية؟ فلنفترض أنها انقطعت عنها؟»

أرادت أن تستوضح شيئا ما قبل أن تجيب: «تعني، أن أولئك النساء لازلن صغيرات وهن لسن كبيرات في السن مثلي؟»

أومأ عسكر برأسه.

كانت كارين متأكدة. «هذا يعني أنهن يحملن طفلاً».

بدت عليه الحيرة. ولم يفهم من توضيحها التالي الذي قدمته له، أكثر مما يفهم بدوي وهو يستمع إلى الأخبار عن هبوط قيمة الشلن الصومالي. قالت، «النساء اللائي تنقطع عنهن الدورة الشهرية هن حوامل، ما لم يكن مرضى». وهذا ما عقد الأمور أكثر.

هل كانت مصرا حاملا كل شهر، مادامت مريضة؟ كان من المعتاد أن تترافق مع أيام وليالي من الكآبة، وتؤلمها أثداؤها. كانت مريضة وتنزف كثيراً. كان عذابها الشهري هذا يستمر لمدة أسبوع. كان ألمها أشد حدة في

Twitter: @ketab_n

أسفل البطن، الذي تظل تمسكه بقوة وتضغطه كأنها تعصر قيحاً من جرح ملتهب - كان ذلك الألم قاسياً جداً، حتى أنها في بعض الأوقات تفقد الوعي. وحين يزداد التوتر في جسدها، تنتفخ - كأنها في مخاض.

كانت كارين، وهي تخلط العجين مع دقيق الدخن والماء لتعمل الكانجيرا لعسكر ولمصرا أيضاً، إن كان بمقدورها أن تأكلها، تقول له، «تذكر حين تكبر وتغدو رجلاً - تذكر المعاناة والألم على وجهها. تذكر كيف يعاني النساء. وأرجوك، أن لا تسبب لها المزيد من الألم والمعاناة».

تمنى أن تكون لديه الإرادة ليعدها بما طلبت. ورغب أيضاً، أن يُذكر كارين أن مصرا لم تكن متألمة دائماً في دورتها الشهرية. ففي بعض الأحيان كان يراها جالسة في صمت فخري، تحلم بأحلام اليقظة. لم يكن يعرف فيما إذا كانت مصرا قد أخبرت كارين عن الرجلين، هما تحديداً العم قورح وعوضان، اللذين يزورانها ليلاً. وفي الليالي التي تخلو من الزوار تكون تلك الليالي أكثر هدوءاً حين تكف مصرا عن الأنين المفرط. وفي كل الأحوال، لا يزورها أي واحد من الرجلين حين تكون في دورتها. تمنى أن تتخلص أبداً من آلام الدورة. وتمنى أن لا يزورها الرجلان بعد هبوط الليل.

ولكن كانت هنالك حادثة يوم لم يأت الألم الشهري المفرط لمصرا. جاءت كارين وسألت عن صحتهما. والحقيقة كانت قد أكثرت من تكرار الزيارة، وهذا ما أثار الشكوك في ذهن عسكر - وأحس بأن شيئاً خاطئاً قد حدث. جاءت امرأة لم يرها من قبل واعتزلت النسوة الثلاث في الغرفة، كن يتحدثن بهمس. ما الذي يخفينه عنه؟

على الرغم من أن لا وجود لألم واضح - من النوع الذي كان يترافق مع دورتها الشهرية - كان ثمة نوع من التوتر الصريح في جسدها وكانت تحلم أحلام يقظة كثيرة في أوقات طويلة. لم تضربه، على أية حال، ولم يكن لديها مزاج ليتعكر، كما كان يبدو. لكنها كانت حازمة مع زائري الليل

Twitter: @ketab_n

الإثنين - ولم ترغب في رؤيتهما. كان عوضان مصرّاً، فقالت له، «أخرج». فخرج.

وحدثت تغييرات في غذاء مصرا. راحت تمضغ قطع طين تُجلب لها من قاع النهر؛ لقد أكلت الكثير من الأشياء الرديئة؛ وأيضاً نظفت أسنانها بالفحم.

في إحدى الأمسيات، جاء عوضان ودخل الاثنان الغرفة وسمع عسكر دورة المفتاح في الباب حين أغلقاه. وراح عسكر إلى مكانه المفضل تحت النافذة، يسترق السمع إلى حديثهما دون أن يكتشفه أحد. كان حديثهما موجزاً. لم تكن راغبة في الدخول بحوار طويل معه. «لا زواج»، إلتقط العبارة وخزنها في ذهنه لفترة طويلة كافية لأن تجعله يسمعها تقول بحدة، «وعلى أية حال من قال أنه لك؟ إنه لا ينتسب إليك». وخرجت.

كانت هنالك حركة كثيرة في تلك الليلة، مع خروج ودخول لكارين والمرأة الأخرى. شيء ما كان يُعد لكنه لا يعرف كنهه. ثم في الصباح التالي، جعلت المرأة مصرا تضطجع على ظهرها وراحتا تدوسان على كل جسدها. وكأن كل ذلك غير كاف، جعلتاها تجلس فبخرتاها بالهيل ثم وضعتا لها تحميلة من القرفة والمر. وبعد ذلك جعلتاها تشرب سائلاً من نقيع جذور ونباتات من المعروف أن لها قوة في الإجهاض. وفوق ذلك، غرزت إحداهن قضيباً معدنياً في أحشائها مما أدى بمصرا لأن تقوم بضجيج مخيف.

شفيت مصرا في غضون أسبوع. كانت واهنة. إعتاد أن يفكر، أية امرأة كارين هذه! تحرث الفضاء بين زوج مضطجع على قفاه من قبل أن يولد عسكر، وبين مصرا التي كانت جروحها طرية وأن ذاكرتها عن الألم كانت من أجل ذلك بالغة الحدة. ولأنه يحب اللهو، وعلى الرغم من أنه كبير بما فيه الكفاية لأن يجري أسرع منها، ركب عسكر على ظهرها وهي تمشي ذاهبة آيبة، مستمتعاً بعثوره على شخص صبور وعطوف وكريم مثلها.

ها هو الآن. بعد سنوات. في منزل هلال وصلاتو بمقاديشو.

Twitter: @ketab_n

ورأى طفلاً يحبو - كان يمكنه أن يرى ذلك على بعد مسافة قصيرة. ثم وقف الطفل على قدميه وسار قليلاً، مرتعشاً، ساقاه غير ثابتتين، مرتبكاً؛ سار لنصف متر وسقط على مقعده ولكنه قام في الحال وسقط ثانية، ولكن هذه المرة إلى الأمام؛ كان فمه، حين عاد إلى عسكر، قد تلطخ بالتراب. لكنه لم يبك. استمر يسقط وينهض، دون أن يكل، ودون أن يؤذيَ عضلة له أو يكسر عظما. وسمع صوت أحد ما (لم يكن يستطيع رؤية الشخص - ولكن الصوت يعود لامرأة) قالت: «يسقط الأطفال دون أن يؤذوا أنفسهم لأن بعض الملائكة تحرسهم إذ يضعون أنفسهم بين الطفل والأرض الكونكريتية، ليكونوا كالفراش الذي يسقط عليه الرياضيون الذين يسقطون من ارتفاعات عالية حالمين بكسر الأرقام القياسية». وتذكر معلم الرياضة في المدرسة وهو يقول له مؤخراً: «إنتبه يا عسكر وأنت تقفز عالياً. عليك في هذا العمر أن تحتسب لكل سقطة، كي لا ينكسر لك عظم».

راح عقله يتجول - شاهد وهو مندهش إمرأة على «أربع»، تزحف لاهية نحو الطفل، و، من الخلف تبعها رجل باشتهاء. لم يكن عسكر مهتماً إن كان الطفل طفلهما. فذلك ليس من شأنه. سأل نفسه سؤالاً: أهكذا كان العم قورح ثم عوضان قد أغويا مصرا في المرة الأولى؟

تخيل: خادمة، مبللة حتى مرفقيها بقذارات سيدها، خادمة تحبو على أربع، عجيزتها عالية وواسعة بارزة. ويأتي السيد من الخلف ويتلقفها. كم رأى من الأفلام التي تغتصب فيها الخادمات من قبل مخدوميهن؟ أو سكرتيرة من قبل رئيسها؟ كم رأى من القصص التي تغتصب فيها العبدة من قبل السيد الجنوبي من خط - ديكسون؟ هل جعلها عوضان تقرأ القرآن وبينما كانت مشغولة في البحث عن معنى الكلمة، أدخل عضوه فيها؟ غزت أفكاره الكثير من شناعات الأثيوبيين. وليس كل المغتصبات من الخادمات، بل منهن عشيقات وعاهرات. الرجل في كل تلك القصص هو «الآخذ»، والمرأة هي الضحية. «لماذا، إن لم تكن المرأة أمك، أو أختك أو زوجتك، فهي عاهرة»، هكذا قال له أحد زملائه. وفكر عسكر، أية شوفينية

Twitter: @ketab_n

مرعبة هذه! النساء ضحايا في كل القصص التي فكر بها. مصرا. شاهراويلو. وحتى كارين. هي الروح امرأة - يُضحى بها، ويذنب إزاءها وتظلم.

كانت كارين روحاً متفانية ويثق بحقيقة كل ما أخبرته به عن مصرا، وثق بحقيقة استسلام جسد مصرا من أجل إنقاذ روحها - مفدية إيمان المقاتل من أجل سلامتها.

(٤)

لماذا أسلمت الجسد الذي عرفه أفضل مما عرف جسده سفاحاً؟ لأسابيع وعقله يشعر بالذهول من فكرة أنه كان جزءاً من الجسد الذي منح سفاحاً. سأل خاله هلال، «كم من جسد الطفل، أو من جسد المرأة فيما يتعلق بذلك الأمر، يمكن أن يكون له أو لها؟» وقد أجاب هلال، «القليل جداً». ولكن حتى هذا لم يطفئ نار الاشمئزاز المحترقة في داخله. تساءل الخال هلال إن تكن خيانة مصرا، وفق رأي عسكر، يمكن مقارنتها بالمرأة التي لم تكن مخلصة لزوجها؟ كلا، كلا، لقد كانت أكثر ما تشبه الأم التي جلبت العار على رأس ابنها - مباشرة بحضور ابنها. كيف يسلم الواحد جسداً ليس ملكه؟ ولكن أية روح هناك تستحق الإنقاذ؟ كان النهار عالياً والشمس تسلقت خطوات الزمن.

قالت صلاتو، «من الممكن أن كارين لا تقول الحقيقة».

فرد عسكر، «ربما».

فاقترحت صلاتو، «وربما لم تكن قد عرفت مصرا جيداً».

أومأ عسكر برأسه.

قالت صلاتو، «تقتل الحروب الصداقة مثلما تحيي أشكالاً أخرى من الثقة والاعتماد المتبادل، ألا تتفق معي يا هلال؟ إلا تتفق معي يا عسكر؟»

لم يرد هلال على ما قالته صلاتو، وأومأ برأسه صامتا.

Twitter: @ketab_n

قال عسكر، «صحيح، كانتا من قبل أفضل صديقتين في العالم. لبعضهما البعض، ولي أيضا».

قالت صلاتو، «حسناً، ها أنتذا».

ثمة سؤال فرض نفسه على عقل عسكر: كم من جسد الإنسان يمكن أن يقال أنه له؟ قال جزء منه، الإنسان سيد، إنه سيد جسده.

ثم قال هلال عند ذاك، «أما كان من الأفضل أن يطلب منها سرداً لحياتها قبل أن يدينها كلياً؟ أليس كذلك؟ هي، التي كانت يوماً عالمه الوحيد؟»

وفي صمت، استمر عقل عسكر يرتاد الخطوط ذاتها التي عليها أفكار هلال - مصرا، التي كانت عالمه الوحيد، محتوى ومصدر أسراره، الإنسان الوحيد الذي وثق به والذي اطمأن إليه؛ هي التي ذراعها، كبير مثل أي شيء لمسه أو رآه، امتدت عالياً وأشارت إلى السماء بأصابع قصيرة، وأسمتها؛ الأصابع ذاتها التي نظفت وجهه أو جففت أنفه وكانت لها الرهافة كي تشير إلى الأرض التي جلست عليها، أفكارها، كالبندول، تتأرجح بين السماء (عرش الله؟) والأرض (مغذية الإنسان؟) ثم نفسه أو نفسها. إنها هي التي تعلم كيف يعين ويسمي الأشياء والناس، هي التي ساعدته في أن يضع نفسه في مركز العالم - عالمها!

كانت تسأله، «أين السماء؟»

فيشير نحو السماء.

«والأرض، أين الأرض؟»

فيشير إليها هي.

«الأرض، أقول، أين الأرض؟»

وليس إلا بعد عدة محاولات حتى يعرف مكان الأرض الصحيح. ثم ماما، أين ماما مصرا؟ وكانت تشير إلى نفسها، إصبعها الصغير تضعه بين نهديها وهي تقول «هذه أنا». ولسنوات عديدة وهو يعاني من صعوبات جمة

Twitter: @ketab_n

في تلفظ الحروف الحلقية الصومالية بصورة صحيحة، لأنه تعلم هذه الحروف عن طريقها بأسلوب خاطئ؛ ولعدة سنوات كان يسيء تلفظ الحروف الأولى للكلمات التي تقابل «السماء» و «الأرض» في اللغة الصومالية - تماماً كما تفعل هي؛ ولسنوات عدة، أيضاً، تذكر عبارتها المفضلة: «فلتبق وحدك!» كانت تقول ذلك حين تضيق ذرعاً به لأنه لا يكف عن البكاء أو لا ينام وهي تستخدم هذه العبارة مقدمة لامتدادات غير سعيدة. ولأنها قررت أن تخرج من العالم، فلسوف يتهشم أمامه، ولأنه وفي للوصفة، سينفجر بالبكاء في اللحظة التي تبتعد فيها عن نظره، عن عالمه، لتدخل في عالم لا يمكنه الوصول إليه، عالم لم يتآلف مع أصوله. في أحيان، كانت تبتعد لتختبئ خلف أول جدار وتصغي إليه وهو يعبر عن نفسه بنوبة بكاء، خداه رطبان من الدموع، كعباه يؤلمانه من الدق على الأرض المرصوفة؛ وكانت أحياناً تعود إليه بعد غياب طويل حين يكون قد تعب ونام؛ وفي أحايين أخرى تعود إليه لتعابثه وتلاعبه، وتدغدغه وتجذبه إليها بقوة، مخاطبة إياه بتودد، وتناديه «يا رجلي»، وتخاطبه «يا حبيبي».

قرأ الملاحظة مرة أخرى، *مصرا هنا في مقاديشو*.

سأل نفسه، هل هذا يعني أنني لابد أن ألمسها، أقبلها، أعانقها وأضمها إلى صدري؟ واستغرب مع نفسه كيف يتحول الاتصال الجسدي بشخص لم يعد المرء يحبه إلى أن يكون مثيراً للاشمئزاز؛ فالشخص المراد لمسه وتقبيله ومعانقته، أمسى الآن مكروها. لماذا نحب الملامسة، كالحيوانات، لشخص نحبه؟ لماذا نتجنب الاتصال حينما يكون هذا الشخص هو أكثر من نكرهه؟ الجسد يتحدث، الروح تطيع - أليس كذلك؟ الجسد يرفض الاتصال بحب تحول إلى خدر لا إحساس به - أليس كذلك؟ ولكن أن يلمس مصرا، أن يُقبلها، أن يعانق امرأة خانت ثقته - هنا بمقاديشو - عندما يكون على المرء أن يتخذ قراراً حاسماً، مثل أن ينضمَّ أو لا ينضم إلى جبهة التحرير او يختار مسيرته في العالم الأكاديمي؟ أليس من الأفضل له أن يكتب إلى الجبهة مبدياً رغبته الجارفة في الانضمام إلى

Twitter: @ketab_n

صفوفها؟ قد يريح ضميره بهذه الطريقة، ويعيش بسلام معه. لن يعرف ذلك الارتباط لا أعضاء لجنة المقابلة ولا الخال هلال، وأن ذهابه أمامهم سيحل الأغلال التي تقيد ضميره. لو قتل دفاعاً عن بلاده، فلسوف يموت شاباً متصالحاً مع روحه - ولذلك فهو شهيد.

وإن التحق بالجامعة؟ ما كان يقلقه، أنه في الجامعة من المحتمل أن يغرق أفكاره في مسارب التعليم العالي وقد يفكر حينذاك أن الأمر لا يستحق أن يقاتل حتى الموت من أجل تحرير الصحراء نصف القاحلة التي كانت عليها الأوغادين. كان متيقناً أن من خلال الصداقات الحميمة التي يتميز بها زمنه الذي يعيش فيه ثمة الكثير من الناس الذين سيثنونه عن الموت من أجل قضية وطنية، مثل قضية شعب الأوغادين. كان يعرف أن الكثير من الصوماليين يكادون يتميزون من الغيض حينما يتحدى أحد حجتهم. ألا يزوده التعليم الجامعي بأسباب أفضل وأكثر إقناعاً؟ ألا توفر له براهين إقتصادية وسياسية وثقافية؟ ألا يكون في وضع أفضل للنقاش ويكون اطلاعه أوسع؟ ولربما كان سيكتب كتاباً عن تاريخ الأوغادين ويوثق ما عثر عليه بخلفية مادية من الموروثات الشفاهية للسكان. إذن هل سيحمل السلاح؟ أم يلجأ إلى القلم، ويستثمر طاقاته؟

إن تكن مصرا في مقاديشو، فمن غير المحتمل أن تعود إلى مشهد خيانتها. إن ماضيها، الذي أمسى اليوم غير مشرِف، مثلما كان اسمها، سيمثل أمامها، تماماً كالطفل العاري. ولكن بدل أن تلمس وتلاطف طفلها الجديد لسوف تتجنب الاتصال به. وتمنى أن تنتفخ بالخطيئة، وتعاني من لسعات العار. وتمنى أن يتجمد نخاع عظامها، من البرد الذي تتعرض له. ودعا عليها أن تبقى ملعونة وبلا مغفرة أيضاً. ودعا الله، ليت عروق رقبتها تتقطع، مثل أي خائن، وليت دمها، من الروع، ينفر من عينيها ويعميها. ليت مخاطها يجف وليت الألم الذي يتسبب عن ذلك يؤدي بها إلى الموت. وليت الأرض ترفضها، وعسى السماء أن تغلق أبوابها. لو كانت فحسب، قد خانت!

Twitter: @ketab_n

لقد آلمه أن يتذكر أنه قد اقتسم الحياة معها مرة، ويجعله ذلك يشعر بالحرج أن يتذكر أنه كان جد قريب منها، وأنه كان فخوراً بها. في وقت ما كانت تحمله، كالماء - ترفعه إلى الأعلى وتقذف به، كأنها موجة متبوعة بأخرى وأخرى وأخرى. لقد ذاق الملح الذي في دموعها، لقد شم حيضها. كان يناديها «ماما» قبل سنوات. هل يتوجب عليه أن يحل كل الروابط التي تجمعهما سوية؟ هل يمكنه، كالزمن، أن يقطع كل الروابط بينهما؟ آه، كم تمنى لو يقدر أن يعلق «الزمن» بمشبك مثل ثوب مبتل، وكم رغب لو أن المطر لن يتوقف كي لا يجف الثوب أبدا؛ أجل، كم رغب لو أن «الزمن» يتوقف، كي لا يكبر ويغدو رجلاً - رجلاً وحيداً، وستقول له مصرا، «أنت ونفسك!» كلا. حين كان طفلاً، لم يرغب أبداً في أن يكون وحيداً، منعزلاً، لأنه لم يكن يستطيع أن يجد نفسه داخل نفسه، بل داخل الآخرين فحسب، والكبار منهم بخاصة، مثل مصرا وعوضان، ممن كانا يحللان المواقف ويخبرانه بأشياء ربما من المستحيل عليه معرفتها لو لم يعرفها من خلال خبراتهما. كانت عبارة مصرا، «أنت ونفسك!» تفوح منها الرائحة الانتقامية ذاتها لشخص يرمي خارج منزله، حيواناً مدللاً كان يرعاه ويغذيه لسنوات، حيوان مدلل يتوقع منه أن يعتمد على نفسه. في صباح ما، وبعد أن بلل الفراش في الليلة الماضية، أعادت عليه عبارتها «أنت ونفسك!» (كان ذلك حين كان عمره أقل من خمس سنوات ونصف) وتظاهرت بأنها تريد الخروج.

قال، «إنتظري، إنتظري يا مصرا».

بدا لها الصوت كأنه صوت بالغ فانتظرت. وكذلك رأت أنه قد لف شالها حول كتفيه، ليبدو تماماً كأنه امرأة؛ وراح يقول، «حين أكبر وأغدو رجلاً..». ليفهم منه، أنه تكلم لوقت طويل، رغم أنه توقف فجأة، لأنه شك في أنها ربما لم تنتبه لما كان قد لف به كتفيه.

كان صوتها مداعباً وودوداً، «وأنا عجوز...، أجل، حين أغدو مسنة درداء، ولا أحد يعينني، وأنت رجل، وأنا عجوز لا حول لي ولا قوة...!

Twitter: @ketab_n

في يوم ما، حين تكون أنت شاباً. . . وأنا عجوز متهالكة، لا أصدقاء لي. . .»، وكانت تقف على بعد بضع إنجات منه. . .

فقال، بحزم، «كلا»، مشيراً إلى أنها قد لخبطت خططه. فكرر، وهو يهز رأسه كأنه يقول، «كلا، ليس هذا ما قصدته».

«أي لا؟ لم لا؟»

سكت. فكرت أنها ربما أزعجته كثيراً، ولذلك مدت له يدها فأخذها بصمت. تعانقا بلطف ولم يتكلما. ثم حين حاول أن يطوقها بذراعيه لم تكتمل الدائرة، ولم تتلامس الأصابع، لم تلتق، عندها قال نصف لاه نصف جاد، «لا، لا، لا». فنظرت إليه ورأت أن الشال قد انزاح إلى الأرض مطوقاً قدميه، وأن الوجه الذي برز كان نصفه لرجل والنصف الآخر لطفل.

«أية لا؟ لماذا لا؟ما الذي تريد أن تخبرني به يا رجلي؟»

مرة أخرى عاد صوته ليكون كأنه صوت لرجل بالغ، «حين أكبر وأكون رجلاً. . .أريد أن أقول لك إن كان ذلك يهمك أن تسمعيه. . . يا أعز الناس يا مصرا. . .»، وابتعد ليكون أبعد من أن تصله يداها.

«نعم؟»

«لسوف أقتلك».

حدقت فيه بصمت لوقت طويل. «ولكن لماذا؟»

«كي أحيا، لابد لي من قتلك».

«تماماً كما تقول أنك قتلت أمك؟»

«تماماً مثلما قتلت أمي - لأحيا».

(٥)

سأل نفسه سؤالاً فيما إذا، أراد أن يحيا، عليه أن يقتلها في مقاديشو - فها هو يملك الأسباب المقنعة بالنسبة له ليتم ذلك.

Twitter: @ketab_n

الفصل الرابع

(١)

بدأت تتحاور مع الذوات التي تتركب منها، وحين انتزعت نفسك من النفوس الأخرى، وقفت أمامك هناك، مثل شبح حقيقي، الذات (التي فيك) والتي لم تستحسن أبداً حديثك أو لمسك لمصرا، وإلا ضعت في كثافة عناقها. لوقت طويل وذواتك تتناقش مع بعضها البعض، كل واحدة منها تطرح مجموعة حجج لاقتراحات قدمتها الذوات الأخرى من قبل. ولأنك لم تقرر ولن تقرر وقفت أمام المرآة ورحت تدرس تلك الأركان من ذاتك التي يمكن أن ترى بالعين المجردة واستخلصت أن مصرا لن تتعرف عليك، حتى لو رأتك في الشارع في ذلك اليوم. لقد ارتديت عمرك على وجهك، مثلا. وتتحسس يدك نمو يوم على ذقنك بينما تتساءل إن كان يتوجب عليك أن تحلق ذقنك. وبعد لحظة، كنت على بساط جذامتك الصغير، تراقب عوضان يساعد مصرا في قراءة مستقبلها في لهيب النار التي أضرمتها. آه، لو. . . !

قلت لنفسك. لو أنك تلتقي بمصرا في غرفة عتمت لذلك الغرض. لو لم تكن ثمة مرآة تفضح أسرار عذاباتك الداخلية؛ لو حانت الفرصة وتلامستما في الظلام؛ لو أنكما اعتدتما على بعضكما بينما لا تزالان في الغرفة المظلمة؛ لو أن كلاً منكما يزعم أنه شخص آخر، حتى يشتاق الواحد منكما ويريد معرفة الآخر؛ لو أن كل واحد استطاع تلفيق قصة تتلاءم مع

Twitter: @ketab_n

الهوية المفترضة من قبلك (لم تكن تعلم، حينئذ، أنها دخلت البلاد متخفية!)؛ لو أنكما تمكنتما أن تتحدثا فحسب مع بعضكما البعض دون أن يتعرف الواحد على الآخر، ولا يتذكر أي شيء قد يولد الشكوك، أي شيء قد يثير العواطف الكامنة، أي شيء قد يحرك ذكريات نائمة لحياتكما معا.

ولو أنكما تقابلتما في وضح النهار، بحضور أناس آخرين، حين يكون، دعنا نقول، هلالاً موجوداً، أو أحد أصدقاءك، أحد معارفك أو أحد جيرانك؟ فأنت متأكد أن ثقتك ستكون مبعثرة حتى أنك ستتداعى إلى قطع؛ وفي أفضل الأحوال ستسقط هيبتك عند قدميك كأنها شال رماه لابسه؛ فمن المحتمل أن لسانك، القصير مثل ظل منتصف النهار، قد ينعقد وينهار متهالكاً في القيلولة المبللة بالعرق للحظة السبات ولن تكون قادراً على الكلام.

فكرت، أن الذي تحتاج إليه كي تواجهها به كان براءة تحمي بها نفسك. وبدلاً من ذلك يمكنك استخدام النظرة الجبارة التي ولدت معك - تلك النظرة «الكلية» التي لا تقاوم ولا يمكن تفاديها، تلك التي قد تتلقف خطيئتها وتركز عليها. ألهذا شعرت بالراحة وأنت تقف في الصمت المسدل للساعة المعتمة، تقف، كي نكون دقيقين، في ملتقيات ماضيك وحاضرك؛ تقف بثبات، على الرغم من الفيضان الذي يكتسح مستقبلك! «أنت تتصرف كأنك زوج تخونه زوجته»، هكذا علق خالك هلال، «كأنك غير قادر على لمس الجسد الذي خان ثقتك». من غير المعقول أنك ستتجنب أي اتصال جسدي بالمرأة التي يمكن حقاً أن تقول لك «حين يلمسني كأنه يلمس نفسه!» رفعت حاجبيك كأنك متعجب، ولا عجب! إذ ها هو يقف أمامك، أنت (آخر) منتصبا كأنه ينتظر، من المؤكد أنه أكثر شباباً وأكثر ثقة. لم يكن لديك ما تفكر به لتقوله - لم تتحدث لذاتك الأكثر شباباً. بل بدلاً من ذلك، ابتعدت عن المرآة وحدقت أمامك.

كان العالم مفتوحاً كالحقل الذي يمكن أن تراه من النافذة و...

Twitter: @ketab_n

(٢)

كنت عجوزاً وراح جلدك يترهل فغيرته - أي، أنك أبدلت جلدك القديم بآخر، كان يعود لامرأة شابة. كيف حدث هذا، أو لماذا، كان شيئاً أبعد مما تدركه. لماذا، مثلاً، ترتدي أولاً قناع وملامح رجل عجوز، لترميها في اللحظة التالية فتلبس وجه ومظهر امرأة شابة؟ أو لماذا، من أجل ذلك، تلجأ إلى المسخ، لتغير الوجه والملامح والعمر والجنس والتعابير أيضا؟

على أية حال، فإن علامات ترهل جسدك بدأت تظهر أولاً في الأيدي والأصابع التي انكمشت إلى حجم أصابع طفل صغير. المنطق من وراء كل هذه التحولات المسخية كان معتماً جداً بالنسبة لإدراكك غير المتنور للأشياء حتى أنك لم يكن بمقدورك أن ترى الأشياء بوضوح. كانت ساقاك قد تصلبتا حتى أنك لم تستطع النهوض أو السير أو تقف على قدميك - الساقان ذاتهما قد تقلص حجمهما إلى حجم قدم القرد. وكنت في السبعين من العمر.

بعد ثانية، كنت تراقب جسد فتاة شابة وهو يفكك، أمامك - كل طرف وجزء وعضو عرض عليك أولاً لترى ملاءمته. وفي كل مرة تبدي موافقتك أو عدمها بإيماءة من رأسك أو هزة منه. كنت مستغرباً، لماذا كانت الفتاة موافقة على التبادل. وقد قيل لك أنها كانت مشمئزة من جسدها الفتي - ذلك الجسد الذي كان جميلاً ورقيقاً ومغرياً. وقد أُخبرت أن أباها قد اغتصبها، وقد اشتهاها أخوها الأكبر وأن أمها وشقيقاتها يحسدنها. وأُخبرت أنها لا تستطيع السير في الطريق دون أن يتعرض لها أحد ما، ودون أن تشعر أن عيون الشهوة تنفذ عبر جسدها إلى قرارة روحها. لقد قيل لك أنها تشعر بكونها دريئة وأن تطفل العيون يخترقها. ولماذا كانت مهتمة بعيونك؟ قالت، «لأنها نوع من الروح أكثر نضجاً» وكانت واقفة أمامك، نصفها عجوز ونصفها الآخر شابة، نصف أنت

Twitter: @ketab_n

والنصف الآخر. إلتحمت أجزاء من جسدك جيداً مع أجزائها.

لاحظت أن رأسها كان أصلع وناعما، مثل البصل المقشر، وفي متناول يدك. وددت لو تمد يدك وتلمسها، ولكن من الواضح أن ذراعيك لم تكونا مثبتتين. وأيضاً، لم تحب المشاهد القبيحة التي أمامك بعد أن تمكنت من الرؤية جيدا، ولم ترغب في أكل الطعام المعروض عليك، بعد أن غدت لك شهية فتى. سألك أحد ما، لماذا قبلت إذن بالتبادل؟ فقلت، «لابد أن تعرف، أن مثل هذه الأشياء المستحيلة لا تحدث إلا في الأحلام». وكنت صامتاً، تفكر بتركيز.

حتى تلك اللحظة، كنت أنت والفتاة قد أحسنتما التبادل وكنتما منسجمين. ولكن ها قد حصل توتر. بقيتما كلاكما مترددين ومتأملين، ولم يكن أي أحد منكما راغباً في عرض الموافقة النهائية حين جاء دور مبادلة الفم والشفاه. لم تكن تعلم أية لغة كانت تتكلم؛ ولم تكن هي تعرف أية مقاطع أو حروف أو أشكال للتأتأة تخرج من فمك وشفتيك. كنت قلقاً من مواقفها السياسية؛ أما هي، فكانت تتساءل إن كنت محافظاً أم لا. سألت نفسك في أية قارة كانت قد ولدت، وفيما إذا كانت من عائلة غنية، وفيما إذا كان لديها الكثير من الأصدقاء - ومن أي نوع هم. وسألت نفسها فيما إذا كان لديك ضمير نقي أم رديء، فيما إذا كنت محملاً بالخطيئة وفيما إذا كانت لك حياة سعيدة. هذه الأسئلة وهذه الأفكار، غير المستقرة حتى الآن وغير المدعاة وغير المنطوقة، كانت تحوم في الهواء، لأنها أفكار غير مجسدة، لا روح فيها، مما جعلك ترغب في أن تعود كاملاً، أن تعود إلى نفسك ثانية، شاب في السابعة عشرة من العمر لا أكثر. كم هو غريب أن تحلم بأنك تحلم؟ أو أنك كنت ببساطة تواجه ذواتك المتعددة، التي تتألف من رجل سبعيني وامرأة، ولا ننسى الذات التي افترضت حمل هويتها حين صحوت؟

شعرت أن ثمة شيئاً ما (فيك) لم يتم، كأنك قد صنعت نفسك على عجالة وخشّنت ملامحك دونما ضرورة. وعلى أية حال، كان لديك شعور،

Twitter: @ketab_n

أن وجهك قد لاءمك على نحو غير عادي. وماذا عن هوية ذات(ك) الأكثر جدة؟ لقد كانت مثل نقطة في البعيد افترضت ملامح يمكنك التعرف عليها، لتصبح مرة رجلاً .وأخرى امرأة - أو حتى حيوان، إن تصوراتك للذات الجديدة تتغير مع بعد وقرب النقطة من الوعي. ثم تلاشت المرآة من أمامك مباشرة وحل محلها الجدار الذي كان هناك. وظهر على الجدار أشباح يتحدثون مع بعضهم البعض، البعض منهم يضحك والبعض الآخر يصغي وثمة من كانوا متماسكين بالأيدي أو متلامسين.

سألك أحد الأشباح، «وأنت - من أنت؟»

فأجبت، «أنا الآن في جسد أجنبي».

«وما يعني هذا الآن؟»

سكت. وبعد ذلك قلت، «يعني أنني في بلد أجنبي».

«نعم؟ أكمل».

«كنت مرة شاباً - لكنني فقدت هويتي. لقد مسخت إلى رجل عجوز في السبعين، ثم إلى فتاة شابة. أنا شيخ سبعيني أرتدي وجه فتاة شابة وأفكر بعقلها، رغم أن باقي جسدي، ذاكرتي الموضوعة في غير محلها، إن شئت، وهي تعود جزئياً إلى رجل ثالث، هو بالتحديد شاب في السابعة عشرة من العمر».

إهتز الجدار الذي أمامك بالضحك وانضم جميع الأشباح للسخرية منك، البعض منهم راح يقلد صوتك، وراح آخرون يهزؤون من تذمرك. لم تكن تعرف ما الذي تفعله؛ شعرت بالضيق ورحت تنظر إليهم من شبح لآخر. وفي النهاية، لمحت عيناك وجهاً مبتسماً وكان يعود لرجل عجوز. كان يقول، «وماذا تعتقد أن يكون سبب هذا العذاب؟ ما الذي فعلته؟»

قلت، «وضعت أمي لعنة على رأسي».

إتخذت نظرة الرجل العجوز مظهراً حاقداً، «ما الذي فعلته كي تستحق لعنتها؟»

Twitter: @ketab_n

«أنا. . . أر. . . أنا. . ». ، هكذا بدأت القول لكنك سكت.

وعلق هو، «الأمهات هن البداية للإنسان، يلدنه، ويمنحنه البداية. لابد أنك فعلت شيئاً لا يغتفر. من المؤكد. وإلا، لماذا وضعت اللعنة على رأسك؟ لماذا؟ لماذا؟ أتخيل أنها قد عانت الكثير من القرف: في البداية تحت والدك ومن بعد ذلك أنت، ابنها. يا لها من مسكينة أمك. لقد حملتك، مثل بركة، لأشهر، في داخلها، وقد أحبتك على أنك طفلها لسنوات، ثم تحتم عليها أن تلعنك. لابد أن الأمر كان مؤلماً لها».

قلت لنفسك، من الواضح أن هذا الرجل العجوز قد أساء فهمك. ربما كان حرياً بك أن تخبره أن المرأة لم تكن في الواقع أمك بالمعنى الذي فهمه، وأن المرأة لم تلدك كما تفعل الأمهات عادة. بكلمات أخرى، أن هذه المرأة لم تكن موجودة حين بدأت في شكل نطفة، نمت وعاشت وتطورت معتمدة على نفسها داخل جسد امرأة أخرى. ولكنك أحببتها كما لو أحببت أمك - لو أنها عاشت بعد ولادتك.

كان الرجل العجوز يقول، «علمت عن شاب كان ملعوناً من أمه لأنه رفض أن يحملها على ظهره حينما كانا يعبران الجدول لأنها لم تكن تعرف السباحة وتخشى الغرق، بينما كان هو يعرف السباحة. استولى الغرور على عقل الشاب، كانت رغبته في المرأة كامنة في حقويه وأجبره خفق أجنحة الحب إلى أن يهرع إلى حيث مكان المرأة التي تلبي شهوته. تخلى عن أمه، العجوز التي كانت كسيحة ومسنة وعاجزة، تركها لمصيرها، غير مبال لتوسلاتها، «ساعدني على عبور الجدول فحسب كي لا أغرق». لكنه اندفع بجنون. ولم يسمع أحد عن الأم شيئاً بعد ذلك. ربما افترستها الوحوش. أو ربما أنقذتها ملائكة الرحمة. ولكن سمعنا عن الشاب، ورأيناه مرة بعد أخرى».

تساءلت، «ما الذي حصل للشاب؟»

ظل يشكو مرة بعد أخرى من سماع ضوضاء منشار دوار في رأسه. سمع تلك الضوضاء في الليل وسمعها في النهار، سمعها في منامه وسمعها

Twitter: @ketab_n

في يقظته. حتى جن في النهاية. وسألته، والمرأة التي أحبها؟ ما الذي حصل للمرأة التي أحبها؟ لقد عزلتهما ضوضاء المنشار الدوار: لم تستطع تحمل مقاسمة الفراش مع رجل يسمع دائماً شيئاً لا تسمعه. ثم، أنها ابتعدت عنه لأنها آمنت أن الشاب كان بلا إحساس حين تعامل بلامبالاة إزاء توسلات أمه وعليه فلن يعبأ بها بعد اسبوعين من شهر العسل. وهكذا اتبعت نصيحة الناس ورفضت كل ما قدمه لها. وصار منظر هذا الشاب قبيحاً. وكان بإمكانك أن تراه يهيم في شوارع المدينة، متخافق الأطمار، يبحث عن طعامه في صناديق قمامة المدينة كالمشردين والكلاب الجائعة. وفي أحد الأيام، وتماماً في وسط أكبر الأسواق، أضرم النار في أطماره. فاحترق ومات، دون أن يهب أحد لنجدته، وبقيت جثته مرمية لعدة أيام. إن لعنة الأم تؤخذ بجدية أكثر من لعنة الأب. إسمع ما أقوله لك. إن بركة الأم أرفع منزلة عند الله من بركة الأب. الذي لا أعرفه والذي لا يعرفه إلا الله فيما إذا كانت اللعنة التي حطت على رأسه من أمه هي التي فعلت ذلك، أو رفض المرأة للزواج منه، رفض المرأة لمبادلته الحب. وإحساسي يقول إنها اللعنة. وقد يقول أحد ما أن عزوف الناس عنه هو الذي أقنع المرأة الشابة وإلخ إلخ. «بلى، أيها الشاب. إن لعنة الأم هي أثقل حمل يمكن أن يحمله إنسان على رأسه. فلا تسع إلى ذلك. هذه نصيحتي لك».

صمت. ثم تحول الجدار إلى بقعة أخرى في الفضاء الواسع الذي يحيطك. وكان هناك، في السراب البعيد، مهر بلا فارس ولكنه مسرج، بارز كأنه واحة. تنهدت - مستريحاً. كنت تعرف أن مصرا قد عادت، وكنت تعرف أنها لم تضع، حتى الآن، لعنة على رأسك.

(٣)

قلت مرة، أن طفولتك، عدا النشاطات المتعلقة بمصرا أو أحلامك، هي سلوان كبير. لم تكن تستطيع تذكر الكثير، هكذا اعترفت؛ لم تكن

Twitter: @ketab_n

تستطيع تذكر كيف كان الناس، رغم أنك يمكن أن تسترجع بعض الأسماء، التي مهما فعلت لا تستطيع أن تضع لها الوجوه؛ لا تستطيع أن تتذكر فيما إذا كانت أقدامك تؤلمك إذا وضعتها في حذاء صغير الحجم جدا؛ وفيما إذا كان الطفح على جسدك المصاب بالحصبة يتفجر من تلقاء نفسه أو تضغطها أنت عابثا. بمعنى ما، حسبت نفسك طفلاً منعزلاً وتقضي جل وقتك وحيدا. وعدا وجودك مع مصرا، وجدت صحبة الآخرين «تتطلب الكثير ومملة، أو هي بإيجاز، لا حياة فيها». كنت تقف إلى جانب الشجرة، التي ولدت بعد يوم أو أثنين من ولادتك، وتتطلع إلى فروعها وهي تتأرجح في الريح، شجرة أطول منك بكثير، وأنت تسقيها. ثم تأخذ حفنة تراب من الأرض التي حولها وتسف منها لقمة، بعد أن تأكدت أن مصرا لا تراقبك، معتقداً بالطبع، أن سف التراب سيجعلك في عالم الخير، وأنك ستنمو أطول وأقوى، تماماً مثلما الشجرة. ومرة أخرى، وأنت وحدك، حين تعلمت كتابة اسمك حفرته سراً على لحاء الشجرة، إسمك الذي زرع مع الشجرة في يوم واحد.

عزلتك الأحلام. شاركت الآخرين في كل شيء إلا أحلامك. كانت مصرا تعرف كل أسرارك، لمست كل بوصة من جسدك وشعرت بقلبك ينبض أيضا. نمتما على الفراش ذاته، وتحت الغطاء ذاته واشتركتما في الضغوط الجوية ذاتها والهواء والأوكسجين. إلا أحلامك. حتى في الليل وأنت نائم، في الظلام، كانت أحلامك المبجلة هي التي عزلتك؛ الأحلام التي تمتد بينكما؛ الأحلام التي كانت (بالنسبة لك) ترتدي «عباءات ماء، معاطف نار، وبدلات خضر، وملابس سخرة، مرة بهيأة امرأة ومرة بهيأة رجل». الأنهار التي في أحلامك تجري بعيداً عن الجداول في مصرا. بينما رأيت رفيقاً يشبهك تماماً يسير إلى جانبك في شارع خال، رأت مصرا رجلاً يمسك بيدها اليمنى، ورأتك تمسك بيدها اليسرى وسرتم ثلاثتكم باتجاه الغروب. إن أحلامك فاضت مثل دلاء الماء؛ وفي أحيان، كنت ترى الأنهار تحترق، وفي أحيان، كان الماء الذي في أحلامك يحترق؛ وفي

Twitter: @ketab_n

أحيان أخرى، تجعلك ثوراتك البركانية تتكلم في المنام، وكان بإمكان مصرا أن تسمع وتفهم الكلمة الشاذة التي سمعتها. وتطلب منك في الصباح التالي أن تخبرها بما رأيته في كابوسك. فلا تفعل. كأنك كنت تدعي أن أحلامك لك فحسب.

ولم تشركها بالحلم الذي رأيت فيه امرأة تغرق في النهر الموحل، إمرأة كانت تطلب العون، ونادتك بإسمك. هل تتذكر ما الذي فعلته؟ رحت تخوض إلى المكان الذي توشك أن تغرق المرأة فيه. ومددت ذراعيك وكأنك تنوي نجدتها. كانت أصابعك قد اتصلت في الحال بجسدها، وتكورت في قبضة ودفعت رأس المرأة إلى الأسفل فالأسفل - حتى ماتت.

جعلك الحلم تصرخ في المنام. فاندفع خالك هلال ليوقظك. كنت مبللاً بالعرق. واجتهدت كي تقنع خالك أن الأمر ليس مهماً، رويت له قصة مفتعلة. فقال لك أنه لا يصدق أنك رويت له القصة الحقيقية. وعند ذاك إضطررت إلى أن تقول الحقيقة. وسألك إن كنت تعرفت على وجه المرأة. وأصررت على أنك لم تعرفه.

قال، «كيف كان يبدو صوت المرأة؟»

أجبت، «كانت تتكلم وكأن ماءاً في فمها».

فشرح لنفسه، دونما ضرورة لذلك، «إن هذا لا يعني شيئاً، أليس كذلك؟ فالمرأة على أية حال، كانت تغرق. قلت أن النهر يختنق بالوحل، أليس كذلك؟ أم كان مجرد آسن؟»

قلت، «كان مالحاً وآسنا».

سألك، «هل تتذكر شيئاً آخر؟»

وهنا ثانية وقف الحلم بينك وبين خالك هلال واخترت أن تلف نفسك به ولا تشترك به مع أي شخص آخر - حتى هو. فانتظر متوقعاً أن تجيبه على سؤاله. من المؤكد أنه اندهش حين قلت أنك ظامئك.

Twitter: @ketab_n

أتاك بكأس من الماء البارد. وبعد أن شربت إعتذرت وأنت تقول: «أنا ظامئ كالأرض. بإمكاني أن أشرب ماء المحيط». فراح وعاد بإبريق ماء بارد. من الصعب أن يروى ظمأك. وعلى أية حال، ارتحت حقاً، حين تغير الموضوع بالضرورة - من حلمك إلى ظمأك.

(٤)

يقول الخال هلال أن حياتك كانت «جواباً على لغز خيالي يسأل على لغز حقيقي»، قال ذلك حين رفضت أن تكلمه أو تتمشى معه وصلاتو، زوجته، أو تأكل أي شيء غير الخبز والماء وأحياناً كأساً من شيء ما حين لم يكونا ينظران إليك - كان كلام خالك قد حرك كتيبة من الذكريات، كل واحدة منها ركبت، كأنها موجة، على قمة سابقتها. وخلال وقت جد قصير، تمكنت من عزل الحكاية التي حلمت بها عن تلك التي عشتها فعلاً وجربتها شخصياً، تمكنت من عزلهما كي لا تختلطان، ولا تكونان في الأرض ذاتها، مكررة القصة ذاتها على نحو ممل. ركضت المشوار كله دون أن تلتفت مرة لترى من سقط ومن بقي. ومصرا كذلك، بقيت في المشوار، دائماً في المنظور، موجودة دائماً - أماً، حنونة وطيبة. أما الأخريات فشريرات. إلا هي. كانت «أمك». ولهذا، كانت طيبة جداً.

و «الآن»! كلب يسافد كلبة. ثم رأيت فتى صغيراً يخرج من بيت وظهرت، في الحال من خلفه، امرأة - على الأغلب أنها أمه - تناديه أن يعود. كان من الواضح أن الولد غاضب وكان يرمي بيأس مجموعة من الحصى على الكلبين المتسافدين. ولم يتوقف عن رمي الحصى على الكلبين المتلاقيين على الرغم من أنه لم يصب الهدف مرة. واستطاعت المرأة في الأخير أن تمسك بذراع الصبي وتطلب منه أن يكف سائلة إياه، «ولكن ما الذي في رأسك؟»

قال الفتى الذي لم يكن قد تجاوز الثامنة، «ولكن يجب أن لا

Twitter: @ketab_n

يتسافدا. يجب أن لا يتسافدا، يجب أن لا يتسافدا. هذان الكلبان يجب أن لا يتسافدا»، قال ذلك نصف صائحا.

إنحنت المرأة ومسحت دموعه بطارف ثوبها. ثم لاحظت السائل الأبيض اللزج الذي يظهر بعد النوم على عينه اليسرى. بللت الحافة النظيفة من ردائها بلسانها ومسحت عينه. كان الولد قد هدأ. سألته، «ولكن لم لا؟» وكنت ترى الكلبين قد تحررا من بعضهما البعض وراحا يلعبان.

أجاب، «لم لا؟ لأن الكلبة هي أمه».

أخذت المرة يده لتقنعه بالذهاب معها إلى داخل المنزل قائلة له، «أعلم ذلك».

فقال غير مصدق، «أنت تعلمين أن الكلبة هي أمه؟»

فقالت، «صحيح، أعلم».

«وأنهما يجب أن لا يفعلا ذلك؟»

لم يرغب في الذهاب معها حتى تجيبه على تحديه. أخفى يديه خلف ظهره، وفي عينيه نظرة تحد، وعقله مستثار، وإن دعت الحاجة فإن جسمه مستعد للقتال من أجل ما فهم أنه خطيئة أخلاقية.

قالت المرأة، «الأمر مختلف مع الحيوانات».

)ربما لم تكن تعلم المرأة، ولم تكن أنت تعلم حينذاك، أن الولد قد تعلم في المدرسة أن البشر من الحيوانات، أيضاً - وأنهم حيوانات عاقلة، لها القدرة على الكلام. حيوانات راقية، إن شئت، كما قال المعلم.(

«أنظري»، كان يقول ذلك وهو يشير إلى الكلبين اللذين ترابطا في سفاد. «أنظري إليهما يفعلانها ثانية أمامنا مباشرة، حيوانات منحطة»، وراح نحوهما ليرفسهما، لكنهما رغم ذاك لم ينفصلا. ثم التفت بعد ذلك، نصف باك، إلى أمه وتوسل إليها، «إفعلي شيئاً يا أماه. أرجوك، يا أمي، إفعلي شيئا. لا تدعيهما يفعلانها».

Twitter: @ketab_n

استقبلت الأم توسلات ابنها بمزيج من الجدية والمزاج الرائق. فهي أولاً طردت الكلبين اللذين مازالا متصلين، ثم التقطت ابنها وقبلته لتقول له، «أنت مستحيل يا عزيزي. أنت مستحيل».

وكان هو يقول، «الكلاب والكلبات حيوانات منحطة».

(٥)

أنت صغير مرة أخرى، أنت في كالافو مرة أخرى، متذكراً حكاية حول رجل اصله من عدن، جمهورية اليمن الديمقراطية، رجل حين فاجأه زوار غير متوقعين وجدوا في حضنه دجاجة. لم تستوعب تضمينات الفضيحة تماماً. كان العدني واحداً من الشيوخ المفضلين لديك وكان جاراً وكنت مغرماً بالحلوى التي يقدمها لك كلما حدث وزرته. ولكن غالباً ما كان يُطلب منك أن لا تذهب إلى بيته وحدك. وكان يُطلب منك أن لا تقبل هدية منه - أبدا. لقد حذروك من رفقته («رفقة هي الأشد شراً!» كما قال عوضان.) لقد حذروك من أساليب الرجل الخبيثة. ورغم ذلك ذهبت، كباقي الأولاد الصغار الذين في سنك، ولعبتم في باحته الواسعة، وكنتم تقتطفون الليمون والفواكه الأخرى من بستانه مما أبهجكم كثيرا. ونمتم مرهقين، تحت ظلال أشجاره. وسبحتم في بركة مشروع مائه. كنتم تراقبونه، رجل في مثل سنه قوي مفتول العضلات، يشغل الماكنة أو يطفئها؛ كنتم تراقبونه بإعجاب كبير، نحيفاً وآسراً، يحب الناس ويحبونه.

لكنك تساءلت، «ولكن ما الذي كان يفعله بالدجاجة التي في حضنه، منتوفة الريش على فخذه العاري؟ ما الذي كان يفعله؟ ألا يتلطف أحد ويخبرني؟» كنت تتضرع.

قالت مصرا، «كان يفعل شيئاً خبيثاً، ذلك العدني الخبيث».

تساءلت، «أية أشياء حمقاء كان يفعلها ذلك العدني؟»

كانت مصرا تلح في أن تتجنب اختلاط هذا العجوز الأعزب الشرير مع

Twitter: @ketab_n

الأولاد الصغار: كيف اعتاد إغراءهم بالحلوى والهدايا الأخرى؛ كان قد اعتاد أن يهرع ويفتح بيته كي يدخله المتسكعون من كالافو بالإضافة إلى أولاد آخرين موسرين؛ وكيف كان يغوي ويدخل أحد الأولاد الصغار إلى غرفته بين الحين والآخر. وانزعجت كثيراً حين علمت بما كان يفعله العدني، حتى أنك مرضت. أصبت بالحمى. وحين جاء عوضان بتحميلة شككت بنواياه. وبكيت وبكيت وبكيت وتمنيت أنك ما عرفت العدني أبدا، وتمنيت أنك لم تمرض أبداً لتحتاج التحميلة. من المؤكد أنك صدمت كثيراً لسماحك لواحدة من ذواتك أن تبرز عن الأخريات، لتدرس فعاليات وأفكار ذاتك الأولى. قلت لنفسك، ليست لك علاقة مهما كانت مع العدني، ولن تصادق أي عدني، وقلت لنفسك، لا تثق بهم - أبدا. وعند ذاك فحسب صرت تفهم التلميحات مصرا وعوضان، التلميحات حول «احترام الكرامة البشرية». كنت قد نسيت من الذي ألمح، بالتحديد، إثر فضيحة مسافدة العدني للدجاجة - ولذلك لم تعرف كيف تفسرها. فسألت حينذاك مصرا، «هل علي أن أفهم أن أي شخص يحترم الكرامة البشرية لا يضاجع الحيوانات؟ أو هل علي أن أفهم أن أي أعزب كبير السن يحترم الكرامة البشرية لا يغتصب الأولاد؟»

كانت راكعة على ركبتيها تمسح الأرض. كانت ثيابها متسخة ويداها مليئتين بالصابون، وعصابة رأسها منحلة، ركبتاها تتربعان على الأرض الرطبة ومرفقاها متغطيان بخليط بني من الأوساخ والعرق. ونظرت إليك، لم تكد تبلغ السابعة، تقف كالرجال، نظيفاً ومغتسلاً وغير منزعج بالوظيفة الوسخة التي يجب أن تقوم بها النساء؛ أنت يا من وقفت عند المر، تعطي ظهرك للشمس التي كانت في عينيها، تتحدث عن «الكرامة البشرية» وكأن العبارة لا تعني شيئاً شخصياً لك. وقفت على قدميها. إجتازتك نظرتها، واستقرت، للحظة، على الكراسي المقلوبة والسرير المجزء والفراش الذي أسند على حائط في باحة الدار؛ ثم استقرت نظرتها الملغزة، لفترة ما، عليك وانفرجت شفتاها، لتغمغم بشيء غير مسموع لديك. وفكرت، ربما

Twitter: @ketab_n

كانت تردد لنفسها عبارة «احترام الكرامة البشرية»، أو ربما كانت الأفكار الشاردة منها تتخذ لها شكلاً، وظننت حين تكلمت أخيراً، أنك ستحصل على استجابة لسؤالك. لكن الصمت كان من الصعب تحمله وأن العالم كان مؤلماً جداً وأن العالم الذي تسكنه أنت ومصرا لم يكن ذلك الذي يكتفي بالإشارة العابرة إلى العبارات السامية التي لا معنى لها مثل، «احترام الكرامة البشرية». كان يبدو كأن صمتها كان يقول عليك أن تنظر نظرة موضوعية مشرفة إلى نفسك بكونك رجل ثم إلى موضع المرأة في مجتمعك قبل أن تستخدم العبارات المشحونة بالنفاق الذكوري.

عادت لتجثو على ركبتيها، تمسح الأرض، مستخدمة يدها المفتوحة على أنها فرشاة، وفي أحيان أخرى تستخدم أظافرها، لإزالة الأوساخ الملتصقة التي لا تزال بسهولة. لم تنظر إليك مطلقاً، متظاهرة أنك غير موجود، وأنك لم تسألها شيئا. كانت هادئة بتحد. حتى أوشكت على الذهاب. ثم سمعت صوت نحيبها بين أصوات المسح الذي تقوم به.

وشرعت تقول، «هل علي أن أفهم»، لكنك فقدت الاهتمام بما تنوي قوله حين سمعت صدر مصرا ينفجر ببكاء متشنج، كالطفل. وسكت.

(٦)

في تلك الليلة وأنتما متعانقان في الفراش، حدثتك عن غارة، لم تسجل حتى الآن في كتب التاريخ. وخارج تلك الغارة، خارج غبار الانتصار، برز محارب، هكذا أخبرتك، محارب يمتطي جواداً، وما أن ضرب بقدميه أضلاع الجواد، إلتقط المحارب فتاة لم تكد تبلغ السابعة. كانت الفتاة غنيمة له بعد أن تراجع العدو مهزوماً. كان الرجال الآخرون قد عادوا بغنائم الذهب وما شابه - أما هو فلا. وأصبحت الفتاة الصغيرة الآن امرأة شابة، ولاتزال تتذكر كلبها وهو ينبح من الذعر والقلق والجوع، وخديها الملتمعين بالمخاط والدموع التي تجري؛ لقد بكت وبكت وبكت،

Twitter: @ketab_n

جالسة كأنها مربوطة الرجلين واليدين إلى سرير، على صهوة جواد، جواد أرعبتها سرعته، كما أخافتها الواقعة بأنها نهبت من عالم كانت متآلفة معه، كانت جد جميلة. كان شعرها حليقاً مثلما يحلق الناس عندكم رؤوس الأطفال حين يعانون من السعال الديكي، على الرغم من أن شعرها كان أطول وأجعد قليلاً. واستمرت مصرا تروي لك قصتها، حين عاد المحارب وهو في خوذته، أسر إليه أهله أنهم يخشون من بقاء الفتاة لأنها ستكون خطراً عليهم لو أن جنود الإمبراطورية تتبعوا المدنيين، وسوف تجد الحملات التأديبية الكثير من الموتى غير المدفونين. لذلك امتطى جواده وسافر بعيداً نحو الجنوب، حتى وصل بها، وهما على الجواد، قريباً من جغجيغا.

في جغجيغا مرض المحارب من شدة التعب والإرهاق والقلق والسفر. فتوقف عند أول منزل وطرق أول باب وتكلم مع أول رجل قابله - وكان من حسن حظه، أن مالك البيت من الأغنياء فأكرم المحارب والبنت الصغيرة. ولكن بعد يوم مات المحارب. وأضحت البنت الصغيرة التي حسبوها ابنته تحت رعاية الرجل الغني. وكان هذا قد رباها مع أطفاله، وجعلها تعتنق الإسلام وتخضع للتقاليد المتعارف عليها مثلما هي حال بنات المجتمع هنا. ولكنه رباها ليتخذها زوجة له حين تكبر. وهذا ما حصل فعلاً حين غدت في السابعة عشرة من العمر. لذلك فالرجل الذي ظنته الفتاة وخاطبته على أنه «أبوها» منذ عشر سنوات، يتحول إلى أن يكون رجلاً لها خلال ليلة واحدة، رجلاً أصر على أن يضاجعها وتناديه على أنه «زوجها». وفي النهاية، غربتها الولاءات المتصارعة، وأساساً من ذاتها. فقتلته في ليلة فظيعة من الجماع الشنيع.

وهرباً من عقاب مؤكد، إنظمت إلى قافلة متجهة نحو الجنوب إلى كالافو، قافلة تبحث عن الحبوب لتشتريها. وقدمت نفسها على أنها مصرا الحاج عبدالله - متخذة اسمَ الرجل الذي اصبح أباها والذي قتلته على أنه «رجل» ها.

Twitter: @ketab_n

وتساءلت، «ماذا عن والدي الفتاة هل ثمة من يعرف عنهم شيئا؟ فيما إذا كانوا أحياء أم ماتوا؟ أو إن كان أحد والديها قد تزوج ثانية أو كان له طفل آخر؟»

واندهشت حين علمت أن الفتاة كانت ثمرة زواج متعة بين امرأة من أورومو ونبيل أمهري. كانت هي الأنثى الناتجة من ذلك الاتحاد، الذي وافقت فيه أمها، تبعاً للتقاليد أن تعيش مع نبيل أمهري، لم تلد له أي من زوجاته طفلاً ذكراً. كان العقد بين أسبوعين إلى ستة أشهر. حبلت «المحظية» المأجورة بالبنت. وحين ولدت وتأكد الزوج أنها أنثى أهمل المرأة وطفلتها وتركهما لمصيرهما وحظهما المجهول. «نعم، نعم، ولكن ألم يكن للبنت نصف أخ أو نصف أخت؟»

وكان جوابها، «لا أحد يعلم».

«ثم ماذا حدث؟»

ومرة أخرى دخلت منزل رجل ثري آخر. لكنها هذه المرة دخلت المنزل على أنها خادمة، لكنها خلال سنة ترقت إلى منزلة العشيقة وبعد ذلك إلى زوجة. وفي الوقت الذي وجدت فيه عسكر كانت المرأة مطلقة. كانت قد حصل لها إسقاط مرتين وقد أُكتشف أنها تحمل في بطنها، سراً، طفلاً ميتا.

«تحمل طفلاً ميتاً في داخلها، طفل ميت في جسدها الحي؟»

«صحيح».

«ثم ماذا؟ أو بالأحرى، لماذا تحمل طفلاً ميتا؟»

«تمثلت المعجزة الحية في هيأة عسكر الذي أخذ محل الطفل الميت في داخلها»، قالت ذلك وهي تقربك إليها، أنت من كنت، في تلك اللحظة، تحلم بحصان يسقط راكبه. ولكنك لم تنتبه بما فيه الكفاية كي تلاحظ التناقض في هذه وقصة مصرا الحقيقية. إذ كان لها طفلها الذي مات وعمره ثمانية عشر شهرا. أم أن ذاكرتك قد خانتك؟

Twitter: @ketab_n

(٧)

وحدث الآتي بعد أسبوع:

عند العصر، زار ملاك الموت منزل كارين على أنه كان مدعواً لشرب الشاي، مثلما لو كنت مدعواً للمشاركة في جو احتفالي، تتناول الفطائر والمعجنات أيضاً - وليشارك في ما يتبع ذلك من حديث. وحين حانت له الفرصة، همس الملاك بشيء في أذن رجل كارين العجوز، ليقول له (هكذا قيل لك فيما بعد)، أنه، أي الملاك، سيعود بعد سبع ساعات بالتحديد. لذا فعلى الشيخ أن ينهي حسب الأصول، كل ما خطط لفعله - يغتسل ويصلي ويقرأ بعض الأدعية ويتمنى بعض الأمنيات، ويخبر كارين أن أجله قد حان. وعندما تستعيد الماضي، تتذكر أن الرجل العجوز ظل يختلس النظر إلى ساعة قرب فراشه على الأرض، مثل من يريد أن لا يفوته موعد مهم. وسوية مع مصرا وكارين كنتم قد عملتم ضجة مرح كأن شيئاً لم يكن. كانت النظرة الهادئة في عيون الشيخ هي التي قالت لكم أن شيئاً ما يحدث، لكنكم لم تكونوا تعرفون ما هو. نظرت كارين نحوك في البداية ثم مصرا وهناك سقط الصمت الذي يسبق حدثاً كبير الأهمية. وعلى نحو ما، أحسست أنت ومصرا أن حضوركما كان يمنع كارين وزوجها من أن يتبادلا الأسرار مع بعضهما البعض. ولذلك غادرتما، وفكرت أنكما تركتما خلفكما صمتاً عميقاً جداً كنتما متأكدين أن تغييراً مهماً سيحدث لحياتكما.

قبل منتصف الليل، سقطت ورقة الشيخ برقة من الشجرة التي على القمر. كان موتاً في منتهى الرقة. سكون. وكان السقوط الناعم للورقة الذابلة لم يحرك حتى بئر عواطف كارين، ولم يثقب حتى الجيوب الدمعية. لم تبك، ولم تعلن رحيل روح الشيخ لأي أحد حتى الصباح التالي. بقيت إلى جانبه، محتفظة بموته لنفسها فحسب. نامت إلى جانبه بصمت جليل، هو ميت، وهي حية - ولكن لم يكن بوسعك التفريق بينهما، إذ كانت جد هادئة وهي إلى جانبه.

Twitter: @ketab_n

غسلته كما تغسله كل يوم خلال كل السنوات التي بقي فيها مستلقياً على ظهره. وحدها، ولكنها ليست وحيدة، يداها بيضاوان من رغوة الصابون، عيناها جافتان من الدموع، ولم تضطرب حنجرتها أبداً برغبة النواح. كانت تتحرك ذاهبة آيبة وقد غسلت يداها ولمست وأحست بالجسد الذي عرفته منذ سنوات، جسد الرجل الذي «تملكها»، الرجل الذي منحها الحب والأطفال - والذي، جعلها، في بعض الأوقات، تكره نفسها. لقد تزوجته صغيرة جدا. لم تكن حتى قد بلغت الخامسة عشرة. يمكنك أن تقول أنها أصغر من ابنته. كانت صغيرة وامرأة، وهو كان مفتولاً ومكتمل الهيأة كرجل، وكان الناس يلقبونه بـ«أرماديو». جاء في صباح أحد الأيام وقدم لها مهرها. ذهب إلى «مكان ما» (كان عليه واجب لابد أن يؤديه، هذا ما كان يود أن يقوله لأي أحد) وعاد، كان ذهابه غامضاً مثل عودته. لم يكن مهتماً بالرسميات والزفاف وبركات الوالدين. حملها على كتفيه كما يحمل الحمالون أثقالهم. تكلم قليلاً وتفوه بالقليل في الليلة التي فض بكارتها فيها. قال لها، «لدي عمل لابد أن أؤديه»، وحملت طفله.

منحها الأطفال. منحها الكثير من الفضاء والسكون والحب، حين كان حاضرا. لكنه كان يختفي بين الحين والآخر، ويقول، «لدي عمل لابد أن أنجزه». في أحد الأيام جاء إلى امرأة كانت تشك بوجود نساء أخريات. لم يشرح لها وضعه، ولم يوبخها حين سيطرت عليها الغيرة، حتى حين وصفته بخبث بأنه «الرجل الذي لديه عمل لابد أن يؤديه».

بعد شهر، استدعاها في غرفة النوم قبل أن يغادر إلى واحدة من مهماته الغامضة وقام بشيء لم يقم به أبدا من قبل. لقد أخبرها أنه قد يبتعد لوقت طويل. واقترح أن تبيع البيت الذي يسكنون فيه وتشتري بيتاً أصغر منه، لو، نعم لو، لم يرجع إلى البيت قبل هطول الأمطار. كان بالغ اللطف أعطاها نقوداً كان متأكداً أنها مع أطفالها سيكونون بحاجة إليها. «ولكن أي عمل هذا الذي يأخذك منا؟»

قال، «ربما يكون الموت».

Twitter: @ketab_n

«ما عساي أن أقول للناس حين يسألونني عنك؟ أنت زوجي، ووالد أطفالي، والرجل الذي عاشرته وأحببته كل هذه السنوات. ما عساي أن أقول؟»

«قولي لهم أن لي عملاً لابد أن أؤديه».

«أريد أن أعرف المزيد».

«لا تهتمي. لن أسمح للموت بأن يأخذني». كان نصف مبتسم، كأن الموت كان اسماً لامرأة له علاقة عشق بها. «سأعود، عاجلاً أم آجلا».

ولم يأت قبل الأمطار ولا حتى بعدها. وسمعت أخباره من الراديو. اتضح أن آرماديو عضو في خلية من خلايا عصبة الشباب الصومالي التي كانت تناضل من أجل إعادة توحيد كل المناطق الناطقة بالصومالية. كان رئيس الخلية التي تقع عليها مسؤولية نشاطات الحركة داخل أوغادين التي هي تحت سيطرة الإدارة الأثيوبية. وقد أُلقي القبض عليه وهو يؤدي واجبه وانتهى مودعاً في أحد سجون هيلاسي لاسي الكثيرة. وحين لم تسمع عنه شيئاً بعد ذاك، باعت المنزل وتحولت إلى منزل أصغر، وكما يقال، فقد أدت واجبها. وتضمن ذلك الاهتمام بالأطفال، وإرسالهم إلى المدارس عازمة على إيصالهم جميعاً إلى مقاديشو، حيث الأمان بأن تكون صومالياً وتفتخر بذلك، وهناك ينضمون في خلايا كل واحدة منها تطلق رماحاً تفتح الطريق لتوحيد الصومال. بقيت - وانتظرت. كانت متيقنة أنه سيعود إلى وطنه. وحدث فعلاً، في أحد الأيام. لقد شوهد واقفاً عند الباب. كان يبدو متعباً، «مثل رجل أدى عملاً جباراً»، كما قالت. لم يتحدث عن المحن التي واجهها وسنوات السجن. كان يحمل جعبة خاوية إلا صورة لأرنست بيفن.

قالت، «من هذا الرجل يا آرماديو؟»

فأجابها لمرة واحدة مبتعداً عن صيغة أنه يؤدي عملاً، «إنه الصديق البريطاني للصوماليين».

Twitter: @ketab_n

فتساءلت، «كيف يكون هذا؟»

«إنه الشخصية الفعالة في السياسة البريطانية التي دافعت عن إعادة توحيد كل المناطق الناطقة بالصومالية».

ألصق صورة بيفن على الجدار الملطخ بروث البقر بدبوسين أخذهما من أحد الناس. ولم يعد يتحدث عن عمل له لابد أن يؤديه ولا مكان يذهب إليه. وقع مريضاً. كان يشكو من ألم حاد في عموده الفقري، لكنه لم يقل شيئاً عما إذا كان قد عُذب في السجن الأثيوبي؛ ولم يتكلم عما كان الحال عليه وهو في غرفة مظلمة سنة بعد أخرى، معزولاً عن بقية البشر، بعيداً عن كارينه وعن أطفاله.

وفي صباح ما لم يستطع أن يقوم ليصلي صلاة الفجر. قال، «ظهري». ومنذ تلك اللحظة، ظل راقداً على قفاه، على حصير على الأرض. تغسله زوجته مرة في اليوم - كلا، تغسله ليست هي الكلمة الملائمة، فكل ما كانت تفعله، أنها تبلل قطعة قماش أكبر قليلاً من منشفة الوجه في ماء فيه صابون وتمسح بها كل جسمه، مركزة على المناطق الكثيرة الشعر فيه. أما الوضوء فكان هو الذي يقوم بذلك، فكان يهمس بالأحاديث والآيات بينما تغمس هي القماش في ماء نظيف، ليمسح به الأماكن الواجب مسحها. كان يصلي وهو مستلق على ظهره. لم يكن يستطيع القيام بالسجود والركوع. وحين اقترحت عليه استشارة الطبيب، مهما كان الثمن، أجابها، «لم يعد لي عمل أؤديه».

لقد تغير موضع صورة بيفن من الجدار الملطخ بالروث إلى بقعة في السقف فوق رأسه تماماً. كانت كارين تطعمه بالملعقة، تمسكه من مؤخرة عنقه بيدها اليسرى وتمسح كل ما يتساقط من فمه بيدها اليمنى. كانت تعامله مثلما تعامل طفلاً - لو كانت قد رزقت بمريض في مثل سنه - بعطف الذي يعرف. وحين سأل أحدهم آرماديو لماذا كان متمسكاً بالحياة، قال، «إن لم يكن لدي عمل لابد أن أؤديه فما معنى ذهابي إلى (هناك)؟ وفي الوقت نفسه، سأنتظر كلمة منه (هو)».

Twitter: @ketab_n

وحان الوقت ليقول كلمته. كانت كلماته الأخيرة، «لا حداد على من فعل القليل لبلاده وزوجته وأطفاله. عديني كارين، لا حداد».

لاحظت أن ثمة بقعة دم في فمه. كانت تحاول أن تعرف السبب، حين تنفس نفسه الأخير. لقد وعدته، هي الحية، وعدت الميت، «لا حداد». ولكنها لم تعرف سبب بقعة الدم على فمه، حتى النهاية.

ولم يكن هنالك حداد.

كان الرجل العجوز مسجى، تماماً مثلما كان دائماً مستلقياً على ظهره في غرفته، على الأرض. الفرق الوحيد (وقد لاحظت ذلك) أنه الآن مسجى وسوف يدفن. وأيضاً (إذ سمح لك ولمصرا أن تلقيا عليه نظرة قبل مجيء الآخرين) رأيت أن ثمة لطخات دم على شفتيه. لقد أكدوا لك أنه مات بهدوء وأن روحه قد انفصلت عن مستخدمها لعقود عديدة - بسلام. وحين جاء المعزون من أماكن بعيدة وقريبة، وأخذت أباريق الشاي تنشد مع التسابيح وبركات السور الملائمة، سألت مصرا، لماذا كانت هنالك لطخة دم على فمه؟ ولم تكن تعرف.

ومكنك موضوع الموت أن تعود إلى بداياتك، إلى اليوم الذي عثرت فيه مصرا عليك وكان هنالك قناع من الدم على رأسك وثمة تحديقة في عينيك. حدقت في جثة آرماديو. أهكذا كانت أمي حين توفيت؟ ربما لا. الموت هنا طاهر، هكذا فكرت. لقد هيأه الملاك لهذه اللحظة. كانت لديك هذه الفكرة، ليس في منزل كارين، بل في منزلك، بينما كان ظلك يعبر ظل الشجرة التي أُنبتت في يوم مولدك. قلت مندهشاً وقد رميت سؤالاً على مصرا سؤالاً لم تكن على الأقل مستعدة له، «لم يكن طاهراً، أليس كذلك؟ لقد كان الدم والألم والصراع كلها هي الطريق إلى نهاية الرجل العجوز، أليس كذلك؟»

فقالت، «على العكس».

«وكيف كان موت أمي؟»

Twitter: @ketab_n

فقالت، «تعال، تعال معي». وأطعتها.

وسارت في أرض ذاكرتها مرة أخرى، وأنت إلى جانبها، مكررة كل ما قالته من قبل، كلمة بكلمة، لتخبرك بكل ما عرفته عن موت أمك.

«وأبي، ما الذي تعرفين عنه؟»

«لقد مات في النضال، مات من أجل قضية الوطن».

«لقد كان لأبي عمل يؤديه، أليس كذلك؟»

«هذا صحيح».

«وقد مات وهو يؤديه؟»

«هذا صحيح».

وهبط الليل ورحل أغلب المعزين، وانضمت إليكما كارين. قالت، «تفضل هذه هدية من الرجل العجوز»، وأعطتك صورة أرنست بيفن.

قبلتها بتبجيل كبير يناسب ذكرى الرجل العجوز الذي أحببته، والشخصية البريطانية الذي كان الرجل العجوز يكن له بالغ الاحترام. قالت مصرا، وهي تشير إلى الصورة، «هل تعرف من هو هذا الرجل؟»

فقلت، «أرنست بيفن كان يمثل الحلم بالنسبة للصوماليين العارفين».

Twitter: @ketab_n

الفصل الخامس

(١)

لا شيء يشبه مشاركة امرأة في ثوب وهي تحملك ملفوفاً في ذلك الثوب، ليس ثمة دفء مثل ذلك، مع الجسدين، جسدك وجسدها، يتلامسان وينضحان ويعرقان معاً - أنا عار وهي ليست كذلك - واحتكاك الجسدين يولد حساسية واهتياج الجلد. ثم يزحف هدوء الليل إلى الداخل مثل حشرة على ظهر المرء - تدغدغه وتثير فيه الضحك. وتستولي عتمة الغسق على الإحساس المتخيل بكونه: هذه المرة، مثل حشرة تلسع بقوة حتى أنك لا تفكر بسواها. لذلك ولسنوات تأملت العالم من العرش الأمين المنقوش على ظهر مصرا، أنام متى شئت، أتأرجح من ظهرها مثل ثمرة الزعرور، أتبول متى ما يتوجب عليّ وأوبخ عليه؛ لسنوات نظرت للعالم من ارتفاع أعلى قليلاً من رأس قزم.

يبدو أنني بقيت مجرد امتداد لجسم مصرا لسنوات - فأنت تراني عندما تضع عينيك عليها. أنا كنت جزءاً من ظلها - بمعنى أنني كنت ذاتها الممتدة. كنت، يمكنك حتى أن تقول، الفضاء الذي يحيط بجغرافيا جسدها. وكانت تأخذني أينما تمضي. ونتيجة لذلك، أصبحت الضيف المدعو لكل وليمة تدعى إليها، وأشترك بكل كرم تناله. كنت المنصت والمستمع لكل حديث لها - أول من يعلم إن كانت متألمة أم لا؛ أول من يلاحظ إن كانت في عادتها الشهرية. والتي كنت أعرفها من الرائحة التي

Twitter: @ketab_n

تفوح من جسدها، من الطريقة التي تجر بها قدميها، ومن استحمامها الدائم ومن حقيقة أنني كنت أعاقب من أقل ضجة وتنهرني بصوت عال أكثر من أي وقت. بلى، كنت الوقت الذي تحتفظ به مصرا - تنهض حين أنهض، وتنام عدد الساعات نفسها التي أنامها، تشعر بالوعكة حين أمرض. وفكرت مع نفسي، لو أنني ختنت، وأصبحت رجلاً، نعم، لو. . . ! ما الذي سيحدث لعلاقة جسدينا؟ من المؤكد أنني لن أبقى امتداداً واضحاً لجسد مصرا؟ من المؤكد أنني لن أبقى نهدها الثالث أو رجلها الثالثة. لربما كانت ستضعني على التراب أعتمد على نفسي، ألعب مع نفسي وستبطل تلك العلاقة بين جسدينا التي صاغتها السنوات. لو رآها أحد الجيران وحدها، فلن تُسأل عني. لن أكون الثياب التي ترتديها حين تذهب لحفلة زفاف؛ لن أكون جالب الأحاديث، والصداقات ولأنني لست معها، لا يراني أحد معها، فلن يغازلها مستفيداً من حضوري كوني حجة أمينة، ليقول شيئاً ما مثل «آه، أي فتى جميل»، ويقرص خدي، ويسألني عن اسمي وعن عمري وما إلى ذلك وهلم جرا، حتى يتحدث هو ومصرا ويتبادلان العناوين والاتفاق على اللقاء ثانية - ولكن من دوني. بكلمات أخرى، لن أبقى موضوع الأحاديث، عندما تكون هي فعلاً هدفاً لمتعة حقيقية لشخص آخر.

إن جسدها (أم علي أن أقول جسديها: واحداً للمعرفة، والآخر للخلود؛ واحداً كنت أعرفه وألمسه وأحس به، والآخر للآخرين من مثل عوضان والعم قورح) كان يحدس حاجاتي الجسدية (لأنني كنت طفلاً، فلدي جسد واحد، لا يكاد يكون له ظل يذكر، لأن ذلك الظل كان بقدر حجم ذرق الطائر كلما بحثت عنه ووجدته) لإرضائهم فقط. إن لم أستطع قطف ثمرة من شجرة، كانت تمتد إليها يد مصرا وتجلبها لي، وإن أعجز عن فرك ظهري بالصابون كانت راحتها هناك لتفركه. ومثل ذلك حين لا أستطيع تحريك أمعائي العنيدة، تقوم هي بتدليكي وتفريكي مما يساعدني على أن أقوم بذلك.

وأتذكر أول فراق مؤلم: عندما أرسلت إلى المدرسة القرآنية التي كان

Twitter: @ketab_n

يديرها عوضان. كنت حزيناً جداً. ولسبب أجهله، شعرت أن بين قدمي والبقية من جسدي، ثمة فضاء لا يمكن ملؤُهُ. ولم أعقل إلا في وقت متأخر أن ذلك ربما كان الفضاء الذي لم أستخدمه (هو فضاء مصرا في السابق) الذي كان قد أحاطني لسنوات ولكنه لم يعد موجوداً. شعر جسدي بالخدر ولم تطعني يدي ولم تستطع الإمساك بالقصبة التي من المفترض بي أن أخط بها حروف الألف والباء والتاء من كلمات الله وحكمته. فضربني عوضان، المعلم الذي يدير المدرسة القرآنية، ضربني حتى عملت بركة من البول وجلست فيها، مما جعل الأطفال يتندرون علي. وعدت إلى البيت، إلى مصرا مبللاً وبائساً لكنها لم تتعاطف معي كثيراً كما تطلعت. ورغم ذاك فقد، نظفتني وأطعمتني وأصرت على أن أتعلم نسخ الألف النحيلة التي كتبتها على لوحي؛ وأن أتعلم الكتابة الصحيحة للباء التي تحتها نقطة والتاء أيضا. لكنني لم أستطع رسم الحروف بدقة - فالباء عندي ممتدة والألف قصيرة وثخينة لا تشبه التي كتبها عوضان ولا مصرا؛ بينما التاء عندي فمبللة بالنقطتين اللتين فوقها كل واحدة كبيرة بحجم الدموع التي ذرفتها. عموماً كانت الأصوات التي رددت بها جداً جميلة، وأقرت مصرا أنها أحست بسحرها ينفذ في جسدها. كل صوت كان يخرج رائعاً ورقيقاً خالياً من كل خشونة، بعيداً عن كل الإسهاب. وتقدمنا معاً. أنا أردد الحروف بعدها، أرتعش من المتعة، مهتزاً من الفرح وأنا أردد أسماء الله الحسنى. وكنت أتقصد أن أخطئ في نطق حرف لتصحح لي. لقد أصبح الله مع مصرا شيئاً بهيجاً. كان لي الحروف التي لم أستطع رسمها، كان لي فخذ مصرا الذي أضربه ملاطفاً وأنا أنشد ألفباء الفرح. خلال أسبوع تعلمت كيف أكتب أسمي واسم مصرا وكذلك اسم الله. وبعد ثلاثة شهور، تعلمت أن أتلو الفاتحة، وقد دُعي عمي ليسمع تلاوتي. وحين تلوت، كانت كل كلمة ساخنة مثل الوسم لتطبع في أسماعهم حرارة مشاعري.

لكنني كرهت عوضان معلمي للقرآن. كرهته أكثر حين جلدني، لأنني فكرت أن كل جلدة كانت تعلن القتال، تحفر ثقباً في جدار وجودي. عندما

Twitter: @ketab_n

أكون معه، عندما أكون في مدرسته تلك، كنت أنطق كل صوت مشحوناً بلهيب الحقد الذي أكنه له. من أجل هذا كنت أرفع صوتي بأشد ما يمكنني، آملاً أن يحترق بالضجيج - الذي يسعر بالحقد. وفي كل الأحوال، حين أعود إلى البيت كانت مصرا تتفحص جسدي كما أتفحص أنا اللوحة التي أكتب عليها السور القرآنية، كانت تتفحصه بحثاً عن الجروح والكدمات بينما أنا أقرأ لها السور.

في أحد الأيام، عندما كنت أمتحن بـ «جزء عم»، قاطعني عوضان، وجلدني أيضا. لم أر سبباً لجلده إياي. لم أكن قد أخطأت لذلك فقد أفصحت عمّا كنتُ أفكر فيه تجاهه، متكلماً بحضور الأولاد جميعهم الذين لم يكونوا قد عرفوا أو سمعوا ما أردت قوله. فجلدني ثانية وثالثة. ارتفع نزيف الحقد إلى رأسي أولاً، ثم إلى سائر جسمي؛ وكان هذا يعني أنني قد استرددت وعيي، فأفقت لأصيح: «سأقتل عوضان؛ سأقتل عوضان؛ سأقتل عوضان». في اليوم التالي أصابتني الحمى. ومكثت مع مصرا في الفراش. سوية، تلونا الآيات القرآنية؛ وسوية، أعدنا التواصل بين جسدينا. ثم أعدت بالتصميم السابق لقاتل قرر قتل خصمه، «هل تعلمين أنني سوف أقتل عوضان؟»

فقالت بعد صمت طويل. «قل لي. لماذا أنت انتقامي؟»

«انتقامي؟»

«أنت تريد الانتقام، أنت من النوع الذي يود شرب دم عدوه».

تذكرت الألم حين ولج سيخ المعدن، مع الأعشاب المجهضة والجذور المنقوعة في مهبلها؛ تذكرت الآلام التي سببها لها، تذكرت عجزها عن الثأر لنفسها - هل أنا حقاً انتقامي؟ إعتقدت أنها لم تكن منصفة معي. ويمكنني أن أعدد لها الأشياء الشنيعة التي ارتكبها بحقي وحقها.

قلت «لنبدأ بهذا التقويم. . . !»

كانت تهز رأسها، وهي تتذكر النقاش الذي دار بيننا في الليلة السابقة.

Twitter: @ketab_n

قالت «ماذا في التقويم؟ أجل يا عسكر يا رجلي، ماذا في التقويم؟»

(٢)

ماذا في التقويم؟ ماذا تجد في جدول يعطيك أيام الأسبوع والأشهر والسنة، هل سنة تبدأ بيوم اثنين، أو سنة تبدأ بيوم ثلاثاء، أو واحدة تبدأ بيوم آخر من أيام الأسبوع، سنة متصلة بإشارات الأبراج وهي لا تتبع النظام الغريغوري ولا النظام اليوليوسي الروماني، لكن هذا الجدول يشير إلى محن دورة الطمث لامرأة - هي مصرا! إنها من الواضح قد أجهضت طفلاً. ويبدو أن هذا ما كان قد فعله السيخ الحديدي ذو الرأس المعصوب - لقد قتل جنيناً. وقد نزفت مصرا الكثير. هل حملت لأنها أخطأت في الحساب؟ هذا إذن تقويم يساعدها في الحساب بطريقة صحيحة، «بشرط»، هكذا تناهى إلى سمعي أنه يقول لها، أن تضع دائرة حمراء حول الأيام غير المأمونة ودوائر خضراء على الأيام المأمونة.

في الأيام «الخضر» تفوح الغرفة برائحة المسك وباقي أنواع البخور ذات الروائح الطيبة، حتى أنني علقت على ذلك بكراهيتي لمثل هذه العطور وكل من يضعها. كلما كان مزاجي سيئاً كانت تخرج وحدها، إلى الخارج، كما أعتقد، لتقابل عوضان أو العم قورح، لا أعرف بالضبط. كانت تخرج خلسة من الغرفة، بينما أنا أغط في النوم العميق. وتعود أحياناً قبيل طلوع الفجر.

أيقظتني في واحد من تلك الأيام، قبيل الفجر. قالت، أن الحمام جاهز، والماء دافئ وعلي أن أستحم. ومن خلال صوتها عرفت أن هنالك قراراً قد اتخذ بشأني عندما كنت نائماً. ولم يغب عن عيني اليقظتين حقيقة أنها لا تزال في ثوب ليلة الأمس. ولا تفوح منها العطور الطيبة والبخور الجديد. كانت تفوح منها رائحة العرق الجاف، وأن بشرتها حين لمستها كانت قبيحة، كما أعتقد.

Twitter: @ketab_n

بعد أن استحممت سألتها «إلى أين نحن ذاهبان؟»

قالت «انتظر لترى».

وهكذا فعلنا - معاً. كانت قد كشفت عن الجمر الذي احتفظت به في المجمرة، من خلال إزاحة الطبقة العليا من الرماد مستخدمة مقبض المهفة. ثم حركت الهواء الخفيف على الفحم بالمهفة نفسها. ورغم أنني كنت أتحرق للتعليق على الشكوك التي تحوم في رأسي مثل الهواء الذي أثارته المهفة، خشيت أنني لا أجرؤ على التساؤل فيما إذا كانت مصرا قد تخلت عن فضيلة أن تكون «أمي»، فضيلة معرفتي لما كان يحدث لي. لكن فكرة مناقشة أسئلة عن الفضائل الأخلاقية أشعرتني بالاشمئزاز.

تناولنا فطورنا صامتين. اخترنا بصعوبة سروالاً ليس بالضيق ولا بالقصير. وهذا ما منحني الفرصة بأن أشير بسخرية إلى البالغين الذين لا يزالون يستخدمون القفل والمفتاح على خزانة ولد يافع. قلت: «بارك الله في ذكاء البالغين».

لم تفتح فمها لتقول أي شيء. لكنني كنت قد لبست الآن وكي أكون واعياً تماماً لما حولي أحتاج إلى وقت طويل. وكانت هي تفتش بين ثيابها عن شيء لائق لترتديه، شيء يلائم الخروج.

قلت «إلى أين نحن ذاهبان؟»

فوعدتني «ستعرف بعد دقيقة».

فتساءلت «فلم لا تخبرينني؟»

وفكرت، لقد تهيأت لتقتل. وتساءلت مع نفسي إن كانت قد قضت الليلة مع عوضان أو مع العم قورح؟ ولكن هل كان هذا يهمني؟ سمعت مصرا تقول، «هيا بنا».

لم يمض وقت طويل حتى أدركت أننا ذاهبان إلى مسكن العم قورح. وكالعادة كان مسكنه محموماً بالحركة. ولكنه اليوم يعج بالحركة أكثر من أي يوم آخر. ثمة ما لا يقل عن دزينة من الجمال، والكثير من رؤوس الماشية،

Twitter: @ketab_n

وحوالي عشرين من الماعز وبالطبع مع البدو الذين يملكونها. وكما هو متوقع، هنالك بعض من أطفال العم قورح وهذرهم، الذي أظنه يشكل ذواتهم الأخرى. سرنا أنا ومصرا في المسكن يبدو علينا الخوف قليلاً بسبب هذه الضوضاء. كانت قد أعطتني يدها حالما مددت يدي إليها. وما أن اتصلنا حتى جلسنا فيما يمكن حسابه غرفة انتظار العم قورح ننتظر. قلت شبه صائحٍ، ربما لأنني كنت في حالة عصبية، «هل تعلمين إن يكن عمي في الداخلَ؟»

وكأنه جواب عن سؤالي، رأيت جسد امرأة اندفع خلال ستارة إلى باب عمي. وها هي - امرأة لم أعرف أنه قد تزوجها. كنت قد فكرت فيه على أنه ساحر، يجعل واحدة من زوجاته تختفي بين الغسق والفجر، من أجل أن يبدل المحظية المختفية. لا يمكنني عد كم من النساء تزوج وطلق في الفترة القصيرة التي بدأت فيها ألاحظ هذه الأحداث القاسية. وفي الحقيقة فإن الكثيرين من أطفاله، ومن أجل التعريف، لا يذكرون اسمه وحده بل أيضاً أسماء أمهاتهم. قالت المرأة لنا «إنه آت» ومرت من أمامنا، إلى خارج الغرفة التي كنا فيها.

جاء العم قورح، طويلاً، يرتدي ثياباً أنيقة، حذاؤه متألق ويشع من اللمعان مزهواً على مصرا وعليّ. كنت أخشاه، أخشى أن أثير غضبه، قلقاً أنه ربما يضربني ويسبب الصمم لأذني أو يصيبني بالجنون في رأسي. وبالأخص الآن إذ ينظر إليّ محدقاً بغضب، هكذا فكرت. يا لي من مسكين! ما الذي فعلته؟ لابد لي أن أقول أنني ارتحت حين علمت أنه كان غاضباً من مصرا. قال «من أين كنت عائدة بحق السماء في الصباح الباكر من هذا اليوم يا مصرا؟»

ودون أن تضطرب، غمغمت بشيء، كما تفعل الزوجات حين يستجوبهن أزواجهن علناً. وربما اقترحت أن يؤجل النقاش لوقت آخر. وهو على أية حال لم يتابع الأمر. ولكنه ارتأى تغيير الموضوع لشيء آخر أقل خصوصية خاطبني وسألني عن أحوالي. لم يسمح احتشاد الخوف في

Twitter: @ketab_n

حنجرتي إلا للقليل من الهمهمة. وفكرت أن هذا كان أفضل لأنني لولا ذلك لكنت قد تحدثت بالكثير ولكنت قد ذكرت أن مصرا كانت مع عوضان حتى الفجر. قال، «هيا بنا».

ومن شدة الروع، رحت أنظر إليهما من واحد لآخر. أرخت مصرا يدها عن يدي، ودفعتني نحو العم قورح. لم أكن أعرف إلى أين يأخذونني وكنت قلقاً من أن أجبر على الذهاب وحدي مع عمي. قال «أنا وأنت سنذهب سوية».

ذكرت اسم مصرا وعلقته على وتد لكليهما ليرياه.

قال وأخذ يدي «كلا، وحدك. أنا وأنت».

مثل شعب أفريقي مذهول يعرض أسئلة على قيادته غير الكفوءة، بقيت أسأل، «إلى أين نحن ذاهبون؟ إلى أين تأخذونني؟» مرقت أفكاري في ذهني. وكانت أشدها إلحاحاً هي ما وجهتها إلى نفسي: هل سأستطيع التأقلم مع هذا الفراق عن مصرا؟

لا أستطيع ضمان دقة ذاكرتي هنا. من الممكن أنني اختلقت شيئاً أو شيئين. ولربما أنني حدت متقصداً عن المجرى الحقيقي للأحداث. رغم أنني أميل للاعتقاد أنني أتذكر بدقة تفاصيل ما حدث وما قيل. إنني أقر أن الإزاحة الإجبارية لحضور مصرا المطمئن كان يشبه فطامي - رغم أنني لم أكن أعرف معنى «الفطام» (كنت قد أطعمت بالزجاجة أو الكوب). عموماً كان ثمة شيء رسمي، شيء طقوسي عن المواجهة التي حدثت بين العم قورح وعوضان، مواجهة حدثت عند حدود مملكة الأخير.

كنت متوتراً. بقيت بعيداً عنهما، يبدو علي الرعب، متجنباً أي تقابل بالنظرات مع أطفال العم قورح، وكان أحدهم يمد لسانه باتجاهي ساخراً. سكت التلاميذ مباشرة ما أن رأونا. ورفع مساعدا المعلم عصويهما في قبضتيهما القويتين لكنهما كشرا وأومأا للعم قورح. تقدم عوضان. تبادل هو والعم قورح التحية. نظر كلاهما إليّ ثم إلى بعضهما البعض. ثم اختفى خوفي، لأنني كنت أعلم أنني أعرف بعض الأشياء عن كليهما - أشياء لم

Twitter: @ketab_n

يكن أحدهما يعرفها عن الآخر. هذا الإحساس الجديد بالبهجة استولى عليّ دون أن أدري وحلق خيالي معي، ولذلك لم اكن أتذكر إن كان العم قورح قال الآتي لعوضان وهو يسلمني رسمياً له على أنني أحدث تلميذ في المدرسة القرآنية التي كان يديرها عوضان:

«أجلب لك في هذا الصباح المبارك الابن الوحيد لأخي، إسمه عسكر. الفتى مستعد لأن يقدم، ولكن ليس من دونك، إلى كلام الله الذي أملاه على الملاك جبريل، ومن بعد ذلك كما سُمع من النبي محمد في محكم الآيات؛ كان الملاك مفوضاً من العلي القدير. إن عسكر الصغير يناهز عمره الآن الخامسة، وعلى الرغم من أنه أصغر من التلاميذ الآخرين فقد جلبته لك. ذلك لأنه ليس هنالك رجل في الدار التي يسكنها وعلينا أن نبعد الأولاد عن تأثير النساء السيّيء. هل ستقبله تلميذاً عندك - في هذه الحياة والحياة الأخرى؟» قال ذلك وهو يقدم له رسغي مثلما يسلم بائع في مسلخ إلى مشتر الساق الأمامية لمعزى بعد أن أخذ ثمنها.

قال عوضان «اقبل».

واستمر العم قورح: «ومثل كل البشر الذين خلقهم العلي القدير، فإن عسكر عظم ولحم. اللحم لك ولك أن تعاقبه حتى لو فقد بعض دمه. علمه كلام الله، وعاقبه إن لم يطع، أره النور الذي رأيته مادام صغيراً. أما العظام فلنا، أقصد للعائلة - فلا تؤذها دون ضرورة، أو لا تؤلمها أو تكسرها. اللحم الذي في الرأس والشعر الذي عليه لك، لكن السائل الذي في الدماغ سيكون لك مادمت قد وضعت فيه الكمية الصحيحة من نور المعرفة. ولكن لا تشق رأسه بفأس».

هز عوضان رأسه.

قال لعوضان «هل تقبل عسكر تلميذاً عندك كما قبلت قبله أبنائي من لحمي ودمي؟»

«أقبل».

Twitter: @ketab_n

«بالشروط نفسها والأجر الشهري نفسه؟»

قال عوضان «أقبل».

وعند ذاك صافح عمي يد عوضان ليغدو الأمر رسمياً. وبدا لي أولاً أنه يستعد للمغادرة. ولكن لا. فبدلاً من ذلك، ذهب لينظر إلى الألواح التي كتب عليها أولاده. بدا راضياً ومتأثراً، ثم غادر دون أن يقول لي شيئاً.

لم أكد أتمالك نفسي حتى جُلدت من قبل عوضان. وقد تتساءلون ما الذي فعلته كي أستحق مثل ذلك الجلد المبرح. قال لي حين سألته لماذا كان يجلدني «بسبب نظرتك الشيطانية هذه، فاخفضها». ولكن هل أستطيع؟ حتى لو أردت؟

وأنت تقولين انك انتقامي؟

ولأن عوضان ضربني وعضضت لساني أصبح حرف «الألف» «بالف»؛ وحرف «الباء» حين ضُربت ثانية تحول إلى «فا»؛ بينما حرف «التاء»، ولأن فمي غدا الآن بركة دم فقد تحول بلساني إلى «شا». (لا أستطيع أن أعرف السبب، ولكن لوقت قصير لا يتذكره إلا أنا، كنت أعاني من صعوبة نطق حرف «التاء»، الذي هو الحرف الثالث من الأبجدية العربية والصومالية. كنت قد خمنت أن ذلك شيء غريب، علماً أنني أنطق حرف «الثاء» بدقة، كما في الكلمة الإنجليزية «Thorough» وكذلك حرف «الفاء». وأذكركم ان ذلك ليس بسبب فقدان أسناني الأمامية أو ما إلى ذلك، كلا. كان يبدو كأن الصوت «ت» غائبٌ عن ذخيرة الأصوات التي بإمكاني نطقها. بعد سنوات جاءت كارين إلى مقاديشو، كانت قد تخاصمت مع مصرا. وأخبرتني بشائعة مثيرة، مفادها أن مصرا التي اسمها ليس صومالياً كان فيه حرف «تاء»، حرف «تاء» ينتهي به اسمها وقد حذفت هذه التاء كي لا يثير اسمها الشكوك الرهيبة في رؤوس الصوماليين الذين تعيش بينهم. لكنها أعادت هذه التاء عندما وقعت في حب ضابط الأمن الأثيوبي. وفكرت: كيف يكون الأمر الآن؟ حين ينتهي اسمها بالحرف «تاء» سيغدو «مصرات»، أليس كذلك؟ عموماً حين يضربني عوضان أتلعثم في نطق الحروف. وصار

Twitter: @ketab_n

عندي دليل أنه كان يكرهني. لقد اقتنعت أنه كان يضربني كلما سنحت له الفرصة، يجلدني بلا رحمة، يضربني مثلما يضرب رجلٌ حاقدٌ رجلاً آخرَ. كان أبعد ما يكون عن المعلم الذي يشعر بالمسؤولية فيعاقب تلميذاً مخطئاً. كان بإمكاني رؤية الحقد في عينيه، كنت أسمع الحقد في نفسه اللاهث كلما يرفع ذراعه بأعلى ما يستطيع من أجل أن يضربني. بت أشعر أنه يستثمر كل طاقته وعضلاته في الضربة. لم أدر كم مضى عليّ قبل أن أقرر أنني قد وصلت إلى نقطة التحول البشري حيث يمكنني أن أخطط بجدية للقتل. ثم أصبح شيء ما واضحاً لي - أو بالأحرى تبين لي - أنني يمكنني القتل، في الذهن على الأقل. هكذا أبعدت عمي قورح وعوضان عن طريقي، ومهما كانت قيمة ذلك، فقد أعلنت موتهما. وكانت تلك هي المرة الأولى، ولكن من المؤكد ليست الأخيرة التي أذوق فيها طعم الكراهية في ريقي - وهو ما يعني أنني ذقت الدم في فمي، وهي طريقة أخرى للقول بأنني ذقت موت شخص آخر في داخلي.

كان ثمة بقع دم على ظهري؛ والكثير من القروح التي تركت ذكريات من الندوب، دزينة أو أكثر منها، البعض منها مستقيم مثل حرف «الألف» في الحروف العربية، والبعض منها منحنٍ مثل حرف «الباء»، على أن البقية الباقية منها لها ثلاث نقط فوق الحرف «ثاء». كانت مصرا تضع العلاج الملائم. وكان موقفها أن ليس ثمة طفل يمكن أن يتعامل مع دقائق الكلام المقدس حتى يكون جسده خاضعاً ويتعرض للعقاب الجسدي أكثر مما يتخيل. فما أن بدأت في «لعن عوضان حتى وضعت يدها على فمي، ترجوني أن أكف عن قول هذه الأشياء الشريرة التي قلتها. تضرعت أرجوك لا تقل هذه الأشياء». وبالطبع لم أكف.

كم كانت القروح مؤلمة! وأصبت بالحمى أيضاً. واندفع دمي الساخن إلى رأسي. شعرت بالدوار، وتأكد لي أنني سوف اسقط لو أنني نهضت ومشيت. وقعت عيناي على تقويم على الحائط. وحسبت مع نفسي، حسبت ثلاثمائة وخمسة وستين سبباً لكرهي ورغبتي في قتل عوضان.

Twitter: @ketab_n

وخططت في فكري ثلاثمائة وخمساً وستين طريقة في قتل عمي قورح؛ وحددت الأيام الثلاثمائة وخمسة وستين التي سأجعل من ذلك ممكناً في المستقبل. قلت لنفسي، أنا من قتلت أمي، لماذا لا يمكنني قتل هذا المكروه عوضان؟ ولماذا يكون لقتل العم قورح أية صعوبات؟

قالت وهي تلقي باللائمة كاملة عليّ «والآن يا عسكر لماذا لا تتعاون؟ لماذا لا تعترف ببساطة بحقيقة أنني علمتك القراءة والكتابة؟ لماذا لا تقر أنك تحفظ الألفباء من البداية إلى النهاية وبالعكس؟»

حين لمست قرحاً صرخت «آه، إنه يؤلمني».

ولمست قرحاً آخر فصرخت أعلى: «هذا ليس تعليماً علمانياً. إنه تعليم مقدس. والأطفال يُضربون إن لم ينتبهوا كاملاً للكلام المقدس. لا تعاطف. تعلم لتقرأ القرآن، تعلم كي تكتب الآيات بصورة جيدة - وقد تذهب إلى أعلى من ذلك. ومن يدري فقد تكون في أحد الأيام في موقع من يصلي على روحي الراحلة».

كان ريقي لا طعم له وانعقد لساني، وكان من المريح لأني لم أرغب في قول شيء لا أستطيع كتمانه. ولكن الألم، أي ألم! وفكرت، يا إلهي، لماذا خلقت مثل هذا الألم؟ ألكي تختبر الإنسان فيّ؟

حين بدأت القروح تبرأ، أخذوني إلى المدرسة القرآنية. وما كنت لأعود لو لم يأخذني العم قورح بنفسه. قال لعوضان: «الطاعة هي أم التعليم. تفضل»، وسلمني له ثانية، «علمه القراءة والكتابة».

ويأتيك من يقول: لماذا أنت انتقامي؟

في عام ١٩٥٦ وجه الإمبراطور هيلاسيلاسي خطاباً للصوماليين في أوغادين قال فيه: «اذهبوا إلى المدارس يا شعبي. فهناك تكون لكم الفرصة سانحة للتعلم وقراءة وكتابة الأمهرية. عند ذاك فحسب ستكونون قادرين على تولي المواقع المختلفة في إدارة الدولة المركزية. وتذكروا: أن نقص المعرفة بالأمهرية، اللغة الوطنية لأثيوبيا، ستكون عائقاً كبيراً للتطور

Twitter: @ketab_n

الاقتصادي والارتقاء بالفرد والجماعة. فتعلموا قراءة وكتابة الأمهرية. لأنها ستجلب لكم الكثير من الخير».

طوقوا مخيمات البدو وأخذوا أبناءهم إلى المدارس في أثيوبيا العليا - بنين وبنات لم تتجاوز أعمارهم السادسة. أُرسلوا إلى مختلف المدارس في المناطق غير الصومالية من البلاد، لذلك فقدوا الصلة بشعبهم الصومالي وبواحدهم الآخر. وفرضت الأمهرية،لغة الأقلية على الأكثرية من الناس. العربية - اللغة الأجنبية بمفاهيمها الأجنبية فرضت بالقوة على عقل الطفل. لن يكون الإنسان بحاجة لأن يضرب بشدة كي يتعلم لغته الأم. أليس ذلك شيء أكيد؟ هل التعليم شيء طبيعي؟ هل تجري الأمور بسلاسة، عند ذاك؟ إن القوة المتسلطة للتراث المكتوب تُفرض بالقوة على تفكير من ينتمي إلى تراث غير مكتوب؟ القوة المتسلطة للكبار تُفرض على الطفل؟ لست أدري لم احتفظت بالقصاصة التي ضمت الخطاب الشهير لعام ١٩٥٦ الذي ألقاه الإمبراطور هيلاسيلاسي على الشعب في أوغادين. وعلى حافة القصاصة قرأت ما كتبته يد الخال هلال: «إنه أمر ثوري أليس كذلك أن ننتقم للغة شعبنا ولثقافته وعدالته؟»

أن تثأر. أن تكون انتقاميا؟

بعد المواجهات بيني وبين عوضان، قالت لي مصرا في أحد الأيام: «إن التفكير بما ستفعله حين تكبر يقلقني. فأنت لم تكد تصل السادسة من العمر لكن الكراهية التي في عينيك ترعبني. وكأنك حين تقول أنك ستقتل عوضان، أو تقتل العم قورح، أو من أجل ذلك الأمر، تقتلني فعلاً».

فاعترفت «صحيح، أنا انتقامي».

قالت «ولكن لماذا؟»

ولم أخبرها. كانت تبدو قلقة إلى حد بعيد وخائفة. ورحت أتلو آية قرآنية وهي ترددها من بعدي. استقرت يدي تحت ضلوعها وصار بإمكاني الإحساس بنبضات قلبها، صار بإمكاني الإحساس برعشة عواطفها المكبوتة.

Twitter: @ketab_n

«أنا آسف لأنني لا أستطيع معرفة من أنا حقاً».

قالت «لا بل تستطيع بالطبع، فمازلت صغيراً، وتكاد تكون طفلاً».

وتعاهدنا على السلام.

وتصرفت كأنني مقتنع أن الجلد من قبل عوضان هو جزء من طقس البلوغ، بمعنى أنه بطريقة ما، لصالحي - أليس تعلم القرآن يشكل جزءاً من طقس البلوغ روحياً؟ وكان أيضاً مهنة. إذ بإمكاني أن أعمل في تعليمه إن لم تكن لديّ حرفة غيره. وذكرتني بشيء ما قاله العم قورح: أن اللحم يعود للمعلم وبإمكانه أن يتعامل معه كيفما أراد. وإن كان لغرض تعليم هذا الولد كلام الله، وإن تطلب منك الأمر أن تغير لون جلده بالرضوض أو تجرحه قليلاً، فلك ذلك. فكما قال العم قورح، فإن ذلك من أجل تدريب روحه كي يطرد الشيطان.

نعم، أنا ومصرا قد تعاهدنا على السلام. كونا اتحاداً لجسدينا. فمهما يكن من الأمر، فهي امرأة ويمكن أن تؤخذ قهراً أو طوعاً. وأنا كنت طفلاً والأشخاص المتسلطين أنفسهم من الممكن أن يجلدونني أو يسيؤوا معاملتي.

قلت «هل تعدينني أنك لن تقابلي أحداً منهما؟»

فوعدتني. ثم قالت «وأنت تعدني أنك سوف تتعلم القرآن جيداً وتحسن السلوك».

فوعدتها.

وصار ثمة صمت طويل. ثم قالت: «الذي يجب أن تفعله في هذه الأيام كي تغدو رجلاً هو أن تختن، أن تتطهر». ونظرت إليّ.

إلتف رأسي، كأنه يلتف وحده، منفصلاً عن الجسد الذي فقد الشعور بارتباطه به. قطعت التواصل معها، لم أسمح لها بملامستي. تكومت في الطرف الآخر من السرير وجلست على الحافة، قدماي متدليتان تلامسان الأرض. إنه لشيء مثل الوباء أن أفكر أنني أخيراً سوف أفصل عن مصرا

Twitter: @ketab_n

وأن الفكرة قد عصرت قلبي ولعبت الألاعيب مع إيقاع دقاته. لسوف أعيش في منطقة الألم لأسبوعين أو شهر بعد الختان ثم سأبقى في جزيرة الوحدة - منعزلاً عن مصرا إلى الأبد. ولربما سوف يعطونني فراشاً لي وحدي وعلي أن أنام وحيداً من بعد ذلك.

(٣)

كنت أنام واللوح بين ساقي. وكان هذا لم يمكنني في منعها من الاقتراب مني فحسب، ولكنه منحني أيضاً الدفء والأمان والاستمرارية التي كنت بحاجة شديدة لها: وهي قراءة اللوح ليل نهار؛ وأن لا أرافق أي أحد عدا الكلام المقدس. نمت والكلام المقدس عذب على لساني وأصحو وأنا أردده بدلاً من اسم مصرا الدنس. وفي السر، كنت أشرب الكتابات التي مسحتها عن اللوح، معتقداً أنها سوف تساعدني في الحفاظ على حكمة الكلام، ليوم أو لأسبوع أو لشهر. خلال أوقات الصمت الطويلة بيني ومصرا، كان إصبعي يتتبع ويعيد التتبع، بمساعدة السبابة، الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية؛ وفي أوقات كنت أنقل آية قصيرة نويت حفظها، مستخدماً جسدي بدل اللوح؛ كنت أنقل الآية مرة بعد مرة حتى تمتلئ أوردتي، كالمحبرة، بدم الكلام. لقد أصبح الكلام هو رفيقي، واللوح هو الامتداد الذي أريده لجسدي، وكنت أتلو آيات مختارة من القرآن كلما زار عوضان مصرا، كما اعتاد أن يفعل ذلك بعد الغروب، وكانت تلك الآيات تعد بالجنة لأولئك المتقين وبالجحيم مكافأة للزناة والأشرار.

قالت له في إحدى الأمسيات بصوت عال كي أسمعها «هل تعلم بأن عسكر سوف يختن بعد الغد». ثم تنبأت «وسترى عندها أنه سيكون رجلاً».

نبح كلب ضال في البعيد، وعندها أوقدت الكلام وتدفق خطابي وسط الخوف مثل طائر يشعر باقتراب أحذية تسحق تحت أعقابها كومة حصى. وفوق ذاك، امتلأت أذناي بهدير ترافق مع ذلك الخوف. رفعت اللوح

Twitter: @ketab_n

وشددت عليه بقبضتي حتى بدأ الدم الذي اندفع إلى قلبي يدور طبيعياً مرة أخرى. وعندما طفوت ثانية، عدت من حيث أتيت - كنت يتيم الأم والأب وعلي أن ألد نفسي. أجل، علي أن أعيد خلق نفسي في صورة دنيوية، وفكرت في نفسي، أن الكلام قد هجرني، وليس بمقدوري الآن أن أعتمد عليه في مرافقتي. قلت لنفسي، الكلام ليس رحماً، الكلام، أقنعت نفسي، لن يأخذني مثل الأم، المرأة، مصرا. لذلك انتظرت مغادرة عوضان، وما أن عادت مصرا، رأتني واقفاً عند المدخل، مستعداً لأن نتعانق - فاتحاً ذراعي مثل طائر يفتح جناحيه حين ينوي الطائران. فتعانقنا بحرارة، تعانقنا بقوة، ثم ضحكت، ضحكت بطريقة أحسست فيها أنها تهزأ. فافترقت عنها شاعراً بالخيبة. وعند ذاك عرفت السبب. من الواضح أن اللوح قد أصبح عائقاً يمنعها من عناقي على نحو مريح، ذلك لأن نهايته الحادة تضايقها عند الحوض.

قالت لي مداعبة «أنت أيها الصغير العفريت».

فقلت «آسف».

فقالت لي مداعبة للمرة الثانية «لست متأكدة إن كنت آسفاً فعلاً». وبينما كانت تضحك، انحنت ملتوية، نصف متكئة عليّ بينما كانت تدعم جسدها الضخم على ركبتيها اللتين كانتا على الأرض. ورشاش من لعابها راح يقع على اللوح الذي كان مطروحاً إلى جانبي، على الأرض. ولاحظت حروف الآية التي كتبتها على فخذي العاري تداخلت في بعضها البعض، وتضببت عيون الحرف (و) وهي تنغلق بدموع الندم. وتراجعت الحروف الأخرى إلى أشكال مبهرجة وانتشار لتماثيل صغيرة لا أشكال لها.

وقلت أداعبها: «أنت أيها العفريت».

وكفت عن الضحك لتقول، «أنا آسفة»، لتعود للضحك مرة أخرى.

فقلت لها لأداعبها كما قبل: «لست متأكدة إن كنت آسفاً».

وأصغينا صامتين إلى الجنادب وهي تنادي بعضها البعض. وبعد قليل

Twitter: @ketab_n

كانت مصرا تتحرك حولي لتحضر لي الحمام. كنت أعرف ما كانت تفعل - تغطس إصبعها في الماء لتتحسس حرارته، لأنها كانت تعرف، أكثر من أي أحد آخر ما يلائم جسدي وما لا يلائمه. ثم قامت بخلط ماء بارد مع الحار واستغرقت وقتاً طويلاً كي تقرر فيما إذا كانت درجة الحرارة مناسبة. سألت نفسي فيما إذا كان من الممكن أنها نسيت ما كانت تعرفه عن جسدي في الأيام القليلة التي انفصلنا فيها عن بعضنا البعض باللوح أو ما كان قد كتب عليه. وقبل أن أجيب عن السؤال بنفسي، جرجرتني مصرا إلى باحة الدار المفتوحة: وتحت سماء الليل المحتشدة بالنجوم وقف كلانا في الطست. هي بكامل ثيابها وأنا عار. وبعلبة كانت في الأصل لمعجون الطماطم أو ما يشبه ذلك، راحت تغرف الماء الدافئ وتحممني. شعرت بيديها المتخشبتين على جلدي الغض الناعم، وشعرت بدغدغة فضحكت وضحكت وضحكت وكنت سعيداً جداً كما يكون الأطفال. كانت خشنة بعبث وفركت الصابون بشعري وتقول «أنا آسفة» حين تعلم أن ماء الصابون قد دخل في عيوني. ثم قبلتني في جبهتي المغطاة بالصابون ونظرت في عيني، اللتين فتحتهما حالما سكبت الماء على وجهي. كان القمر عالياً والنجوم كذلك، ولكنني لم أستطع رؤية لون الماء الذي تخيلته أزرق مثل الكدمة. كنت أقفز جذلاً ناسياً أن الكتابات التي على جسدي قد تلاشت في الماء في الطست نفسه الذي تلاشت فيه أوساخ أصابع قدمي. وقررت أن لا أضع اللوح بين رجلي في تلك الليلة، والليلة التالية أيضا. ونمنا أنا ومصرا متعانقين وتركت اللوح مركوناً في الزاوية لما بعد أن أغدو رجلاً.

(٤)

أجلسني الرجل الذي جيء به لختاني، حين جاء دوري، وحدي، وأصر أن أتلو آيات قرآنية حسب اختياري - وعليّ أن أنتظره حتى يسن سكينه التي سوف يستخدمها على حجر حاد جاء به معه. كان الخوف قد

Twitter: @ketab_n

استولى عليّ - الخوف من الألم، الخوف من أن أبقى وحيداً، الخوف من أن أُفصل عن مصرا. (على أية حال لم تكن هي هناك، إذ لم يسمح لها بالمجيء. بل جاء بدلاً عنها رجل، أحد أعمامي الكثيرين.) كان اللعاب لزجاً في فمي، وطبول الرعب تضرب في أذني، الخدر في جسدي أينما لمست، وتحسست: رجليّ ويديّ وفخذيّ وذكري، أي ألم!

طلب مني الرجل أن أنظر إلى السماء وأركز على أي شيء تقع عليه عيناي. كان ثمة فتحة في الغيوم وكان ثمة طائر، طائر يحلق عالياً باتجاه الفتحة في السماء. ركزت نظري على حركات الطائر، ركزت عليه حتى غدا نقطة في البعد السماوي. وكي أخفي فزعي، استثمرت كل طاقتي في النظر وذكرني طيران الطائر بطيراني المماثل في تخيلاتي. عندما نظرت ثانية، لم أستطع رؤية الطائر، لم أستطع إلا رؤية نسيج من الغيوم كان قد حيك ليكون مأوى يختفي الطائر فيه. قلت لنفسي، كان العالم في عيني وكان الطائر قد حلق به بعيداً، ليحمله بمنقاره، خفيفاً كالقشة، صغيراً كالذرة. الآن وقد غاب الطائر عن ناظري (لم أكن متأكداً فيما إذا كان نسراً أو لا)، لم يكن ثمة غير ضوء الشمس لوقت طويل، وكانت الشمس في عيني مما منع بصري عن رؤية بقية الكون. حتى عاد الطائر إلى الظهور خارجاً في بريق الشمس، جميلاً، أنثوياً، لعوباً، وعاد ليكون مركز عالمي وكنتُ في داخله، أحلّق، خفيفاً كتخيلات الأطفال، غير مهتم بالحقائق التي حولي - وعلى حين غرة حدث (زاك).

إنها منطقة مرعبة، منطقة الألم. وقد عبرتها وحيداً - لا التفكير بمصرا، ولا كلمات المواساة التي قالها عمي الذي جاء معي ولا الآية القرآنية، كل هذه الأشياء لم يكن بمستطاعها تخفيف الألم أو التخلص منه. هل أتذكر متى سكن الألم في جسدي ليعيش فيه لما يقارب الشهر؟ لقد دخل أولاً في حقوي. أو بالأحرى، هذا ما أتذكره. أتذكر أنني رأيت شبح الطائر وأن بقية العالم قد أمسى صغيراً مثل نقطة في السماء - ثم سحب الرجل غلفة ذكري، مسبباً، ألماً في حقوي، ثم في أجزاء جسدي الأخرى،

Twitter: @ketab_n

ألماً حاداً حتى اشتعلت أذناي بلهيب لاذع. وانتشر هذا اللهب تدريجياً - ثم تجمدت قدماي، واحترقت عيناي بالدموع، وترطبت خدودي من البكاء، وجف بلعومي كالصحراء. عند ذاك نظرت ورأيت الدم - بركة الدم التي سبحت فيها والتي ساعدتني في العبور إلى الجهة الأخرى لأكون رجلاً - مرة واحدة وإلى الأبد.

رأيت الرجل يكسر بيضة ولم أعرف السبب. ربما كانت الفكرة بأن ذلك يخفف الألم أو يساعد على إيقاف نزف الدم. فكرت أن بياض وصفار البيض قد اختلطا جيداً بدمي وأن الألوان التي رأيتها، الجمال الذي رأيته، قد أزال الألم، على الأقل لبضع ثوان حاسمة. كان على فخذي العاريين شعر مؤلم ناتئ وبارد فمسحته، كي أخفف نتوء الشعر ليعود الدم. ساعدوني كي أقف، ولا أذكر من ساعدني، وأخذوني من المكان الذي كنت جالساً فيه. لربما كان ذكري يعتمر قشرة البيض أو ربما لا؛ لربما قد ضمدت بالقطن أو بأشياء مماثلة ما أن أعيد الجلد إلى وضعه، رغم أنني لا أتذكر شيئاً غير الألم الذي جعلني يغمى عليّ. وحين صحوت من إغمائي وجدت نفسي وحيداً، على الفراش.

لقد اكتشفت أن الألم ليس هو المشكلة وحده. فمن ناحيته يمكنني أن أتعايش معه، يمكنني أن أقيم في منطقته. لكن المشكلة الكبيرة كانت في المكان. لأن الألم لم يحدد حالتي الذهنية فحسب بل حدد أيضاً حركاتي. لم يكن بمستطاعي التواصل جسدياً مع أي أحد حتى مصرا. أصبحت الشاغل الوحيد للفراش. الناس يبتعدون عني. كنت مثل رجل مجبس الذراع. وصار الناس يراعون عدم الاقتراب مني مادام ذلك ليس ضرورياً متنازلين عن المكان الذي يحيطهم لي - ففكرت، يالكرمهم ويا لعطفهم! نامت مصرا على بساط على الأرض. لقد منحوني فراشاً لأنني كنت مجروحاً. وتقتضي التقاليد، أن من المحرم على النساء البقاء قرب الأولاد حديثي الختان. ولذلك أبعدت مصرا. لكنني اختلقت ضجة مما اضطر عمي قورح أن يسمح لي بما أريد مرة أخرى. لم أكن أعبأ بما تحرمه

Twitter: @ketab_n

التقاليد، خصوصاً حين حرموني من امرأة لم تكن صومالية ولم يؤثروا في نفسيتها. حين سمحوا لها بالعودة إلي، لم أفكر «كم هو عطوف عمي ليسمح لها بأن تأتي وتبقى إلى جانبي في ساعة الشدة هذه». كلا، بل فكرت كم كنت ذكياً حين جعلت من الممكن أن تعود. كان لي شرشفي الخاص أغطي به نفسي، ذلك الذي لابد لي أن أبعده عن جرحي قليلاً - ها هي مشكلة المكان، مشكلة الأوامر الجغرافية للألم. وحين أوعزوا لمصرا بفراش لها وحدها ووضعوه في غرفتنا، رحت أزعم أن فراشنا قد أصبح فراشي - وكنت مغتبطاً. شيء آخر لابد أن يبتعد أيضاً - هو اللوح الذي كنت أحتفظ به بين رجلي. واكتشفت أنني كنت بحاجة إلى مكان لنفسي، أي أنني لا أطيق أي أحد أو أي شيء يقف في المجال بين نفسي وحيث نويت أن أتحرك. باختصار شغلت أبعاد جسدي مركز عالم ألمي، ما يستغرقني، وأخذت قياسات الجسم، مثلما كانت، وتتبعت المؤشرات التي تحددت من قبل محيطاتها المؤلمة. ووفق ذلك كنت أتحرك أو أرقد على الفراش.

حين كنت أُسأل عن حالي، كنت أكذب. كنت أقول أنني بخير وأن الألم قد حدد نفسه قليلاً أو كثيراً عند حدود موقع الجرح. والحقيقة التي لم أقلها لأحد أنني كانت لي، بالنتيجة، شخصيتان - واحدة تعود إلى الماضي الغامض الذي كانت مصرا جزءاً منه، وكان اللاألم جزءاً منها، ماض غامض كنت ألتحف فيه شرشفاً واحداً مع مصرا، ونقتسم فراشاً واحداً. بلى، إنه فراش واحد كنت أشعر فيه أنني مشدود إلى مصرا إلى حد أنني لم أكن أتخيل الحياة من دونها. الشخصية الثانية، أو إن أحببت، النصف الآخر، كان قد تمثل بالألم الذي سكن حقوي. لقد حملت هوية مواطنة بلاد الألم، وقد حُرر لي جواز سفر من هذه البلاد، ولا يمكنني تخيل متى تنتهي مدته أو بماذا يستبدل أو إلى أين من المحتم سيأخذني نداء السفر، ولا عند أية شواطئ سوف يتركني. وفكرت أن في منطقة الألم، ثمة شك أكيد، بمستقبل ما خارجها.

Twitter: @ketab_n

في اليوم الرابع زارني عمي. وضعت مصرا نفسها بينه والفراش الذي كنت أرقد عليه. وشرحت له ما الذي فعلته، تحدثت عني بطريقة ذكرتني بتاريخ اهتمامها وقلقها؛ ذلك التاريخ الذي كانت فيه الدليل. أخبرت عمي كم مرة نهضت لأتبول، كم من الملاعق أكلت من المرق، الذي فعلته والذي لم أفعله. تحدثت عن حالتي كأنني نصب تاريخي له ماض يستحق التنقيب فيه. ولأن عمي رغب في رؤية الجرح بنفسه، طلب من مصرا أن تتركنا وحدنا. وعند ذاك فقط مرت بخاطري فكرة أنها لم تره وتذكرتها تقول أن المجتمع يعتقد أن من غير المحمود أن ترى المرأة جرح الولد المختون لئلا يتقيح ولا يشفى. على أية حال تركتنا وحدنا. وألقى عمي بلطف نظرة معابثة عليه ومن الواضح أنه اقتنع أن كل شيء على أحسن حال. فدعى مصرا لتعود، فعادت فعلاً، وسألها عن الهدايا التي أرغب فيها.

نظرت نحوي مراعية مشاعري وهي صامتة. ونقل عمي نظره منها إليّ ثم أعاد النظر إليها. هل كانت تقول أنني الآن قد أصبحت رجلاً وبإمكاني أن أقرر بنفسي؟ ربما. تساءل عمي: «هل تريد أن أجلب لك أي شيء مادمت راقداً في الفراش؟»

كنت قد دورت الأمر من قبل في رأسي. قلت، «قلم».

فقال غير مصدق «قلم؟»

قلت، «قلم وورق».

نظر ثانية إلى مصرا، التي أومأت برأسها مستحسنة طلبي، ثم عاد لينظر إليّ. من الواضح أنه كان منشرحاً لاختياري وخصوصاً حين أضفت: «أريد أن أتمرن على استنساخ وإعادة الاستنساخ للآيات القرآنية التي تعهدت بحفظها كي لا أنساها».

فكر للحظة ثم قال، «أي شيء آخر؟»

سكتُ لوقت طويل. فقال لمصرا: «هل تفكرين بشيء؟»

رأيتهما يتبادلان الابتسامات. كنت أعرف أنهما اعتادا أن يتقابلان بين

Twitter: @ketab_n

الحين والآخر في الظلام. وتساءلت إن كنت أشكل عقبة لهما؛ وتساءلت، هل يحتاجان للفراش الذي أرقد عليه؟

وعاد إلي مرة أخرى: «عسكر؟»

لو كنت أجرؤ لقلت أنني كنت أريد أن تبتعد مصرا عني، تبعد إلى مكان ما، تبتعد عني لمدة أسبوع، لشهر أو شهرين. قلت لنفسي، لو كانت بعيدة فربما حدث الفطام بألم أقل ولكنت قادراً على تحمل الخسارة على نحو أفضل. ومع الزمن قد أكون قادراً على إبدال الخسارة بالربح، هكذا فكرت، وأنا أتطلع إلى عمي الذي كان لا يزال ينتظر طلباً مني.

قلت «لا أستطيع التفكير بأي شيء آخر».

لكن مصرا تحدثت فالتفتنا نحوها. (وأدركت في ذلك الوقت بينما أقلب أفكاري وأصغي بانتباه إلى عمي ومصرا، أنني كنت أقيم موقتاً في أرض اللاألم). قالت، «بإمكاني أن أفكر بشيء كان يريده دائماً».

«نعم؟»

قالت «كرة أرضية، أو أطلس. إنه يحب زرقة البحر. وكتاباً عن الخيول والطيور. أرجوك أجلب له كرة أرضية وخارطة للبحار والمحيطات». قالت ذلك متضرعة.

كنت مندهشاً مثل عمي. لم أكن أعلم أنني أحببت زرقة البحر - ليس في ذلك الوقت على أية حال - ولا حتى عالم المحيطات، أو كتاباً مصور عن الخيول والطيور. لكنني كنت شاكراً لمصرا - شاكراً أنها اختارت لتقدمني إلى عالم شعرت فيه أنني في غاية السعادة، منذ ذلك الحين.

(٥)

خلال إقامتي القصيرة في بلاد الألم، حدث لي أمران: الأول منهما أنني فقدت فيه نفسي (أتساءل فيما إذا كان هذا هو الذي دفع مصرا لتقترح أن أعطى خارطة للكرة الأرضية وما عليها من محيطات؟)؛ والأمر الثاني

Twitter: @ketab_n

أنني تشبثت بـ«ذات» ثانية، تلك التي ليس لها مكان ولا مجال لمصرا ولم تعد تهتم بها. أطلقت سراح مصرا، تاركاً نفسي أحوم حول البلاد التي أكتشفها من جديد، دون أن أفكر بمصرا، بل بالألم. لقد أمطرت بغزارة وسوى المطر الأرض ومسح الخرائط المقروءة، وإشارات التعريف والمعالم. وقابلت هناك أطفال السخام وصافحتهم. وقدموني إلى مستقبلي، قدري - من المؤكد أن شخصاً ما قد أشار إلي، ولم تكن مصرا هناك. أم هل كنت في بلاد الأحلام؟

غسلت مياه الأمطار اللوح الذي كتبت عليه صلواتي وأغرق الرعد إنشادي للآيات التي تمجد الإسلام. احتشد العالم مثل فُلك نوح، وامتد تحت قدمي. كنت مضطجعاً على ظهري، أتأمل في السقف، ورحت أطوف في حالة ذهول؛ رحت أطوف في ظلام الليلة الممطرة، جسدي ناقع في الألم، رحت أطوف - ناشراً نفسي كأنني كنت ماءً؛ رحت أطوف في داخل جسدي، الذي كان شعلة من اللهب لمستقبل مجهول. ثم سمعت صوتاً، سمعت صَوتاً عالي النبرة واضحاً، صوتاً يشبه صوتي بشكل غريب. سمعت صوتاً ليس هو تمتمة طفل كان لسانه يتلعثم باسم مصرا، بل صوت ذلك الرجل الذي يقول في فحواه ما يمكن ترجمته بـ«أنا أنا!» وقد هُدئت بما أسماه خالي هلال ب: «يقيني الوجودي».

وكنت نائماً وحدي.

وعلى حين غرة أضحيت طيراً محلقاً، طيراً، يمسك بمنقاره غلفة ختان ولد؛ طيراً انطوت في داخله، كالخارطة، تجربة الكون بأكملها، طيراً خرج من جسد إنسان ومسخ إلى حيوان حلُمي، يحلق أنى شاء. لقد تجولت في العالم الذي كانت مصرا جزءاً فيه من علو معقول، بعد طيران حلُمي جعلني ألهث. ولاحظت أن يدها قد فصلت عن باقي جسدها ورأسها، وصاحت بحزن ليس بالهين، «ماذا يعني كل هذا يا عسكر؟»

بقي المطر مستمراً دون توقف لساعات وكان سواد الليل حالكاً. تيقنت من تماسكي. ثم رأيت شاخصاً على بعد، شاخصاً يقف طويلاً، مثل

Twitter: @ketab_n

مسلة. سرت باتجاهه، كان فوق رأسه قنديل، واضح مثل هالة. كلما اقتربت من الشاخص كلما ابتعدنا. كنت مرهقاً ومبللاً وجسدي يؤلمني وسرت وسرت، وأمطرت وأمطرت وأمطرت. سرت ماسكاً مئزري من حافته، جسدي مستنفر، أحذر من كل خطوة. حتى وصلت إلى حيث مكان الشاخص والقنديل: لم يكن ثمة شاخص ولا تمثال ولا قنديل - ليس سوى بقايا جثة، وقد تمزقت بفعل انفجار أو شيء من هذا القبيل. تمشيت هنا وهناك، جامعاً الأجزاء للجسد البشري المتفجر، حتى بقي الرأس - فصرخت مذعوراً.

لم أعلم بأية لعنات صرخت أو نطقت. كل ما يمكنني قوله لكم أنني استيقظت، جسدي مبلل بالعرق، حنجرتي تؤلمني من الصراخ وأقول المرة بعد المرة، «من أنا؟ من أنا؟ أين أنا؟ أين أنا؟ أين أنا؟ أين أنا؟»

لم تكن مصرا هناك. كنت وحيداً.

ولم يخبرني أحد أين كنت، ولم يخبرني أحد من كنتُ.

(٦)

في الوقت الذي بدأت فيه أظلع في مشيي (على الرغم من وجود ألم خفيف بين ساقي) لاحظت أن ثمة هالة من الصمت على رؤوس الكثير من الناس - صمت شامل، صمت تقطعه بين الحين والآخر الصلوات والنذور. لم أر أبداً عدداً هائلاً من الحيوانات يُضحى بها كما رأيت ذلك في الأيام القليلة التالية، ضحايا كان يقدم لحمها مع البركات للشيوخ الذين كانوا يُدعون من أجل أن يصلوا لحماية أبناء مدينتنا كالافو الذين يُرسلون إلى جبهة الحرب.

سألت مصرا «حرب؟ ومن نحارب؟»

في تلك الأيام، كل شيء وكل شخص كان ينبض بنشاط لا يمكن تفسيره فيما يتعلق الأمر بي وقد قيل أن عدداً من الناس كانوا يستعدون

Twitter: @ketab_n

للزواج. وما أن يتزوج الرجال حتى يرحلون، مخلفين وراءهم غبار النصر، والنساء اللائي زُففن إليهم للتو، وآباءهم العجائز والصغار. وما أن تمر أسابيع حتى نرى أولئك الرجال الذين كانوا بيننا بكامل عافيتهم وقوتهم وقد عادوا جرحى وبحاجة إلى العناية الطبية. وهكذا علمت كيف ذهب عوضان إلى جبهة الحرب. كان الناس يجلسون قرب الراديوات وصارت تتردد كثيراً فيما بينهم أسماء مثل جغجيغا وهرر وإيمي وديرداوا - وقد كان للأطالس التي أهدانيها عمي فائدة كبيرة لي. كانت أغلب النسوة أُميات ولم يرين أو يمتلكن أبداً خريطة من قبل. وتحولت غرفتنا إلى شيء ما يشبه غرفة حربية. كنا ننشر الخرائط على الطاولات ونحسب كم يحتاج الجيش الصومالي للاستيلاء على هذه المدينة أو تلك وكم ذلك يبعد عنا أو عن مقاديشو أو، من أجل ذلك، عن أديس أبابا.

على أية حال، تبين لي تدريجياً أن قلب مصرا لم يكن مثل قلبي وقلوب الآخرين فيما يخص القضية. لقد كانت بالطبع تفرح عندما تسقط أية قرية أو مدينة بيد القوات الصومالية، لكنها كانت حذرة على نحو مبالغ، فتقول شيئاً من مثل «كم سيطول هذا الانتصار؟» أو «إلام سيقودنا هذا؟» أو «ماذا سيفعل الروس؟». سماها بعضهم «مفسدة المتعة»، ومرة أو مرتين سمعت أشياء اشد خبثاً تقال من ورائها. ثم، وبعد بضعة أيام، عرفت أن المزاج الغالب للناس إزاءها كان عدائياً. بإمكاني أن أحس أن الكثير والكثير من الناس بدؤوا يمتنعون عن المجيء إلى غرفتنا الحربية. تذكرت أنها كانت تختلف عنا، وأنها لم تكن صومالية مثلي أو مثل الآخرين؛ تذكرت كم كان الناس يسخرون من نطقها للحروف الصومالية الحلقية؛ وتذكرت ما قالته حول المحارب والحصان المسرج الذي اسقط فارسه. وأنا، أيضاً، رأيتها بضوء مختلف. كان مظهرها كئيباً وقبيحة. وتذكرت الحلم الذي رأيته من قبل، حلماً كان فيه إصبع الاتهام بالذنب الجماعي يشير إلى الصومالية في داخلي، وفي الآخرين. لقد تساءلت لم تختر مصرا لأن تكون واحدة منا؟ ألم تختر أن تقتسم معنا الألم والفرح؟ الآن لم تقرر إن كانت ستتركنا أو

Twitter: @ketab_n

تشاركنا قدرنا العسير. تحدثت عن هذا أيضاً، رغم أنني لا أظن أنني فهمت ما كانت تقصد في ذلك الوقت. قالت، «(أنا) أثيوبية». ولكن كيف لي أن أعرف أي أنواع الكائنات هو «الأثيوبي»؟ سألت الأسئلة المناسبة وحصلت على الأسئلة المناسبة. الصورة التي بقيت في ذهني، هي صورة بلد مركب من الرقع - مثل عباءة فقير. وكررت لم تكن قد قررت فيما إذا كانت ستعود إلى المرتفعات أو تمكث هنا. ورغم أنها لم تعد تفهم لغة المنطقة الأثيوبية التي ولدت فيها.

قلت، «سآتي معك».

وخبأت فرحتها إلى حد كبير بالقول بعد صمت طويل، طويل، مسحت خلاله دموعها التي لطخت خديها، «لا أريدك أن تأتي معي».

فسألتها، «لم؟»

فالتفتت نحوي، عيناها تلتهبان من الدموع الساخنة. «لأن ذلك خطر عليك. سيقتلونك، سيقتلك قومي، دون أي نقاش، دون أن يهتموا بمعرفة اسمك أو ما هي العلاقة بيننا».

تساءلت، «قومك، قومي - ما هؤلاء ومن هم؟»

قالت، وهي تتحدث عن مستقبل سوف نلتقي فيه «في يوم ما، في يوم ما، سوف تميز، ستعرف من هم قومك ومن هم قومي. في يوم ما». قالت متنبئة، تتحدث عن لاجدوى مستقبل تأمل أن نلتقي فيه ثانية، «لسوف تجد نفسك مع قومك وستجدني خارجهم. من يدري، ربما تقتلني لتحقق حلم قومك».

فسألتها، «أنا أقتل؟»

«أجل تقتل، تقترف جريمة القتل. تنهب. تغتصب. تقتل، باسم قومك».

قلت، «في يوم ما قد أقتلك؟»

قالت، «ربما». وخرجت من الغرفة.

Twitter: @ketab_n

الفصل السادس

(١)

خلال شهر أو ما يقارب ذلك، وخصوصاً بعد أن دارت حول آلته الرجولية دائرة معافاة، احتل انخراطه ضمن الجماعة كلها محل التساؤل مع النفس، الذي كان معتاداً عليه. وأخذ نصيبه من لذة الجنون التي أصابت مدينة كالافو، لذة عبرت عن نفسها في استسلام - ذاتي كامل لم يعرف من قبل، ولم يجرب في تاريخ صوماليي المنطقة. كانت الحرب مستعرة. في الوهلة الأولى كانت الحرب تذكر همساً ويتحدث الناس عنها مثلما يتحدثون عن مصيبة أكيدة. لكن ما كان يهم عسكر أنها بشرت، بالنسبة له، بمستقبل أنضج مما كان يتوقع، مستقبل يكون فيه مجهزاً بفرص مفتوحة ليثبت رجولته. وفي تفكيره، لم يستبعد أنه في أحد الأيام سوف يجند عضواً في جبهة تحرير الصومال الغربي، الجبهة التي تقاتل من أجل تحرير أوغادين من الهيمنة الأثيوبية. وفكر، من يدري، قد يصبح وهو في مثل هذا السن الغض حامل الراية للحركة؛ من يدري، ربما يجنده الأثيوبيون بالقوة إذا خسر الصوماليون الحرب؛ من يدري؟

وقال لنفسه، الشيء المهم الآن أنه غدا رجلاً في الأخير، وأنه قد انفصل تماماً عن شخص أمه - مصرا وفُطم. وخلال عملية البحث عن بديل، وجد أمّاً أخرى - هي الصومال، وطنه الأم. كانت تشبه شيئاً يبدأ مع ألم طقس انتهى بمتعة اكتشاف للذات أكبر، هو ذلك الذي يتعلق فيه المرء

Twitter: @ketab_n

بثدي الأم الكبرى المليء بالحليب الذي يعود له مثلما يعود إلى غيره. أم كريمة، أم ذات أثداء عديدة، ذات حلمات كثيرة، أم تعطي الكثير من نفسها وتطلب ولاءاً واحداً، ولاءاً لمثل، ولاءاً للفكرة، فكرة الوطنية - لا أكثر ولا أقل. وأن روحه المعذبة قد هدأت في اللحظة التي سار فيها على الخطى ذاتها، مع الآخرين، لمقابلة أم الجميع، كي تعانقه في اتحاد مبهج، كي ترضعه وتساعده في إعادة اكتشاف الحاجة في نفسه لأم مُطْلَقة.

في تلك الأيام كانت مصرا جالسة وحدها، منزوية ومستغرقة في القلق الهادئ كأنها تحولت تواً إلى بلد غريب عليها، بلد لم يأكل المرء من أرضه لقمة واحدة حين كان صغيراً، حين كان لم يكن الإنسان ليس غير فم مفتوح أبداً، فم يتضور حتى أنه يبكي لو لم يُحشَ بأي شيء - حفنة تراب، قطعة معدنية يمكن أن تطالها يد المرء، أي شيء وكل شيء. على أية حال، جلست، تنتظر (ولم يكن عسكر يدري ماذا تنتظر أو من هو!)؛ جلست متلفعة بثياب حداد؛ جلست بلا صديق، بعد أن ذهب عوضان، ورحل الرجال الذين اعتادوا أن يغدقوا متعتهم الشهوانية عليها إلى جبهة الحرب، يقاتلون العدو المشترك للشعب الصومالي (ولم تكن هي صومالية وقد عرف عسكر حينذاك ما معنى ذلك). وكان الرجال الذين يأتون إلى منازلهم، ليعودوا إلى القاعدة بين الحين والآخر، ربما ليوم أو يومين، والذين يتزوجون على عجل كي يتركوا خلفهم أرامل يأملون أن تقيم ذكرياتهم معهن وأطفالاً يحملون أسماءهم في النهاية. في مثل هذا الجو المستثار، كان لابد أن تغلق المدارس وغيرت الكثير من العوائل بيوتها، ورحل الكثيرون إلى مقاديشو، عاصمة الصومال. وكان ثمة الكثير من الكلام عن «الصومال» البلد الذي يشار له على أنه «الأم»، في إشارة إلى الجمع بينها وأوغادين/ طفلتها التي فصلت عنها. وحدد عسكر جهود الأم وطفلتها على الخارطة التي أهداها له عمه ليعرف مدى التقدم الذي أحرزه كل منهما، تماماً مثلما تتبع، على خارطة ذهنية أخرى، المسافة التي لاتحد بينه ومصرا. بدأت تفقد من وزنها؛ أما وزنه فيزداد. كانت تجلس في الزاوية، لائذة، أما هو،

Twitter: @ketab_n

فمشهور كالخارطة التي يقرؤها للأميين الذين يحوطونه، يتحدث بمعرفة، وبحماسة عن حرب التحرير التي يخوضها شعبه ضد شعب مصرا.

كان منجرفاً (وهكذا كان حال الأمة الصومالية في كل مكان) في حماسة مطلقة. وظل يفكر مع نفسه، وهو يحدق في الخارطة على الجدار، على الأقل ستكون ثمة تغيرات من وجهة نظر رسامي خرائط القرن الأفريقي. ولذلك أعاد بقلمه اللباد، مستعملاً جسده، رسم خارطة المناطق الناطقة بالصومالية، ونسخها انحناءة بعد انحناءة وانكفاء بعد انكفاء. وهذا ما ذكره بلقب أبيه: الحَمَري. ها هو أخيراً يتوحد ثانية مع مدينة حَمَر التي جاء منها لقب أبيه.

سأل عسكر مصرا في أحد الأيام التي كان لديهما مزاج للكلام «لماذا يشار إلى بعض البلدان على أنها (البلد الأم) والأخرى على أنها (البلد الأب) ما هو المنطق الذي يحكم هذا؟»

فقالت أنها لا تعرف.

«أتساءل إن كان ذلك يدل على تفكير الناس، أعني أن اختيارهم يشير إلى أي نوع من البشر هم. فيما إذا كان القلب دليلهم أو العقل، إن أدركت قصدي».

قالت، «أنت تعرف بالطبع أن الصومال تُرى بعيون شعرائها كالمرأة - تلك التي اعتادت خيانة رجلها الصومالي، ألا تعرف ذلك؟»

فأومأ برأسه، «نعم».

«أنت تعرف القصيدة التي يرى فيها الشاعر الصومال على أنها امرأة جميلة تلبس الحرير، ومعطرة بأزكى العطور، وتقبل هذه المرأة كل العروض التي يتقدم بها الرجال - الذين هم بالتحديد، الرجال الخمسة الذين تقدموا لخطبتها. وذهبت لتنام معهم، وتحمل من واحد طفلاً تسميه بإسم أبيه وقد أسقطت حملها عدة مرات»، قالت ذلك، ثم سكتت - ولم تنظر إليه كأنها كانت تعتذر.

Twitter: @ketab_n

فسألها، «وكيف يرى الشعراء الأثيوبيون بلادهم؟»

فقالت وهي جد حزينة «لا أعرف».

ما الذي يقوله كي يجعلها مستمتعة في تدفق الحديث بينهما؟ أولاً، سحب ملاءة ليغطي فخذيه العاريين الذين رسم عليهما الأرض التي تم تحريرها من قبل الصوماليين، ثم منح نفسه فرصة لقراءة تعابيرها وحركاتها - متيقناً أنها كانت، تحت كل الاحتمالات، تعاني من الدورة الشهرية. وكان ذلك شيء يحسدها عليه: أن تكون لها دورات شهرية هي في الواقع مظاهر تطهرية. قالت له مرة وهي تمزح، «تتخلص المرأة من الدم الفاسد، كل شهر حتى آخر العمر». كانت كارين قد وضحت له، «الرجال لا يفعلون ذلك». وحين تساءل، «لم لا؟» لا يستطيع الآن تذكر جواب مصرا، بل يتذكر أنه كان يفكر في دوراتها الشهرية كلما وقف عند الشجرة في بيتهما ويرى حياة الشجرة تروح هدراً وهو يتذوق نسغها ومرض بالمصادفة في اليوم التالي، مؤمناً أن الشجرة، التي زُرعت في يوم ولادته، على الرغم من أنها أطول منه وأكبر ظلاً، كانت سامة. هل كانت الحياة شربة سامة، لو أنها أُخذت بجرعات صحيحة، قدمت البقاء، وإلا قدمت الموت؟

كانت تقول، «هل تعلم أن الصوماليين مولعون بالحديث عن بلادهم، في الشعر مهما كان مستواه، كأنها ناقة - على أساس أن الناقة هي أم البشر، هل تعلم ذلك؟»

فكرر كلامها، «الناقة، أم البشر؟»

وساد الصمت. ثم، وفجأة، حدث انفجار، وبعد توقف قصير، دوى آخر، ثم ثالث وبعده رابع. هل وصلت الحرب إلى كالافو؟ إنها لقريبة. ذلك لأن ثمة دوي هيجان يسمع بين الحين والآخر. وأخذ عسكر الفضول فخرج يريد معرفة السبب. وهناك رأى مجموعة من الصبية يركضون باتجاه «تل الحكومة»، وكان على رأسهم صبي يكبر عسكر بعام أو عامين، وكان هذا الصبي يحمل الراية. كان العلم الصومالي ذو النجمات الخمس يرفرف في زهو النصر.

Twitter: @ketab_n

ولأن عسكر كان طفلاً - فلم يفلسف الأمر، وتخلى عن التفكير فيما إذا كانت مصرا أيضاً بحاجة إلى أم مثله وركض ليلتحق بأقرانه من الصبية والبنات. فبالنسبة لهم، كان من الممتع أن يكونوا في الجانب الغالب، كان من الممتع تجريد الجنود الأثيوبيين المندحرين والمنهارين من سلاحهم - الحرب متعة لهم. من الممتع أن تكون قوياً، من الممتع أن تكون الأشد ومن الممتع أن تكون القائد.

وقد برهن عسكر بأنه الأشد يوم تحمل الجلد المهين من قبل عوضان. فلم يرتعش لذلك. لقد عثر على مناصريه الأوائل من بين زملائه التلاميذ. وكان أيضاً الأكثر ذكاء، فلم يكن يحتاج إلى وقت طويل حتى يحفظ أية آية قرآنية: فمجرد أن يسمعها لمرة واحدة حتى يعيدها كما سمعها. لقبه عوضان بـ «الشيطان الصغير» ولقبه زملاؤه بـ «البطل الصغير».

كان داعراً، يفل ضفائر البنات أو تنوراتهن، ويشتمهن أو يتحدى من هم أكبر منه سناً إلى مباراة بالمصارعة. كان نشطاً جداً، دائب الحركة، ينظم لألعاب كرة القدم، ينظم مسابقات الركض وفعاليات أخرى للتنافس البدني. أحب الأولاد الالتفاف حوله. قبل أن يبلغ السادسة أصبح عسكر القائد الذي لا ينافسه أحد. ثم أن لديه مزيّة عن الأولاد الآخرين. فقد أظهرت مصرا تسامحاً أكثر من كل الآباء الآخرين. فلم تمانع من أن يجلب معه ما يريد منهم إلى البيت ليشاركوه الطعام، ولم تمانع ذهابه مادام يحافظ على تناول وجباته، ولم تمانع أيضاً لو أنه لم ينم في القيلولة. وعموماً، كان أحياناً يدعوها لتشاهده - لتكون البالغة الوحيدة من بين الجمهور.

اكتشفت مصرا وهي مسرورة أن إبداعات الأطفال لم تزل تدهشها. وراقبتهم يقيمون شاخصاً يشبه في يوم هذه الشخصية التاريخية، وفي اليوم التالي شخصية أخرى كانوا قد رأوا صورتها - ورموا شاخص عوضان في إحدى الصباحات، وفي المساء أحرقوا شاخص هيلاسي لاسي. لقد نحتوا صورة الإمبراطور من العلب الفارغة وقطع الخشب والحديد، ولكن يمكنك رؤية التشابه بين الشاخص المنحوت والرجل ظئيل الحجم الذي حكم

Twitter: @ketab_n

الإمبراطورية الأثيوبية لخمسة عقود. لكن هل كانوا يعلمون أن هيلاسي لاسي قد مات؟ كان عسكر يعرف ذلك بالطبع. فلماذا إذن كانوا يحرقون صورة الرجل الذي سقطت شعبيته؟ قال عسكر «هل تعتقدين أن أثيوبيا الحديثة يمكن أن ترى في صورة غير التي خلقها هيلاسي لاسي أو منيليك؟»

واتفقت معه. أصبحت عضواً في نادي معجبيه. آه، لقد أمسى قادراً على رسم خط فاصل بين الشخصيات التي في الذاكرة الشعبية وتلك التي ليست فيها. آه، لم يشترك عسكر أبداً في إقامة شاخص شبيه بالعم قورح. ليس لأن أطفال العم قورح قد يمانعون. بل كانوا أول من سيلتف حول قائدهم، إبن عمهم. كان واعياً للخط الواهي بين الشخصي والسياسي حتى أنه أوقف اللعب فجأة في اللحظة التي شك فيها أنها عبرت إلى المنطقة المحظورة.

كان لعسكر وأصدقائه مخزون كبير من المقطوعات التمثيلية التي غالباً ما يؤدونها. وكان يبدو أن جسده يمثل آلة تنتج مختلف الأصوات وأغاريد الطيور. فيصدر مثلاً الخنة المشؤومة لولد وُلد أشرمَ. ثم، ومباشرة بعد ذلك، يقلب جفنه الأعلى كأنه يعرض نفسه أمام طبيب للعيون. ولم يتوقف عند ذاك. فهو يعود ليمثل كأنه مصاب بالشلل يخرج الزبد من فمه؛ أما الآن فهو طفل وُلد مختل العقل. وقبل أن يسترد الحشد أنفاسه، يبتعد عسكر بخفة، ثم يلتف وينظر إلى الجميع على أنه أحول. ثم يصبح أحدب أو طفلاً مصاباً بالكساح.

في أحد الأيام، تسلل هو ورفاقه إلى بستان العدني وفلوا حبل البعير. ولكن قبل أن يفعلوا ذلك، أزال عسكر الغمامة عن عيني الدابة. ولك أن تتخيل - دابة تدور يوماً بعد يوم ولسنوات، مرة تجر عربة، ومرة تساعد في عمل الطاحونة، ومرة تسحب دلاء الماء من البئر - دابة بقيت معصوبة العينين ليلاً ونهاراً لسنوات، لم تر النور الطبيعي ولا الصناعي - ولم يفكوا وثاقها فقط بل أزالوا الغمامة التي على عينيها. صرخ البعير صرخة بشعة ثم

Twitter: @ketab_n

مات. وحين سئلوا، أنكر الجميع أنهم كانوا حاضرين عندما حدث ذلك. لكنهم جميعاً ذكروا اسم عسكر. ليس على أنه فعل ذلك، كلا. لكنهم ألمحوا إلى أنه من الممكن أن يعرف من هو المسؤول عن ذلك.

ولكن الأمر لم يمض دون عقاب. اقترح العم قورح أنه لابد أن يشغل بأمور كثيرة. وفتحت مدرسة لتنظيم هؤلاء الأولاد المنفلتين بإدارة عوضان. يُدرس فيها الحساب والجغرافيا والتاريخ والعربية. كان اسم المدرسة هو مدرسة كالافو الشعبية، لأنها قد أُسست ودعمت من قبل الناس، ولأن الحكومة الأثيوبية لم تجهز صوماليي أوغادين بأية وسائل تعليمية. لذلك كان عسكر يعود إلى البيت مرهقاً في الأسبوع الأول. فكان من الطبيعي أن الدروس القرآنية في الصباح ودروس الحساب وغيرها بعد الظهر، تستنزف طاقتهم، فيعود مترنحاً إلى المنزل، لم يكن راغباً في أن يصرف طاقته في ابتكار قواعد جديدة لألعاب ليستمتع بها كلياً جمهور راق.

بعد أسبوعين، فكر بألعاب جديدة، جذبت جمهورا أكبر. وسمعت مصرا أن الفتى الذي بعهدتها قد عاد إلى سابق عهده. ولم تكن لها أية حيلة في إبقائه في المنزل. وما الفائدة من ضربه؟ في بعض الأحيان كان يرفع قميصه عن ظهره، ويجلب خيزرانة ويطلب منها «هيا، عاقبيني، هيا».

وتوسلت إليه، «أرجوك، لا تجلب (العيون) إلى نفسك. قد يكون الناس سيئين وحاسدين وأشراراً. قد تجعلك (عيون) الناس تسقط مريضاً. إنها مرعبة عندما تكون سيئة، (عيون) الناس».

ولم يعبأ بتوسلاتها.

وسقط مريضاً بالفعل.

كان يبدو بلا دم - هزيل الجسم. سألته، «كيف تشعر؟»

هز رأسه. لم تكن حرارته مرتفعة، حمداً لله. ولم يتقيأ. كان يأكل كالمعتاد. ورغم ذاك كان «مريضاً». كان «المرض» واضحاً في نظرته، التي كانت تبدو مرتجفة؟ قال ورأسه بين يديه، «لا أدري». كان مرضاً غريباً.

Twitter: @ketab_n

وعلقت كارين «العيون الخبيثة شريرة».

كانت مصرا تتحسس جسده بأكمله وتقول له «هل ثمة أي جزء فيك يؤلمك؟ رأسك، بطنك، قلبك؟ أخبرني. في أي جزء فيك يستقر الألم؟»

قال «(لا أستطيع التفكير)، أهذا نوع من المرض؟»

«ماذا تعني بأنك لا تستطيع (التفكير)؟»

قال «إنه أمر غريب، أشعر كأن عقلي قد توقف عن التفكير، كأنني غير قادر على ابتداع أفكار جديدة. إنه إحساس غريب، ولكن هذا ما يحصل لي. وعيوني - أنظري إليها، شاحبة كاللحم الأبيض».

وفكرت مصرا، إنها العين الشريرة. وظلت تصلي وتصلي وتصلي طوال تلك الليلة. يا إلهي احم رجلي الصغير من طفح الحصبة؛ إحمه من أمراض الإسهال ومضاعفاته، ومن العمى، ومن السل والسعال الديكي. إحمه يا إلهي، من لين العظام ومن الطفيليات - ومن كل الأمراض التي لا نعرفها. إلهي، رد له ملكاته العقلية، آمين!

بعد يوم من ذلك، استشارت قورح وعوضان. اهتم كل منهما واقترح علاجين. فقد عرض عوضان أن يقرأ آيات مختارة من القرآن على جسد عسكر «الممدد على الفراش في ألم شيطاني»؛ أو لابد لأحد من أن يخرج الجن من الشيطان الصغير. أما العم قورح فقد اقترح أن يرسل زوجته شهاراويلو، التي كانت خبيرة في فصد الدم. أو سيدفع أجور البخور: إذ كما قال العم قورح «أن فصد الدم يعمل عندما يكون دم المريض فاسداً؛ فالتطهر بالتبخير يكون هو العلاج حين يكون ثمة شك أن شخصاً ما محسود، لذلك لابد للعين الشريرة من أن تطرد».

فاحتج عسكر، «لمن فصد الدم هذا؟ لي؟ كلا، شكراً».

قالت مصرا نصف جادة: «ربما تكون بحاجة إليه».

«لقد رأيتهم يفعلون ذلك».

تذكر قول أحدهم أن شاهراويلو قد وصفت فصد الدم للعم قورح

Twitter: @ketab_n

عندما لم يكن سعيداً عن أدائه في الفراش، إن لم يكن راضياً عن تنفسه أو إن كان مقتنعاً أنه يعاني من الالتهاب الرئوي. بعد ساعات، كانت تريه الدم الذي أندفع إلى السطح والذي تمكنت من جمعه في الكأس، الكأس المليء بالدم الداكن الذي رفعته أمامه على أنه دليل. كان العم قورح قد حدق بالدم الداكن وأومأ برأسه مستحسناً ويقول، «ألم أقل لك أنني كنت مريضاً». ويرى بعض الناس أن قورح كان في صحة جيدة لكن شاهراويلو قد قررت أن حان الوقت لوضع حد لغروره. قال الناس، وكي تذله، جعلته يضطجع على بساط على الأرض، مستسلماً وخاضعاً لها. ثم قامت بحركاتها، لهب وكؤوس وأمواس مستعملة. أما هو فقد ظل منبطحاً على ظهره معتلاً وينزف الدم من البقعة نفسها لساعات. منذ ذلك الحين خفف من ضرب زوجاته. ومنذ ذلك الحين خفف من التنمر على أطفاله. والأعجب من ذلك أن قورح قد عبر عن شكره لشاهراويلو التي، كما قال، قد حفظته في صحة وهيأة جيدتين.

قال عسكر الآن، «لا أريد فصد الدم».

«فماذا عن التبخير؟»

فقال «كلا شكراً».

كان قد رأى فصد الدم. كانت كارين هي المريضة. وفكر، يا للمرأة المسكينة. لقد اجبروها على أن تتفوه بأكاذيب، ركام من الأكاذيب. وإلا فكيف تسمي اسمها باسم رجل؟ كيف يمكن لكارين أن تقول، وهي تنظر مباشرة إلى الذي تعترف له «اسمي عبدالله»، لتعطي نفسها هوية لا تتناسب مع هويتها الحقيقية. ربما لأنهم «بخروها» بوضع منشفة حول رأسها، وجعلوها تتعرق، وتتصبب عرقاً تحت الدخان الخانق وراحت تسعل وتسعل. المرأة التي استأجروها لطرد العين الشريرة من جسد كارين تحدثت إلى كارين بلغة كان من المؤكد أنها ليست الصومالية. وثمة امرأتان كانتا تضربان كارين على صدرها كأنها طبل صغير، ضربتاها على رقبتها من الخلف مثل شخص اختنق بلقمة كبيرة من اللحم ولا يستطيع تقيؤها. تساءل

Twitter: @ketab_n

عسكر فيما إذا كانت كارين قد ابتلعت «العين الشريرة». كلا؟ رغم أنها لا معنى لها، فلم يكن رافضاً للفكرة.

«فالقرآن، إذن».

كلا، كلا. كان يعرف القرآن من البداية وحتى النهاية. لم يكن يرغب أن يُقرأ عليه وهو ممدّد على الفراش - وليس من قبل عوضان. وناقشها عسكر، من يدري، ربما تكون لدى الرجل أفكار مشؤومة. ماذا لو قرأ أجزاء من القرآن غير مناسبة، أجزاء قد تسبب له الصرع؟ لقد سمع مثل هذه القصة. في الحقيقة، كان يعرف شقيق الولد الذي حدثت له الحادثة. فقد اختار «رجل الدين» أجزاء من القرآن عامداً وبخبث وقرأها على جسد الفتى الذي يكرهه. هل كانت تعرف مصرا ما الذي حصل للفتى؟ «لديه الآن سائل فائض في جمجمته. وقد قالوا لي أن دماغه يفيض مثل نهر تهدمت ضفافه».

كانت مصرا قلقة، «من هو ذلك الفتى؟ أهو موجود حقاً؟»

«رأسه أكبر من بقية جسمه، وراح يفقد بصره وكذلك سمعه. وكل ذلك بسبب «رجل الدين» الشرير الذي قرأ الآيات غير الملائمة من الكتاب المقدس على جسد فتى بريء».

قالت مصرا: «هذا مجرم».

فقال، «أتفق معك».

وبقيا صامتين لبضعة دقائق. قالت، «ماذا نفعل إذن؟»

إلتمعت عيناه من المكر. وتظاهر بالتفكير. سألته، «ها ما الأمر؟ ما الأمر يا عسكر؟»

فاقترح، «إذهبي ونادى على عوضان».

«واطلبي منه أن يأت معه بنسخة من القرآن».

«كلا».

«ماذا إذن؟»

Twitter: @ketab_n

وصار عسكر أعظم ممثل كانت قد عرفته، واستضاءت نظرته بنوع من الخبث الشيطاني الذي تبرق فيه عيناه حين يكون عابثاً. فكررت عليه السؤال «ماذا إذن؟»

«قولي له أن يأتي بخيزرانته معه. أفضل أن يجلدني وعيناي مفتوحتان على أن يقرأ على جسدي الممدد على الفراش مريضاً القرآن وعيناي مغمضتان مطمئنتان».

وخلال لحظة نهض وراح يدور. غير ملابسه وارتدى بنطلوناً قصيراً وراح يبحث عن قميص ملائم له. قالت لنفسها، إنه بصحة جيدة. لقد كان «يفكر». رأته يفتش في الخزانة. سألته «ما الذي تبحث عنه؟»

قال، «سوف أحلق، أحلق ذقني، لتنبت لي لحية، لأكون رجلاً كالآخرين».

«تحلق؟ ماذا...؟»

كان قد غادر.

(٢)

جرح نفسه عندما كان يحلق. جرح ذقنه ونزفت شفته حين أمسك الموسى بطريقة خاطئة، ولم يثبت الشفرة ذات الاستعمال الواحد كما يجب. كانت ثمة أدوات للحلاقة في أماكن حوله وهو يعرف أين يجدها. كان عمه بعيداً في الحرب، وكذلك الكثير من الرجال. غسل وجهه بمحاليل ما بعد الحلاقة، ليرى أياً منها سيوقف نزف الدم. جعلت المحاليل رائحته طيبة لذلك سكب منها على أعلى فخذيه - معتقداً أن هذا سوف يزيل في الحال رائحة عرقه - والآن مادام لايزال ثمة القليل من المحلول في الزجاجة تردد في أن يرشه تحت إبطيه، الشيء الذي اعتاد أن يرى الرجال الكبار يفعلونه. لذلك اختار مسحوق الطلق، مقرراً أن ذلك هو الذي ينفع. إبتسم. وزفر هواء بخارياً ساخناً وكتب اسمه على ضباب المرآة ورأى أجزاء

Twitter: @ketab_n

من نفسه، أجزاء من دمه المتخثر أو النازف في حروف اسمه «ع» أو «س» أو «ك» أو «ر».

لم يتذكر من يأت أولاً - الفكرة في أنه لو حلق، سوف ينمو الشعر طبيعياً على ذقنه وشفته - أو أن عليه ملاحظة التغيرات الحاصلة في جسده ساعة بعد ساعة. قيل له أنه تطورت لديه عادة في أن ينهض قبل مصرا ليرى نفسه، وهو يضع رأسه إزاء إشارة وضعها على الحائط في اليوم السابق، فيما إذا كان قد استطال إنجاً أو اثنين في الأربع والعشرين ساعة الماضية. وغالباً ما يخيب ظنه إن لم يتمكن من أن يقرر في هذا، ولكنه لم يشعر بمثل تلك الخيبة حينما وقف أمام الشجرة التي غرزتها مصرا في يوم مولده.

قالت له في يوم صباح باكر حينما أيقظها بسبب الجلبة التي كان يفعلها «لابد لك أن تأكل وتأكل وتأكل إن أردت أن تكبر سريعاً. الشجرة تعيش من الأرض ومائها، إنها تأكل بشراهة وتشرب كميات كبيرة من الماء وتتنفس الهواء النقي دائما. عليك أن تأكل المزيد كي تغدو رجلاً، رجلاً كاملاً، طويلاً، عريض الكتفين، وربما تلتحي أيضاً». وما أن قالت له ذلك حتى عادت لتنام.

جعله القلق في أن يكون رجلاً ناضجاً، رجلاً على استعداد لأن ينضمّ إلى جيش التحرير، على استعداد لأن يموت ويقتل من أجل وطنه الأم، على استعداد لأن ينتقم لأبيه، جعله ذلك القلق يهتم بشؤون الطعام، جعله يأكل بإفراط حتى شعر بالمرض وتقيأ مرتين. لقد استولى على طعام مصرا لأنها لم تعد تستطيع أكل أي شيء وراح يحشو نفسه بأي شيء تقع عليه يداه. وحين لم يكد يقوى على التنفس، كان يرفع الصخور، ويمرن عضلاته ليقويها، ويتسلق الشجرة لتمرين ساقيه وذراعيه ثم يتدلى منها. وبعد أن يشعر بالإرهاق، يرتمي على فراشه لينام.

الذي ميز فترة الأحلام هذه عن غيرها، وما فصلها عن الأحلام الأخرى، هو حضور بستان كبير، غني بأنواع مختلفة من الفواكه الاستوائية. أكل هذه الفواكه، وعمل لنفسه قائمة طويلة من سلطة الفواكه وسبح في

Twitter: @ketab_n

الجدول الدافئ الذي كان ماؤه دافئاً والذي تنمو في قاعه أعشاب جميلة الملمس والجذب، تدغدغ الوجه بعذوبة، ذلك الوجه الذي نما مشدوداً، والذي نما على ذقنه الشعر، حريرياً ناعماً وفتياً رقيقاً. أجل ما الذي جعل التجربة فريدة أن البستان كان أخضر ذا استوائية فردوسية، كان هادئاً ذا سكون سماوي. وفي الطمأنينة العدنية التي وجد نفسه فيها، اكتشف أنه كان واثقاً من نفسه، سعيداً من وجوده في ذلك المكان، سعيداً ليكون هو نفسه. كان ثمة - امرأة - تبين منها ابتسامة أم بالقرب منه. نبتت المرأة عليه. وفي إحدى الليالي، وهو يحلم «إلتقط»ها مثل ثمرة وتفحصها؛ هي، التي كانت صغيرة مثل ثمرة، تقع تحت تركيز نظره. لم يكن قد رأى المرأة من قبل. كان متأكداً من ذلك. لكنه يعرفها مع ذاك. أين كان قد التقاها؟ لم يكن يعرف. كانت تناديه «يا ولدي» وكانت تتحدث عن ألم فراقه، هي التي ولدته، هي التي حملته في داخلها لأشهر، هي التي تدعي أنها «عاشت» فيه، هو الذي جعلها تحيا، هي التي تدعي أنها كانت دليله عندما ضلله الآخرون. واستيقظ في الصباح التالي ليواجه لغزاً محيراً: كان ثمة دم على الملاءة التي يتغطى بها وثمة دم تحته أيضا. والأشد خصوصية أن ثمة دماً على أعلى فخذيه. وراح يبحث عن الحل عند مصرا.

قالت وهي تنظر إليه بجدية ذات مغزى، «لقد بدأت تحيض. السؤال هو: هل ستصاب باللعنة الشهرية مثلنا نحن النساء أم أن ما حدث لك نادر كبيضة الديك؟»

فقال «لكنني رجل، فكيف لي أن أحيض؟»

فشعر بالحنق، وراح يتمشى بعيداً عنها بطريقة رجولية. وصاح أنه لن يمنحها الفرصة في أن تتمتع بالسخرية منه أو حتى يمنحها الفرصة في أن تغسل «أنوثته»، إن كان هذا هو الحال. ولكنه سأل نفسه بعد أن اغتسل، بأي حال من الأحوال، ما كان ذلك يعني؟ كيف يسيء جسده التصرف هكذا، وكيف يحيض؟ ثم قال لنفسه، مهما يكن، لن يسمح لتلك الأفكار بأن تبعده عن فعل ما يجعله رجلاً مستعداً للانضمام إلى الجيش، رجلاً

Twitter: @ketab_n

مستعداً للموت والقتل في سبيل وطنه الأم، رجلاً مستعداً للانتقام لأبيه.

(٣)

في ذلك اليوم رفض الطعام الذي قدمته له. أبعد الصحن الذي امتدت يدها به إليه جانباً ووبخها على ما فعلته عندما كان نائماً - ولطخت ملاءته وأعلى فخذيه بالدم. لماذا فعلت ذلك؟ وأقسمت أنها لم تقترب منه، ولم تلطخ ملاءته أو جسده بالدم.

قال «من أين جاء الدم إذن؟»

فأجابت «لا أدري».

وذكرها بالمحادثة التي جرت بينهما قبل بضعة أيام، تلك التي اعترف فيها أنه يحسد النساء على دورتهن الشهرية. «هل يمكن أنني (حضت) في الحلم؟»

«الحرب مستعرة، وثمة الكثير من التوتر - لذلك كل شيء ممكن. لا أعرف تفسير ذلك، صراحة. لم أعرف أبدا أن رجلاً قد حاض. ربما كان ذلك بسبب التوتر، الحرب. . . ؟»

وقاطعها «الحرب، التوتر - أي هراء!»

«فهل لديك أي تفسير؟»

فكر؛ ثم: «الرجال يبللون أنفسهم بين الحين والآخر؟»

«عندما ينامون، بلى».

تنهد. «ولكن المني أبيض؟»

«أبيض كالفضة».

سمعت أنيناً وانتظرت.

«أنت تعرفين العم حسن، أليس كذلك؟»

وأومأت برأسها، «نعم».

«وتتذكرين أنه تبول دماً وأخذوه إلى الطبيب؟»

Twitter: @ketab_n

واتفقت معه على أن ذلك صحيح.

«ربما هذا ما يفسر الأمر كله».

ولم يعجبها تفسيره. «هذا يعني أنك تفضل أن تكون مريضاً على أن تكون امرأة».

فقال «هذا شيء طبيعي، ومن يرغب في أن يكون امرأة؟»

فقالت «أنا».

«من السهل إدراك ذلك، فأنت، في كل الأحوال امرأة».

وغادر الغرفة.

(٤)

سأل عسكر مصرا عندما شاهد أن الأثيوبيين كانوا يبعثون بنسائهم وأطفالهم بعيداً عن نطاق الحرب، «قولي لي لماذا تغادر هذه الشاحنات المحملة بالنساء والأطفال كالافو؟ لماذا؟»

راحت تجيبه وهي مستمرة في مزج الماء الحار والبارد كي يستحم، «مادامت هنالك حرب فالرجل يبعث بزوجته وأطفاله ويبقى خلفهم ليدافع عن شرف شعبه وكرامته وممتلكاته أيضاً. فلربما تقضي قنبلة على حياة النساء والأطفال قبل أن يصلوا البيت؛ لربما تمكنت دزينة من الجنود ببنادقها البدائية في أن تمنع عدداً مشابهاً من الصوماليين المتسلحين بأسلحة بدائية من قتلهم».

وصار ثمة صمت.

قال «وأنت ألا تذهبين؟»

توقفت يدها عن تحريك الماء الذي تتحسس حرارته. وانتكست لتحدق - صامتة. قال لنفسه، «ربما هكذا يكون الموت - كانت مصرا جالسة، صامتة وتحدق، ويدها ملتصقة بالسطل الممتلئ بالماء الدافئ بينما كان الغبار الذي حولها لا يتحرك، وشفاه فمها تكشف وتخفي ابتسامة خبث

Twitter: @ketab_n

- ربما هكذا يكون الموت. وليس هذا ما رأيته ليلة أمس. مؤخرة رأس امرأة، ويد مرمية، وظُفر قُطع ثم رُمي».

كانت تقول له «أتطردني يا عسكر؟»

«كلا، ليس قبلي».

وعادت لتبتسم بخبث، وهي تذكر نفسها أن عسكر لم يكن قد أكمل الثامنة وها هو يتصرف كأنه رجل وهي مخلوقته. فتراجعت عن التعليق عما يجري بينهما، تراجعت عن الدخول في الحلقة ذاتها التي هو فيها، وانسحبت. فمهما كان الأمر يخدش السمعة، فهي تعتقد أنها هي من جعلته كما هو عليه، إنها هي التي ربته. فغيرت حالة التقاطع، وغيرت الموضوع. وقالت وهي تبحث عن يده، «تعال».

وقف بعيداً ويداه خلفه. «أين؟»

قالت له نصف واقفة لتمسك يده، «تعال. دعني أمنح جسدك تدليكاً جيداً فهذا هو ما يحتاجه. ثم نذهب في نزهة، وإن رغبت، راقب الرجال الأثيوبيين وهم يعثون بنسائهم وأطفالهم بعيداً إلى المرتفعات الآمنة».

كان فظاً وهو يصرخ بها «لا تلمسيني».

فقالت متراجعة، «آسفة».

عندذاك كانت الفكرة بأنه الآن قد غدا رجلاً ولا يريد أن يساعده أحد في الاستحمام قد أثرت فيها. كانت ستقوم بحركة مباشرة، تلك التي ستجعله يسترخي حتى تسكب عليه أول علبة ماء على رأسه، حتى يهدئ الماء أعصابه. كان قد تردد صدى صوته الحازم المدافع عبر جسدها - وكان عليها أن تنتظر لوقت طويل قبل أن تكون قادرة على أن تقول أي شيء. ثم سألته وهي لاتزال بعيدة، «هل تريد أن تحمم نفسك بنفسك؟»

ورأت (بعد أن مضى وقت طويل حتى نضجت الفكرة) كم كان «متسخاً» بانتظام - كأنه كان لعب بخشونة مع أقرانه وتصارع وتشقلب داخل وخارج حواجز التحدي. لم يكن يبدو عليه أنه متسخ على نحو بائس - بل

Twitter: @ketab_n

انه على الأقل كان قد تعمد الاتساخ. هبطت عليها تلك الفكرة كالوحي. وتساءلت أين كان - ومع من. تشككت في أنه سوف يخبرها، ولكنها حين فكرت أنها لن تخسر شيئاً في كل الأحوال، سألته: «أين كنت؟»

لم يخبرها بشيء.

«لماذا لا تخبرني أين كنت؟»

تصرف كأنه لديه سر يخفيه.

«ألا تخبرني؟»

فهز رأسه «كلا».

وبوضوح يغيض، رأت ما كان يريد - وهو أنه يذهب أنى شاء، وأنه سيتجول في إقليم متعته، وحيداً، ودون الحاجة إلى مساعدتها تحت أي ظرف، ويستحم عندما يقرر أنه يريد ذلك. وفسرت ذلك: أن العالم تردى إلى الفوضى؛ ثمة حرب مستعرة؛ وبسبب هذا الوضع الفوضوي صار الأولاد رجالاً يرفضون رعاية الأم.

وقال فجأة وعلى نحو مخيف، «أنا لا أستحم متى شئت فحسب، بل أستطيع القتل، ولا أستطيع القتل فحسب بل أستطيع أيضاً الدفاع عن نفسي ضد عدوي».

وأحست بالخطر من الشراسة التي تحدث بها وهو يقول «أستطيع القتل». فتصلبت واضطرب نبض قلبها، ثم راح ينبض سريعاً، واضطرب بقوة في قفص الأضلاع بسبب ردة فعلها التي بدت مكتومة. كان من الواضح أنها تضايقت فاستطالت واقفة، أعلى رافعة ثقلها على أصابع قدميها، مثل من ينظر عبر حافة صخرة عالية. «تقتل؟ تقتل من؟»

وما كان ليقول، مثلما لم يكن ليقول لها أنه عضو في مجموعة صغيرة من الشبان الذين يتدربون معاً على أنهم فدائيون والذين يتدحرجون على التراب حالما يُسقطون بعضهم البعض بالضربات الوهمية، صارخين، عند وقوعهم بأعلى صرخات الكونفو أو ما شابه. ويقول أولئك الشبان لبعضهم

Twitter: @ketab_n

البعض، أن الذي يهم في النهاية هو أن تقتل عدوك. لم تكن فكرة أن يتدرب مع أولئك الأولاد فكرته، بل فكرة الفتى الذي اغتصبه العدني - والذي أثبت أنه الأشد صلابة بينهم، وليس الأقل بينهم لأنه كان له هدف يقاتل من أجله وفي داخله حقد على كل إنسان في هذا العالم أو في سواه. وكان هو وليس عسكر الذي عمل ثقباً في جدار الطين الذي مكن مجموعة الأولاد من أن تلقي نظرة هادئة على الرجال (الذين من المعتقد أنهم ذاهبون إلى جبهة الحرب) الذين تدربوا على القتل، ومن خلال الثقب في الجدار رضعوا إيديولوجيا تجسدت في الحلم الذي رأوه على أنه حلمهم، الحلم الذي رأوا فيه مستقبلهم المشترك: مقاتلو شعب يناضل من أجل تحرير بلادهم من القهر الاستعماري. ولم يخبرها عن إصبع الشك الذي يشير به أصدقاؤه تجاهها. كانوا يقولون، ألم تكن هي من المرتفعات؟ فكيف الوثوق بها إذن؟ كانوا غالباً ما يصرون على التعبير عن مخاوفهم وشكوكهم في أنها قد تبوح بأسرارهم وتنقل المعلومات عنهم. وكان اشد ما يضايقه أنه لا يستطيع أن يقاسمها متعة أسراره؛ كان يؤلمه أنه لابد أن يكون متشككاً من تحركاتها عندما تتدخل في شؤونه، حين تسأله أين كان ومع من؟ قال للولد الذي اغتصبه العدني، «كأنك كنت قد ولدت وفيك تشوه وعليك أن تحمله أينما حللت». بالتأكيد ليس أفضل من فتى آخر كان يحمل في رأسه عاراً من نوع آخر يمكنه أن يقول له ذلك. قال الولد «الذي لحق به العار»، «أجل أفهم ذلك». فقال عسكر لنفسه، «لن أسمح لها غسل الأوساخ التي تتراكم في التدريب على قتل أعداء شعبي».

أما هي فكانت تقول، «ثمة مناطق عمى عديدة في الجسم البشري. وقد لا نعرفها حتى نعي أنفسنا؛ قد لا نحس كم نحن عاجزين حتى نُخضع أنفسنا لأيد أخرى. ومناطق العمى في جسد الطفل أكثر من أن تحصى - مستدق الظهر ومؤخرة العنق والوسخ ما بين الفخذين والوسخ إلى يسار ويمين المقعد. تراها الأم كلها، وتغمرها بالصابون، وفي النهاية تغسلها كلها». كانت تقترب منه بينما هو يتراجع وتقول له، «من الصعب أن يتعايش

Twitter: @ketab_n

المرء مع مناطق العمى هذه، تلك المنحنيات العمياء، الأجزاء المستورة من جسم المرء، التي لا ترى أبداً، لا ترُى إلا من خلال المرآة - وها أنا أفكر بالجمجمة - أو بالصعوبة في رؤية تلك الأج - وها أنا أفكر ب. . . إنني أفكر ب. . .»، كانت تتحدث وتتحرك نحوه وهو يتراجع ويكاد يصطدم بالشجرة التي زرعت يوم مولده، في المنطقة العمياء منه، أي في ظهره، قبل باقي جسده، وفجأة. . . سقطت قنبلة - بينهما تقريباً، رغم أنه كان الأقرب - وفصلت بينهما.

شد الرعب حنجرتها: فلم تتمكن من التكلم أو الصراخ فبقيت مضطجعة على الأرض، عاجزة، معفرة بالتراب - وما أن هدأت الضجة، واستتب وضع الغبار المتساقط، تساءلت عنه. كان هناك، معفراً قليلاً أو كثيراً بالتراب، وعيناه كانتا بقعتين من البريق تركزتا على ما حولهما وبدا كأنه حرك ذهنه اليقظ لمعرفة مكان انطلاق القنبلة.

بعد صمت طويل تمكنت من الاستفسار عنه، «هل أنت بخير؟»

نظر إليها - كانت كمن بعث تواً من الموت.

قال وهو لايزال متحدياً «من تظنينني؟»

بدت أشد سمرة بالتراب وقد سقط عنها المنديل الذي تلف فيه رأسها لينكشف رأسها الشديد العناد، قبيحاً مثل الخصلات المنعقدة وغير الممشطة. سارت مبتعدة بطريقة متحدية - متحدية وغير مبالية لما قد يحدث، غير مهتمة بم كان يفكر أو يفعل، أو فيما إذا كانت قد سقط سيل من القذائف على رأسها، أو على رأس أي أحد.

قال «من الجدير أن تمنحي نفسك فركاً جيداً. ربما لايزال الماء دافئاً ومن المؤكد أنك بحاجة للغسل كي يجعل روحك نشطة وحية وينظف جسدك».

ثم سقطت قذيفة ثانية - وهذه المرة كانت أقرب حيث كانت واقفة. وحين تمكنت من الوقوف ثانية بعد الانفجار، رأى كلاهما حشداً من الناس

Twitter: @ketab_n

أمامهما، كان أسمر كالطين - جمع من النساء والأطفال المتسلحين بالهراوات والعصي والمناجل، كان يتجه نحو التل حيث كانت تنطلق نار العدو. وقد وعد متحدث عن الحشد أنهم سوف يحتلون «تل الحكومة». وشعر عسكر أنه لايزال يتحتم عليه الانضمام ليساند الانتصار بيد لاغنى عنها.

فركض خلف الحشد.

(٥)

في ظهيرة اليوم التالي.

سألها فجأة، «أين تقع الصومال بالضبط يا مصرا؟»

كانت تسحب مصران دجاجة ذبحتها تواً. توقفت وحدقت فيه لا تعرف ما تقول. كان جبينها متجعداً من التركيز، مثل شخص كان يحاول أن يتذكر أين هو. ثم قالت وهي تبعد يديها الملطختين بالدم عن ثوبها: .«ألم ترها على الخارطة؟»

«خارطة؟ أية خارطة؟»

«إذهب وانظر إليها. تبدو منهمكاً فيها بسعادة».

أدهشها؛ لأنه أقر بصوت حزين: «لم يشرح لي أحد كيفية قراءة الخرائط، كما ترين، وألاقي صعوبة في فك شفرات كل الرموز».

أشاحت ببصرها عنه وتحولت نحو الدجاجة المذبوحة. ودت لو تستمر في نتف الريش (وفكر عسكر بدم الدجاجة الذي كان قانياً وليس أحمر داكناً كما كان يتوقع) وقالت: «لو اتجهت نحو الشرق سوف تصل الصومال».

قال مستاءً: «أعرف ذلك».

«ما الذي تريد أن تعرفه إذن؟ لماذا لا تتركني أكمل عملي؟ ألا تعلم أن وقتي ضيق لتهيئة وجبة مناسبة»

Twitter: @ketab_n

إنحنى والتقط ريشة كانت تطير في الكون اللامحدود. نظر إليها متفحصاً كأنه ينظر من خلال مجهر، ريشة من بين مائة من الريش التحقن بالعالم الذي لا حدود له. ثم نظر إلى لحم الدجاج الأبيض - كانت الدجاجة منتوفة الريش وميتة ومقطوعة الرأس، قابعة في القدر الكبير الذي وضعتها مصرا فيه. هل كانت لها روح؟ هل كان لها دماغ؟ تذكر كيف اختبر غريزتها الأمومية عندما هدد حياة فراخها. لقد هاجمته، فتحت جناحيها استعداداً للتصادم تقوقيء غاضبة تعبيراً عن الدفاع الأمومي. هرب عسكر للحفاظ على حياته. وكان سعيداً أن أحداً من الأولاد لم يره يهرب.

ومنذ ذلك الوقت، كلما دخل منزل كارين، كان يشك أن الدجاجة الأم، أو الأخريات، اللائي كبرن الآن، ينظرن إليه بعين التهديد، فيمشين في خطوة أوز إلى الجوانب كأنهن على استعداد للهجوم الجبهوي، وسوية، وقد ينقذهن ذلك من تهديداته المنذرة بالشؤم. ياللدجاجة المسكينة - إنها ميتة. ميتة لأنها كانت قد قتلت للاحتفال بالنصر - والحقيقة (وكان هذا الخبر منتشراً) أن عسكر قد يغادر إلى مقاديشو. وعموماً فقد قال العم قورح أنه سوف يأتي ويتحدث معه.

ثم جلب انتباهه شيء ما. كانت مصرا قد وضعت الدجاجة المنتوفة على جانبها وراحت تسحب مصارينها، ولاحظ بيضة - كاملة،لم تكن قد وضعتها، و، فكر، إنها غير مبالية لما يجري خارج عالمها الكامل. بيضة - مكورة كالكون - ذات حياة خاصة بها ومستقبل مجهول. قال آمراً، «لا تلمسيها يا مصرا».

نظرت إليه مندهشة. فقالت له وهي تلمسها «هذه».

قال، «لا تؤذيها».

أعطتها له - ببطء ولكن بلطف. أعطته البيضة بالعناية ذاتها لو أنها كانت تقدم له العالم. وتقبلها هو بإجلال كامل، بيدين مضمومتين كأنه كان يصلي. شيء ما أنذره ليكون حذراً ولا يسقطها. كانت دافئة. كان واثقاً أن الحياة كانت ترتعش داخلها حالما أطبق يديه عليها، ولكن ليس بقوة، بل

Twitter: @ketab_n

بلطف. ودخل مع نفسه في حوار وهو متردد. ألم تكن هناك مشابهة بين البيضة وبداياته؟ في داخل الدجاجة الميتة، ثمة حياة أخرى كامنة - مثلما كان هو كامن في جسد أمه الميت. كان مسروراً لأن البيضة قد أُنقذت من الدجاجة الميتة.

كانت مصرا تقول: «كنت أظن أنك تريد مني أن أخبرك بموقع الصومال؟»

أومأ عسكر برأسه موافقاً.

فقالت وهي تشير بسبابتها المرطبة بالدم: «هنا».

فكرر السؤال: «أين؟» كان ذلك من الواضح لأنه يحدق إلى السبابة، التي كانت تقطر دماً، ولم ينتبه إلى الاتجاه الذي تشير إليه. «أين؟»

قالت «هنا» للمرة الثانية بغتة، حتى أن عسكر يكاد يقسم أن «الصومال» كانت اسماً لشخص، ربما يكون صديقاً لها، شخص ربما دعي لتناول طعام كانت تحضره. أضافت «هذه هي الصومال، شرقاً».

ظن أن ثمة خطوات شخص قادم من الجهة الشرقية - فنظر، ورأى كارين. جاءت تحمل إناءً فارغاً. رغم أنها اليوم ترتدي أسمالاً لكنها تبدو جذابة، ومبتسمة أيضاً ومتحدثة وودودة ولها منظر من كان يريد شيئاً ما. قالت، «أعطونا من نعم الله وعسى أن تحل عليكم البركة دائماً».

قال عسكر: «اللحم لكم، والبيضة لي».

فبدت كارين متحيرة وهي تنظر إلى مصرا. «عم يتحدث؟»

فقالت لها «سليه».

وفي الوقت الذي تهيأت كارين لتسأله سؤالاً، كان قد ذهب.

بعد ثلاثة أيام، حدثت مناسبة أخرى مفرحة لثلاثتهم: كارين ومصرا وعسكر. لقد جاء أحدهم بكمية كبيرة من اللحم هدية من العم قورح. كانت كارين تجلس منعزلة ويبدو عليها أنها تجد صعوبة في أن تقرر من أي جهة كانت الرياح تهب. وبدت أصغر، أو هي فتاة في سن المراهقة. هكذا

Twitter: @ketab_n

بدت لعسكر، الذي رآها تقترب من الأرض كأنها كانت تصغي لسر. فكر بخنفساء، تتحسس ظلاً مجهولاً قد يسحقها، فتنتظر، وما أن تفعل ذلك، تتقرفص، لتجعل من نفسها أصغر، ساعية إلى أن لا تعرض من أجزائها شيئاً غير أجنحتها الصدفية القوية مثل ظهر السلحفاة - ومثل السلحفاة، قادرة على أن تبعد رأسها ورقبتها عن الخطر: ها هي! قالت مصرا: «ماذا تفعلين يا كارين؟»

قالت، «أفكر أن أسألك بأن تقرئي الطالع».

«بماذا؟»

«باللحم».

فكرت لدقيقة. «لقد استخدمت اللحم مرة واحدة. أما الماء والدم فنعم. من الصعب التنبؤ من خلال قراءة اللحم. فاللحم حياته قصيرة، ثمة شيء موقت في اللحم في الأجواء الحارة».

ضربت مصرا الأحشاء بلطف وكان بإمكانه أن يسمع تأوه الأمعاء وأنين المثانة. غسلت اللحم. ثم حملت قبضة منه وحملقت فيه لوقت طويل. وذابت في حالة من الترقب. كان موقفها كمن يصلي، وكان صمتها مركزاً مثل كنز. ثم بدأت تتفوه بكلمات لغتها غريبة لم يسمع بها كل من كارين وعسكر من قبل وكررت وكررت استحضارات التعزيم. نطقت بتعزيمة، أو ماكان يجب أن يكون كلمة اختبار، وبدت سعيدة مثل من وجد صديقاً مفقوداً. وراحت تتكلم ببطء هذه المرة. صوتها يتموج في دوائر (كالماء) تدور إثر دوائر أخرى. وكل من تعازيمها كانت تتشكل كنبوءات سوف تتحقق. أعادت في الأخير اللحم إلى الإناء.

وارتعش اللحم.

وشاهد عسكر نظرتها إلى قطعة اللحم السمينة، كأنها تقرأ الطالع في كف - وربما كانت كذلك فعلاً. وارتجف المستقبل، أحمر مثل زهرة الربيع المتفتحة، حياً ولكنه رغم ذاك ميت: إنه اللحم. والمستقبل في

Twitter: @ketab_n

اللحم، مهما كان لونه، مهما كان الذي سيأتي به، يستجيب لذهن مصرا المتسائل - وكانت راحتاها اللتان تقرأ منهما المستقبل، داميتين. تساءلت كارين: «ماذا كان ذلك يعني؟ أخبرينا ما الذي رأيته يا مصرا، أرجوك».

كانت أنفاس مصرا عميقة، أما عسكر فكان لاهثاً، وكانت كارين تختنق.

بدأت مصرا الكلام بصوت ليس صوتها، «للمسافر»، (وكان هذا قد ذكر عسكر بكارين حين تقمصت شخصية غير شخصيتها زاعمة أنها تدعى عبدالله)، ثم توقفت لبرهة. وبعد ذلك استمرت، لكنها هذه المرة أغمضت عينيها، «للمسافر، تسكن السخونة في أشكال السراب الندية والآمال المشابهة مثلما قد تجعل المسافر المتعب يؤمن بالطبيعة الخالدة لحالة الأشياء».

توقفت. تنفست بعمق. وانقطعت حمالة نهديها، فاستثار صدرها الثقيل. وصدمت عسكر دون إرادة منه فكرة أن كلاً من نهديها مستدير الشكل، يكاد يشبه البيضة الضخمة الحجم - مما أعاده إلى الواقع - إلى الحاضر.

قالت كارين، «ماذا يعني ذلك، بكلام واضح؟»

كان عسكر يفكر كيف كان الهواء ثقيلاً بالأمس من الريش المتساقط، وكيف أن اللحم اليوم يستخدم للتنبؤ بالمستقبل المملوء بالموت والدم والرحيل.

قالت مصرا، «سوف يسافر»، قالتها هذه المرة بصوتها.

«من ذا الذي يسافر؟»

«لقد رأيت لؤلؤة، صافية كماء المحيط الأزرق. هل سألتماني من ذا الذي يسافر؟ عسكر هو الذي يسافر ولسوف يضع قدميه في المحيط الهندي. ولسوف يكون سعيداً مثل من يكتشف بداياته».

تساءلت كارين: «وأنت هل ستسافرين أيضاً؟»

Twitter: @ketab_n

«لسوف أرافقه حتماً، ولكن ليس في الحال. لسوف يلتحق بخاله. الترتيبات تجري. لكنني أرى الموت والكرب والكارثة كلها ستحل».

وسألها وهو فرح جداً، «لسوف يسافر حالاً هذا الوغد عسكر؟ أخبرينا متى يتم ذلك؟»

«قريباً»

ثم وما أن قفز مغتبطاً، حتى أحس أن مكروهاً ما قد حدث - وأحس الدم في فمه. فتمالك نفسه ولاحظ أنه لم يعض لسانه؛ وأنه حين تفحص أسفل فمه أو لثته، لم يعثر على أي قروح أو جروح. فما معنى هذا بحق السماء؟ تذكر أن هذا يحدث له للمرة الثانية في حياته، في المرة الأولى عندما جلده عوضان ظلماً، وبحقد لا مبرر له، في اليوم الأول من دخوله المدرسة القرآنية. لربما ما كان ليقر بذلك، لكنه كان مرعوباً. وعلى العموم، قرر أن لا يخبرهما عنه.

وحين ارتفع المزيد من البخار من القدور الضخمة التي وضعت على النار، وتصاعد المزيد من الدخان من النار التي أوقدت تواً، استقرت نظرة عسكر القلقة على حنك كارين - إذ كانت للعجوز لحية خفيفة. يعرف أن البعض من النسوة ينمو لهن شعر خفيف في الذقن عندما تدخل أجسادهن في سن اليأس. سأل نفسه، من أخبره بذلك؟ انتقلت عيناه من ذقن كارين إلى يدي مصرا، اللتين مازالتا ملطختين بالدم. مستقبل دم وموت وكوارث - وبالنسبة له رحلة إلى مقاديشو.

شيء حسن!

(٦)

في تلك الليلة، عندما كان نائماً، حرك سريره في وسط الغرفة التي يتقاسمها مع مصرا، ليضعه تماماً تحت الثقب الذي عملته القنبلة في السقف كي يستطيع مراقبة السماء، ونام في دفء عصا نحتت على هيأة بندقية -

Twitter: @ketab_n

ويبدو أنها كانت هدية من الفتى الذي اغتصبه العدني. كانت جنة أحلامه قد خلت من خضرتها - والأشجار تعرت، وجفت الأغصان وراحت الأوراق تذوي ميتة والأثمار قد سقطت إلى الأرض لتتعفن لا أحد ليقطفها ولا أحد ليأكلها. ثمة نار هبت من إحدى نهايات تلك الجنة تلتهم طريقها بلا رحمة، وكان بإمكان عسكر أن يسمع قعقعتها كلما لعقت ألسنتها الملتهبة الهائجة كل شجرة وغصن وجذع وورقة يابسة. وزادت الريح السريعة الغاضبة من سعير النار. وفي أحيان كانت الريح تسوي الأرض كي تقوم النار بواجبها - وكانت قد أتمت نصفه أو تكاد - بسهولة. لذلك سُلب ماء الأرض فأمست خراباً مكسواً بالفحم الأسود.

وهو؟

كان مشدوداً إلى الأرض - ينتظر. وكان متأكداً أن النار - التي التهمت الريح، وجففت الأرض من مائها، والجنة من خضرتها - كان متأكداً أن ألسنة اللهب سوف تقضي عليه. فارتعش من الخوف. كان متيقناً أن تلك هي نهايته: بقلب تجمد من قبل وجسد انغمس في السيولة الحمراء للنار. توقفت ألسنة اللهب عند قدميه، ثم، وفي لحظة، انكمشت مثل الكوبرا، وتحركت لولبياً، متسلقة جسده حتى تلاشى البرد. شعر أن جسده يستعيد عافيته.

نظر فيما حوله - لا نار ولا ريح. هل كان ذلك يعني أن النار التي اكتسحت الأرض والسماء قد وجدت مستقراً لها في داخله؟ وأنه سوف يحترق عاجلاً أو آجلاً، ولا شيء يمكن أن يطفئه؟

ثم سقط المطر.

وقطع المطر حلمه.

لأن الماء انسكب من السماء وسقطت بضع قطرات في فمه المفتوح. من خلال فغره لفيه، ومن خلال لهاثه وهو يحاول استرداد أنفاسه وما إلى ذلك، يظنه المرء كأنه كان يغرق. جلس مثقلاً بالهموم. كان وجهه مبتلاً، وجسده ناقعاً بمياه الوضوء التي سقطت من السماء وعندها أحس في داخل

Twitter: @ketab_n

روحه بالانقطاع. «ما الذي أفعله هنا إذ أنام غارقاً بالأحلام بينما وطني الأم يحتاج إلى مساعدتي؟» زحف خارجاً من فراشه، بندقيته في قبضته الحازمة وسمع سقوط القنابل. كان الأفق مضاءً بالشرر اللاهب، صغيرة ومتقطعة، مثل اليراع في كثافة عتمة الليل الاستوائي. وضع «بندقيته» في فراشه، ووقف دون حراك يفكر.

ثم بدأ يتحرك بعد قليل، بهدوء مثل دخان البارود، وأشعل مصباحاً زيتياً. سار نحو مصرا ليوقظها. لكنه توقف. ثم رأى أن بندقيته التي وضعها ممدّدة على فراشه، كانت موجهة نحو رأس مصرا، مصرا التي كانت راقدة على ظهرها، نائمة في فوضى فردوسية. (ركبتاها كانتا مرفوعتين وساقاها مفتوحتين وأعضاؤها الخاصة ظاهرة.) إرتأى أن يتركها «كما هي». وخرج من الغرفة.

في الخارج كان الليل شديد الحلكة. لم تكن في السماء نجمة واحدة. كان الهواء ساكناً ولا شيء يتحرك. ثم لاحظ بضع نساء خرجن من أبواب النوم التي تفتحت. وسقطت قنبلة ليس بعيداً عن مكان وقوفهن. وساعد هذا على فتح بوابات الحديث وتدفق سيول المعلومات. استطاع أن يعرف من الحديث أن «تل العدو» قد أضرمت فيه النار. وقال أحدهم أن الأثيوبيين قد أحرقوا منازلهم في محاولة واضحة في منع الصوماليين من أخذها مع باقي الممتلكات وهي سليمة. مما حدا بالجميع، إلا عسكر، إلى أن يذهبوا نحو الحريق الذي على التل كي يتمكنوا من التقاط شيء من النار قبل أن تنطفئ! فكر في نفسه أنه قد أخذ حصته من النار، وتمنى أن تكون مصرا مستيقظة ليحتفلا بمولد «الصومال» في كالافو.

كان حزيناً جداً، من أجلها.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فاصل

لا يمكن للحياة إلا أن تعاش قُدماً وتُدرك بالتراجع.

كيركجارد

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(١)

قلت لنفسك، لا شيء مثل متعة السفر. متعة الفضاءات المفتوحة، إنه النعيم نفسه. ولبضع دقائق، انشغل ذهنك بالذنب والفقدان، أجل، حدث عقلك نفسه عن حقيقة أن مصرا لم تكن ذاهبة معك إلى مقاديشو. كنت تعساً وأصررت على أن تأتي معك. وأخبرك العم قورح، ولم تسمع ذلك منها، أن مصرا قد ألمحت أنها ترغب في البقاء. وتساءلت، ولكن لماذا؟ وكنت في حالة هستيريا؟ لماذا؟ قال عمك، «تقول مصرا، وأنا أنقل كلامها بالنص، أنها تفضل البقاء هنا حتى تغدو العظام البيض لمن لم يدفنوا مشوبة بسمرة تشبه سمرة الأرض. هذا ما تقوله مصرا، لكنها تعد بالمجيء إلى مكان انطلاق الشاحنة». فسافرت كما رُتب لك. غادرت كالافو في شاحنة متجهة إلى مقاديشو هي الأولى مع رجال ونساء وأطفال. وطلب العم قورح من أحد الرجال أن يعتني بك، كان يعرف ذلك الرجل الذي صادف أنه كان مسافراً إلى مقاديشو. ولم يطلب منه أن يساعدك عند الحاجة بل وثق به ليرسل معه رسالة بظرف مختوم، موجهة إلى الخال هلال، شقيق أمك. من الغريب كيف أن أسماء معينة لا تخطر بالبال أبدا وحين تخطر فإنها تعني لك الكثير. صحيح أنك لم «تسمع» أبدا باسم هلال أو صلاتو، زوجته. ولكن ها أنتم معاً. الحياة مليئة بالمفاجآت فعلاً.

شرح العم قورح للرجل الذي توكل بك، «إسم خاله هلال عبدالله واسم زوجته صلاتو. العنوان على الظرف الذي تحمله معك. إن واجهت

Twitter: @ketab_n

مصاعب في العثور عليه، أرجو منك الذهاب إلى الجامعة الوطنية وثمة من سيدلك عليه لأنه يعمل في التدريس هناك. لم نلتق أنا وهو أبداً ولم نتراسل». ثم قام العم قورح بعمل عاد بذاكرتك إلى الوراء إلى الصباح الذي سلمك فيه رسمياً إلى عوضان كونك تلميذاً للأخير. وهو يسلمك الآن إلى يد الرجل الذي أخذك من رسغك، وهو يقول لك، «تعال»، كأنك عنزة اشتراها. كنت قد وددت لو انه صافحك باحترام.

وها أنت للمرة الأولى في حياتك، تبتعد عن المكان تكونت وولدت فيه وحيث دفن فيه والداك وحبلك السري وأسنانك اللبنية. لأول مرة في حياتك تعبر حدوداً لم يتحدث عنها الصوماليون بخير فيما بينهم، ذلك لأن تلك الحدود تنكر وجود الشعب الصومالي الذي يعيش في كلا الجانبين، أجل مثل تلك الحدود تنكر وجود هذا الشعب كونه أمة. وسيقول الخال هلال أن «الصوماليين ذهبوا إلى الحرب من أجل أن يتطابق العرق الأصلي لإقليم أوغادين مع هويته الوطنية. وذلك هو ما يمنح الصوماليين القوة النفسية التي ليست لدى أي من الشعوب الأفريقية، إلا الشعب الصومالي. تخيل يا عسكر، أمة ذات انفصام في الشخصية، أية مأساة! وبالطبع، فللاعتبارات الاقتصادية والسياسية ثقلها وهي مهمة. ولكن نفسية الصومالي - طمأنينته وطمأنينة الجماعة هي التي تهم أكثر». ولكن هلا توقفت لحظة أرجوك؟ ليس من الأحرى بك أن تتعجل القصة ومتلقيها، أليس كذلك؟ لماذا لا تقدم الخال هلال وصلاتو حينما يأتي الوقت المناسب؟ وعد الآن إلى الشاحنة قبل أن تغادر كالافو. وأين مصرا؟

بإمكانك الآن أن ترى مصرا تائهة في لجة يأسها، إنها امرأة غارقة إلى القعر في بحر حزنها، دون أن تفصح أو أن تكون قادرة على الإفصاح، سوى أنها كانت تردد اسمك مرة بعد أخرى. كنت قد بدأت التفكير بخالك هلال والمستقبل الذي سيربطك به، ذلك المستقبل الذي سيمتد بطول المسافة على الخارطة بين كالافو ومقاديشو. كنت قد تفاديت النظر إلى مصرا إذ كان يؤلمك أن تراها حزينة، وفي كل الأحوال، كنت تعرف أن

Twitter: @ketab_n

عمك قورح لن يرضخ لطلبك بأن تأتي معك. لذلك رحت تنظر إلى الآخرين وهم يتعانقون بحب ويتبادلون قبل الوداع. كان الشباب يمسكون بأيدي آبائهم أو أولياء أمورهم ويقبلونها والبعض الآخر يتصافحون كالكبار، بينما يتعانق آخرون كالأصدقاء والأقران. سمعت الوعود التي يعدون بها بعضهم البعض. كنت تشعر بلمسة الخوف في أصواتهم، لأن الحرب في أوغادين مازالت تستعر ولا أحد يدري لمن ستكون الغلبة، ومع من كان النصر يقاتل. كانوا يعدون بالكتابة لبعضهم البعض، ويتبادلون الأخبار. كان ثمة أناس يصلون وشحاذون يُمنحون حق السلامة، هو رسم الوداع يعطيه كل مسافر إلى رجل أو امرأة ليدعون له بسلامة الوصول. راقبت عمك وهو يهب، من أجلك، حق السلامة إلى رجل لا يبدو أبداً بأنه شحاذ. وفكرت، إنه لم يدع لي بالحظ السعيد. ثم نظرت باتجاه مصرا، وقد سررت لرؤية كارين موجودة أيضا. وجاءت إليك.

تساءلت: «كيف تشعر وأنت تغادرنا جميعا؟»

كانوا قد ساعدوك للصعود على ظهر الشاحنة، وبسبب ذلك كان ثمة الكثير من الفوضى والكثير من تدفق العواطف، كان المكان يعج بضوضاء جحيمية. صحت لكارين: «لقد بدأت منذ الآن اشعر بالفقدان، وها هو يتخذ شكلاً مرهقاً».

تنحت لتسمح لرجل قلق كان يقوم بوداع آخر. ثم قالت، «ماذا تقصد؟»

قُلت لكارين «كأنني لا روح عندي، أستطيع أن أتحسس أضلاعي بأصابعي، أو أستطيع أن أدق على صدري، فيصدر صوتاً أجوف، كأن لاشيء في داخله، لاشيء البتة، كأن لا قلب لدي ينبض، ولا رئتين تتنفسان ولا رأس يمكنه التفكير بوضوح».

كانت عزيزة عليك! فقالت لك: «كلام لا معنى له».

لاحظت أن مصرا تبتعد عنك قاصدة، كأنها كانت لم ترد أي اتصال جسدي معك. ربما كانت تظن أنكما ما أن تتلامسان حتى يغدو من الصعب

Twitter: @ketab_n

فصلكما. لكنك الآن وأنت تعود إلى (حمر) التي يعود إليها لقب أبيك، تتساءل هل من المحتمل أن تعود هي إلى أرضها أيضاً؟ فما دام كل إنسان قد جاء من مكان ما، فقد قررت أنها، هي أيضاً، ستعود إلى المكان الذي جاءت منه. من يدري فقد تمتطي الحصان الذي أسقط فارسه، أو تقابل والدها الذي كان من العائلات الأمهرية النبيلة؛ أو أمها أو أحد إخوانها غير الأشقاء أو أخواتها أو أبناء عمومتها. فللحروب أسلوبها في تفجير المفاجآت، البعض منها جميلة والبعض الآخر سيئة حد الموت.

آه، ويا لغرابة الأشياء! تتنح كارين الآن لتفسح المجال لمصرا التي سلمتك شيئاً ما. وأنت تأخذه شعرت بشيء ما يتحرك، وائتلق في عينيك رقيق الألمنيوم الذي لفته فيه مصرا. ولكن ماذا كان ذلك؟ لقد كان طعاماً لا يزال ساخناً. كيف عرفت أن معدتك خاوية؟ رحت تأكل بنهم وأسرفت وأسرفت. أما العم قورح، الذي كان يتحدث مع أصدقاء له، فقد كانت ترافقه شاهراويلو وبعض من أبناء عمك. كانوا يتساءلون من أعطاك الطعام الذي «سحرك»؟ «انظروا إليه. ستظنون أن هنالك مجاعة في مقاديشو». عند ذاك ذكرت شاهراويلو أن ثمة إشاعة بأن مصرا قد وضعت دجاجة مذبوحة تقطر دماً فوق رأسك. وقد فكرت، دعهم يقولون ما يشاؤون. آمل أنني بعد أن ملأت معدتي بالطعام الذي حضرته مصرا، سأكون قادراً على التعبير عن مشاعري بطريقة أفضل.

كنت مشغولاً بالأكل وسمعت اشتغال محرك الشاحنة، ورأيت الدخان الأبيض للعادم - وقبل أن تعرف ما الذي يحدث، أدركت أن الشاحنة كانت تتحرك. وحين نظرت إلى الخلف رأيت أيديَ تلوح لك وسمعت أصوات الوداع لكنك لم تستطع أن تميز أي يد كانت لمصرا أو لكارين أو أي أحد آخر؛ ولم يكن بإمكانك أن تميز صراخ أحدهم عن الآخر. وقفت بأعلى ما تستطيع. وحينذاك، كانت المسافة البعيدة تجعل من مصرا أصغر، جعلت منها المسافة أقصر من نصف حجمها. ولكن ما أن تلاشت في الأخير، سوية مع مدينتها كالافو والعم قورح وزوجته شاهراويلو وأولاد عمك -

Twitter: @ketab_n

أجل بعد أن لم تمس كالافو غير نقطة في المسافة المغبرة، أصغر من ذرة التراب التي تتمثل بها على الخارطة، عندذاك أحسست بأن قلبك قد بدأ ينبض ثانية وأن لديك رئتين لتتنفس بهما، وعدت لتتكامل من جديد. وكان الرجل الذي توكل بك يقول: «إنه مثل بحر يبدأ من حيث تنتهي اليابسة. لأن مقاديشو، أو أي مدينة في الجمهورية، هي طريق يقود إلى طرق أخرى، طريق ذو هدف يفتح أمام الإنسان أبواباً عديدة».

فكرت أن الحديث لابد وقد وصل إلى مرحلة متقدمة، لأنك لم تستطع تذكر ما حدث من قبل. أصغيت باهتمام، وسأل أحد ما الشخص الجالس إلى جانبك. «هل يمكنك أن تقول لي بلغة بسيطة ما أمكنك، لماذا تعبر حدوداً لم يعد لها وجود، وتذهب إلى مقاديشو التي لم تذهب إليها من قبل؟»

تمهل الرجل. بعد سنوات، سوف تتذكر جلسته كونها تشبه جلسة شخص من مناطق أخرى مزقتها الحرب، رجل يقيم في فترة الهدنة الفسيحة بلبنان أو أوغندا يستمتع بالهدوء الذي يعقب نهب الجيش. أجاب الرجل: «إنني أرحل عن القبور».

وأومأ عدد من الرؤوس موافقين.

فاستمر الرجل: «إنني أرحل مبتعداً عن جثث لم تدفن. يمكنك أن تقول أن القبور للتاريخ. اعني، أن تلك جثث لابد أن تدفن في قبر التاريخ لكنها يجب أن لا تنبش، تحت أي ظرف، كل مائة عام أو ما إلى ذلك. يأتي الصوماليون، يذهب «الأثيوبيون»، كل عشرين أو خمسين أو مائة سنة. إن موجات من الأرواح الأثيرية تملأ جو أي مكان لم تدفن فيه الجثث، أشباح، مسعورة كالكلاب، تتصيد معاً، في جماعات، في الظلام وهي ترعب السكان - إنها روح مشردة تبحث عن جسد لتسكن فيه».

فعلق أحدهم: «أجرؤ على قول ذلك!»

وتساءل آخر: «من هذه الجثث غير المدفونة».

Twitter: @ketab_n

فابتسم الرجل. قال: «إنها ذكرياتنا، إنها ماضينا الجمعي، أو إن أحببت، ماضينا الفردي. إننا نترك أجسادنا كي نتمكن ربما من السفر خفافاً - إننا أمل مجسد. وبعد ذاك، إننا حلم الأمة».

تساءلت فيما إذا فهم الآخرون ما يقوله الرجل مادمت لم تفهم شيئاً من كلامه. ورحت تنظر إلى الوجوه بحثاً عن إشارات وعند ذاك حضرت إلى ذهنك صورة مصرا لتضع نفسها بينك وبين الرجال الذين تحدق فيهم. بعد سنوات، ستتذكر الصورة نفسها في المدرسة بمقاديشو عندما كان أحد أقارب صلاتو يعرض عليك صور المومياوات المصرية، الذي كان اسمه عثمان. كانت صورة مصرا التي تصر على فرض نفسها في ذهنك، قد ماتت من قبل، لكنها محفوظة؛ مصرا التي كان جسدها بارداً كالثلج حالما لمسته، كأنها قد أمضت ليلة أو ليلتين في ثلاجة المشرحة. ولكن كان ثمة هدوء لا يصدق حول جثتها، كأنها هي نفسها قد تخلت عن حياتها بالتهيئة ذاتها التي تهيأ فيها آرمادو الزوج الأخير لكارين لملاك الموت. لم يكن ثمة صراع ولا ألم، بل جاء الموت مثل ضيف مرحب به - وأقام، هذا هو كل ما في الأمر. وقد عزيت نفسك حين تذكرت أنها كانت تبدو مثل الميتة حين تنام، يداها معقودتان بلطف فوق جبل صدرها بالكاد تسمع شخيرها أو صوت تنفسها. ألم تمثل الموت عابثة مرتين؟ وفكرت أن ذهنك يستحضر هذه الصور القبيحة لأنك تشعر بالذنب لفراقها، تشعر بالذنب لأنك تغادر من دونها. ثم أمرت الصورة بالتلاشي - وهكذا فعلت. وكنت تحدق بوجوه الرجال، بصمت، مثل صمت المسلم بعد أن يحمد الله بعد العطاس.

ثم أطلق أحد الرجال أغنية وطنية، لكن صوته قد خيب سعيه. غير أن رجلاً آخر، وهذه المرة هو الرجل الذي أوكلوا بك إليه، إلتقط الأغنية ليرفعها إلى ذلك النطاق غير المحدود بين الأرض والسماء، النطاق الذي يقال أنه موطن الملائكة. كان صوت الرجل شجياً، وما زاد جماله، أن الرجل كان يعلم بجمال صوته. غنى إحدى أغاني الخمسينيات، من فترة

Twitter: @ketab_n

القرش وجواهرة - لول الشهيرة. كان ذلك مع سرعة الشاحنة قد نقلا خيالك إلى أعالي البحار وتخيلت نفسك طافياً، وحيداً تماماً، على الماء الفضي الصافي مستسلماً كلياً. لا شيء يهمك من بعد ذاك. كان من الممكن أن تموتوا جميعاً بقلبة واحدة للشاحنة ومن المحتمل أن لا تشعر أجسادكم بأقل ألم وهي تفارق الحياة. إن الأصوات الجميلة التي تغني بجمال أخاذ الأغاني الوطنية الجميلة نادرة وكنت تقدر الصوت الفاتن للرجل لسبب آخر، لأنه أعاد إلى مسامعك صوت العم قورح الذي كان قبيحاً ومتقطع الأنفاس، مثل صوت أبله غاضب لا يعرف سوى إصدار الأوامر. ولسوف تعيد تقييم حكمك فيما بعد، ما إن تصل إلى مقاديشو وتسمع صوت الخال هلال. عموماً، يبدو أنك قد دخلت فعلاً في البرزخ بين الواقع والحلم حين أصغيت إلى الأغنية وفكرت لو أنك مت، فلن تستيقظ، بأية حال، من الموت ولذلك لا تعرف أنك كنت حياً. أغنية تبعت أخرى. كان الآخرون إما يسهمون أو يطلبون أغانيَ معينة من الرجل وعندما كان لا يعرف الكلمات أو لا يتذكر اللحن كانوا يساعدونه في ذلك. لكنك لم تشترك في أية أغنية، ولم تطلب منه أن يغني لك أية أغنية. ذلك لأن روحك كانت تنهض في داخلك، وتتسامى أعلى فأعلى فوق جسدك، مثلما يتصاعد اللهاث في المرء، ليستبدل بالهذيان الذي يشعر به المرء عندما يتسلق جبلاً شامخاً جدا.

ثم أبطأت الشاحنة. كانت السرعة تعني لك الكثير - إذ جعلتك تترك دونك، كما لو على الأرض، الدنيا التي كان عليها ماضيك؛ لقد ساعدتك في الوصول إلى قمة لا يمكن الوصول إليها، هي مقاطعة تشكلت فحسب من أشد المخيلات خصوبة. رحت تنتبه الآن أكثر لتقرأ علامات القلق على وجوه المسافرين الآخرين. تساءل أحدهم «ما الذي يحدث؟ لماذا نبطيء؟»

المسافرون الذين يجلسون في القمرة إلى جانب السائق وحدهم يعرفون السبب. وحين تسلق أحدهم جانب الشاحنة ليسأل عن السبب، علمت أنكم تقتربون من مدينة فير - فير، الحدودية. وكان أحد ما يسأل:

Twitter: @ketab_n

«هل تعلمون أي علم ترفعه فير - فير اليوم؟» وتساءل أحد ما: «هل تعلمون أي علم يرفرف فوق فير - فير اليوم؟»

قال الرجال في جوقة: «العلم الصومالي بالطبع».

وطرأت فكرت أوحت بالشعر في داخل رجل آخر، «السماء زرقاء ومقدسة وكذلك العلم الصومالي؛ العلم الذي يشبه لونه لون بيت الله. فله في وسطه تماماً نجمة ذات خمسة رؤوس ولكل رأس مقاطع تتحدث بالصومالية. الصومال البريطاني سابقاً والصومال الإيطالي سيلتحقان قريباً من خلال أوغادين».

أومأ الرجال برؤوسهم. وران صمت. كان السؤال الذي يشغل بال الجميع هو إلى أي مدى سيدوم النصر. ولكن في مثل هذا الحفل البهيج لدى أهالي فير - في وهم يستقبلونكم، بدا أن ليس من اللائق أن تقلق. توقفت الشاحنة، وقبل أن تتمكنوا من الهبوط منها، انضم إليكم الكثير من أهالي المدينة وسوية غنيتم أغاني وطنية أُلفت في الأربعينيات من قبل مؤسسي نادي الشباب الصومالي. غنيتم الأغاني حتى وصلتم ما كان يدعى وسط المدينة. فنزلتم أخيراً. وبينما كان الطعام يُحضر لكم ذهب البعض من الناس للصلاة وذهبت أنت وآخرون لتلقوا نظرة على العلم الصومالي وهو يرفرف في سماوات أحلامكم الوطنية.

بعد قليل أشعل أحدهم النار في العلم الأثيوبي؛ وتبعته نيران الفرح ما إن راح يجري دائراً في الفسحة المعدة لهذا الغرض. وفي صمت قانط، راقبت الألوان الأحمر والأصفر والأخضر للعلم الأثيوبي وهي تتحول إلى فحم.

(٢)

وقفت جانباً. لم تشترك في ممارسة حرق العلم. ليس لأنك كنت تعتقد أنها خطأ، بل لأن لديك أفكاراً أخرى كانت تشغلك. تذكرت، من

Twitter: @ketab_n

قبل، أنك كنت تمسك بالظرف السميك الذي سلمه العم قورح للرجل الذي أُوكلت له مهمة توصيلك إلى باب بيت خالك هلال. كان الرجل مستثاراً جداً فلم يستطع البقاء بعيداً عن طقس حرق العلم. فقذف بنفسه، في الأمام، يرقص كالمجنون حول لهيب الألوان المحترقة. كان يرمي بنفسه، مرة إلى الأمام، ومرة إلى الوراء وأخرى إلى الجانبين - وفي مرة تالية يطير بأجنحة كاليراعة؛ وفي أخرى لاتعوقه رجلاه عن القفز كالنمر؛ وفي هذه المرة يزأر فرحاً، محيطاً نفسه بالأسطورة كالأسد. وعندما كان الرجل مشغولاً، فتحت الظرف.

وتفحصت خطها على نحو خاطف، لأنك في كل الأحوال غير قادر على قراءته لأنه كان بالإيطالية، وتخيلت أنها كانت تحت ضغط شديد وهي تدون ملحوظاتها. وربما اندفعت الأفكار إليها في اللحظة التي ركلتها في أضلاعها. أو أنها ربما كانت في عجلة من أمرها للذهاب إلى مكان ما. لكنك رأيت تواريخ - أياماً من أسابيع، شهوراً ذات تعليقات. بإمكانك أن تقرأ هذه. وبإمكانك أن تقرأ اسماً واحداً - الذي هو للعم قورح، مكتوباً كوراح. وشيء ما ذكرك بذكرى مؤلمة - عن تقويم على الحائط، وإجهاض مصرا، وتواريخ مؤشرة بالأحمر والأخضر سوية مع شفرة الأمان. سألت نفسك لماذا كان العم قورح موجود دائماً في يوميات أمك؟ تحسست كراهيتك لقورح في ريقك، تحسست الدم. وفكرت، بإمكاني قتله.

جاء الموكل بك وأخذك. شاهد أنك قد فتحت الظرف فقال لك أن لا مانع لديه من أن تبقيه عندك. حين كنت تضعه في حقيبتك، لاحظ الشيئين الآخرين - صورة أرنست بيفن (وشرحت له ما يمثله لك) وبيضة. «ما تلك؟»

تلعثمت بشيء ما.

تساءل: «أحب البيض. هل هذه البيضة مسلوقة جاهزة للأكل؟»

قلت بعد صمت: «أنا آسف، أريد أن أسأل: ما الذي يحدث عندما تفسد بيضة وليس ثمة دجاجة لتجلس عليها؟»

Twitter: @ketab_n

بدت على الرجل الحيرة في بداية الأمر. ثم قال، «ماذا تقصد؟» لكنه لم ينتظر الإجابة منك. طلب منك أن تحكي له عن «تاريخ» البيضة بدلاً من ذلك. ووجد قصتك مشوقة أول الأمر، ولكنه حين فكر بها، وجد أنها مثيرة. قال لك ذلك ما إن التحقت بالدائرة التي تحلقت حول الشاحنة التي تزمع الرحيل. كان أحد ما يتحدث بخطابات وطنية، ذُرف فيها الكثير من الدم الصومالي ومن دم العدو أيضا.

ثم ألح شخص آخر بأن يُخبر المسافرون بموقع الحدود «غير الموجودة» - وهي غير موجودة لأن الصوماليين لم يعترفوا بها أبداً، ولم يسمحوا أيضاً لها بأن تدخل منطقهم. أما غير الصوماليين، فلأنهم كانوا جاهلين تماماً أو لايعرفون الكثير راحوا ينظرون إلى الخرائط، حيث وجدوا خطاً منحنياً، رُسم ليفصل الشعب الصومالي عن الشعب الصومالي. عند ذاك، أشار أحدهم بإصبع إلى صف من الأكواخ حيث اعتاد الحرس الأثيوبيون العيش، متشبثين ببنادقهم.

سوف يتذكر عسكر باقي الرحلة إلى بيليت ويني، ومن ثم إلى مقاديشو، عندما توقفت الحافلة وتفرق الناس من رجال ونساء، الرجال ذهبوا باتجاه، وذهبت النسوة والأطفال باتجاه مغاير. وبالطبع، لم يكن لديه شك حول أي الطريقين يسلك - إنه طريق الرجال. لقد كان الوحيد الذي لم يتعر ليغطس جسده في الطرف الصومالي من نهر شيبيلي. ولأن عوضان كان أول رجل رآه عارياً، يتساءل أين هو الآن وهل هو حي أو ميت.

تواري عن الرجال والنساء الذين انشغلوا بطقوس الاغتسال في موضع خفي - موضع تحت الأشجار يمكنه من مراقبة كلا الفريقين. كان مستثاراً لأنه كان الساكن الوحيد في حديقة. كانت تلك الحديقة خضراء، تماماً مثل ذاكرته الغضة لحديقة أخرى كان قد رآها في حلم. رأى نيسماً وأخبره شيء ما أن النيسم قد يأخذه إلى بداياته - إذا ما توفرت له الشجاعة كي يتتبعه. لكن فكرة مواجهة نقطة انطلاقه أرعبته، ووضعته في قنوط. وحين شعر بالضيق قرر الالتحاق ببقية الرجال. تعرى من أجل أن ينغمس في طقس

Twitter: @ketab_n

الاغتسال، كالآخرين. ذهب نحو النهر عابساً. وما أن اتصل جسده بالماء حتى عاد إليه الهدوء. كان الماء ليس عميقاً لمسافة ليست بالقصيرة فرشف جسده عبر مسامه الكمية المطلوبة، التي غرزت فيه انسجاماً مسالماً ذكره بيوم مولده. سبح أحد الرجال على ظهره نحو الطرف العميق ثم غطس، مختفياً لوقت ما في الماء. كان عسكر مشحوناً بالحسد بسبب ذلك.

خرج من الماء وهو لايزال عارياً وجلس وحيداً. سأل نفسه، هل يتوجب عليه أن يعود إلى الحديقة المظلمة من بعد كل هذا السطح المائي المشع ويتبع النيسم؟ لماذا بحق السماء يشعر بهذا اللاتوازن في نفسيته، هل كان مرعوباً؟ إلى أين كان يظن أن الطريق سيؤدي به؟ ألِى بدايته أم إلى بداية شخص آخر؟

عادت مصرا لتكون أمامه ثانية. كانت هناك وكان صغيراً وكانت تحممه، تدغدغه وتلاعبه وتخاطبه بلغة محببة إليه، تناديه «يا رجلي»؛ هاهي حقيقية كالحدود، هاهي، تتحدث له كيف كان واعياً لذاته في يوم ولادته، وكيف ارتدى قناعاً من الدم المتخثر، وكيف بدا أو بالأحرى كيف سلك، كأنه قد صنع نفسه. وكانت هناك، تعلمه مباديء الأشياء، تسمي له كل شيء بإسمه، «تلك هي السماء»، و «تلك هي الأرض»؛ وها هو ذا، كان يشير إليها باستمرار مجيباً عن السؤال، «أين الأرض؟»، على الرغم من أنه كان يشير بصورة صحيحة إلى السماء كلما كان السؤال «أين السماء؟» كانت تنفجر بالضحك وهي تقول أنها «أمه» وليست «الأرض» بينما كان إصبعه الذي يشير به أو حتى يده، كان مشغولاً بأخذ حفنة من التراب ليلتهمها. ما لاجدال فيه أنها قامت بأقصى ما يمكنها، بتدريبه، على التراث البدوي في معرفة أهمية المناخ والجغرافيا - فالأرض هي التي تتقبل المطر والسماء هي التي يتفجر الماء من حقويها، ومن ثم الحياة، وأن الأرض كانت الرحم الذي يزرع الرجال والنساء في حقوله المفتوحة الطعام لأنفسهم ولحيواناتهم. شيد الرجل الأكواخ وحملت النساء الأطفال ورعت الأبقار من المراعي المجاورة، وكذلك الماعز؛ وغدا الصبي رجلاً، والصبية امرأة

Twitter: @ketab_n

وتزوجا ليكون لكل منهما عائلة، والزوجان سعيدان معاً بصحبة ذريتهما - حمداً لله! (وخلال كل هذا الوقت، كان عسكر يفكر بالتناقضات التي ورثها - فهي ليست أمه، وأن البلاد ليست بلادها؛ وأنها تعلمه تراث شعبه وحكمته؛ وأنها كانت تعلمه في بعض الأحيان الأمهرية عندما يهبط الليل؛ وأنها لم تتزوج وليس لديها طفل لنفسها أو رجل تسميه «زوج» لكنها كانت سعيدة بما لديها؛ وأنه لم يكن لديه من يدعوه بلقب «الأب»، غير أن لديه الكثير من الأعمام، وكان واحد منهم قد تزوج من مصرا مرة.)

وكان عوضان هناك أيضا. كان يعلمه أشياء عن الفلك وكيف يحدد درب التبّانة؛ وكيف يجيب عن النداءات أو ماذا يفعل؛ وكيف تحدد موقع لمجموعة أخرى من النجوم؛ فضلاً عن حقيقة علمية واحدة - هي أن في الإسلام، تدرك الطبيعة مثل كتاب، مقارنة، بطرق مختلفة، بالقرآن الكريم: فعبقرية السور، والأنواع عامة وكل الأنواع الصغيرة تشترك في ازدواجها مع ألف باء تاء الطبيعة الأم - ما شاء الله كان!

صاح أحدهم، «تستعد الحافلة للمغادرة إلى مقاديشو».

رأى عسكر بعض الرجال يبحثون عن ثيابهم، وكانوا يخفون أعضاءهم بتغطيتها باليدين؛ وكذلك فعل هو. نفض سرواله من الرمل الذي قد يكون قد دخل في الجيوب وغيرها، وأدخل نفسه فيه متعجلاً. ثم ارتدى قميصه وحذاءه. لكن جسده كان مغطى بالرمل إذ لم يكن لديه الوقت الكافي ليغتسل من تلك القشرة الأرضية الخفيفة. إنتظر السائق حتى اكتمل عدد النساء والأطفال. تساءل إن كان قد بقي أي أحد. وحين جاءه الجواب بالنفي قال «سنكون في بيليت ويني في أقل من ساعة».

(٣)

يقف إزاء الجدار الصباحي لأشعة الشمس خطان مستطيلان من الضوء، كل منهما صلب مثل حافة ويمكن رؤيته بوضوح مثل حاشية ثوب.

Twitter: @ketab_n

وكان ثمة حصانان - أحدهما أسود، والآخر أبيض؛ كان الأسود هو الذي في الأمام، والآخر يتبعه مباشرة مثل دخان أبيض يتبع دخاناً أسود قبل أن تتلاشى ألسنة اللهب الحمراء.

كان هذان الحصانان في حديقة ممتدة في منطقة استوائية، حديقة برية وعذرية مثلما هو اليوم الأول من الخلق. كان المطر قد انهمر مدراراً والحصانان يقطران، ويبللان كل شيء يقتربان منه. كنت قد أعجبت بهما من بعيد. التقطت ما أمكنني الوصول إليه من فاكهة دون عناء وأكلت منها حتى مصصت العصير. رميت اللب، مخلفاً ورائي ذيلاً من كتلة لا شكل لها.

ظهرت فتاة صغيرة بريئة كابتسامتها من خلف الحصانين. كانت تبدو مهددة - ولم أكن أعرف فيما إذا كان حضوري قد أخافها أو إن كانت قد رأتني. يمكنني أن أحس برعشة خوف في عينيها. لكن الفتاة سحرتني - وعيونها على الأخص. لذلك أبعدت نظري عن الحصانين وركزته على الفتاة. لم أستطع تفسير سبب هذا الانجذاب الساحر للفتاة، لماذا هذا السحر. ولم أستطع أن أحول نظري عنها.

سألتها عن اسمها. فقالت أن لا إسم لها، ولي أن أمنحها إسماً إن رغبت. وسألتها من أين جاءت. فقالت أنها تجهل بلادها، وأنها كانت لاجئة ولكن لا تعرف من أين، ومن أين كانت تهرب ولا تعلم إلى أي ملجأ آمن ستمضي. سألتها إن كان لها أبوان. فقالت أنها تجهل أبويها. باختصار، كانت فتاة صغيرة، في مثل سني أو تكاد، فتاة لا إسم لها ولا بلاد ولا أبوين - غير أنها فتاة وليست فتى.

مددت يدي نحوها.

قالت: «لا تلمسني».

فسألتها عن السبب.

قالت، «لأنني أرتدي جلداً مستعاراً».

Twitter: @ketab_n

فسألتها إن كانت قد استعارت شيئاً آخر.

فقالت، «اللسان الذي أتكلم به هو ليس لي أيضاً».

فتساءلت إن كان هنالك أي شيء يمكنها أن تدعي أنه لها؟

فقالت، «في بعض الأحيان، كل ما أملكه، هو الشيء الوحيد الذي بإمكاني الإمساك به فيما إذا رغبت، هو الشيء الوحيد الذي لم يطالبني به أحد حتى الآن، هل تصدق أنه، الظل؟»

فكررت، غير مصدق، «الظل؟»

فأومأت برأسها.

ثم ابتعدت، بصمت، عن الحصانين. وقفت عند ضفة النهر الزلقة بالروث البقري الطري. وعلمت من خلال ذلك أننا في الربيع - فصل البعث، وفترة التجدد. كانت الزهور متفتحة، والعشب ندي بالمطر الاستوائي. والسماء مشحونة، تهدد بصب انتقام مطري. في الضفة الأخرى رأيت كل أنواع الحيوانات، بل حتى رأيت طفلاً أو اثنين، والجميع يعيشون في انسجام كامل. لم أر، طوال حياتي، كيف أن أسداً يمكن أن يمسح لبدته بالخيول دون أن يمزقها بوحشية بأسنانه، لم أستطع تخيل كيف أن مجموعة من الرجال الكبار كانوا يصغون بانتباه لخطبة يلقيها صبي في الثامنة؛ ولا أستطيع أن أتذكر أنني رأيت (لا من قبل ولا من بعد) كيف أن الرجال يقدمون كياسة بالغة الاحترام لنساء يقومون على خدمتهن. كان الانشراح بادياً علي.

سألتني الفتاة: «هل رأيت من قبل أن الأوراق تتحول؟»

ولم أدر بم أجيب.

قالت «أتعرف، أنت تذكرني بفتى آخر قد عرفته مرة، فتى من كالافو. وتبدوان أنت وهو متشابهين. أو بالأحرى، أنت تشبهه بأشياء عديدة».

«مثلاً».

قالت، «يبدو أنك لا تتعب نفسك في النظر إلى عمق الأشياء -

Twitter: @ketab_n

وكذلك هو؛ ولا تهتم في دراسة تفاصيل الكلام الذي يقوله الآخرون، وهو كذلك لم يفعل مطلقا؛ أنت تكاد تكون مقتنعاً بسطح الأشياء - فالسطح الناعم يكون، بالنسبة لك، مرآة قد تنعكس فيها ملامحك ونظراتك، لذلك لا ترى في المرايا سوى السطوح».

كانت الفتاة تذكرني برجل عجوز رأيته مرة يهز رأس فتاة صغيرة. لكن لساني، الذي انحشر مثل ذيل كلب بين ساقيه المذعورتين، كان قد خذلني، ولم أستطع إخبارها بمن كانت تذكرني. فتاة لا تملك سوى ظل، فتاة في جلد مستعار، وأنا، الذي من لحم ودم، الذي لي قلب ورئتان وساقان ورأس وعينان وظل، أنا ابن روح العصر، أنا، بمعنى ما صانع نفسي، لم أستطع أن أخبر الفتاة بشيء.

أمرتني، «عموماً، تعال معي. إتبعني»

قلت أنني ظامئ.

فكررت، «اتبعني إذن». فتبعتها.

كان يبدو عليها أن لها نظرة ساحر يحاول استحضار صور تؤثر في سامعيه - وكان ثمة جمجمة بشرية قديمة كسنوات مالكها السابق. هزت الجمجمة لتفرغها من الرمل. ثم غسلتها في الجدول حتى أصبحت بيضاء مثل رداء رجل الدين. نحن نستخدم الجمجمة كأساً. كان الماء عذباً مثل عطر الربيع العذب، يتريث مذاقه على اللسان مثل الذكريات السعيدة.

سألتني، «ما اسمك؟»

قلت: «عسكر علي - الحمري».

أثارها سماع اسمي. «أنت إذن من حمر، التي هي، كما قد تعرف، الاسم المحلي للعاصمة الصومالية مقاديشو؟»

«عاش أبي هناك في الأربعينيات عندما كانت كل المقاطعات الصومالية متحدة تحت علم استعماري واحد، كلها عدا منطقة واحدة، هي جيبوتي».
قلت ذلك وكنت متردداً فيما إذا كنت أبين معرفتي بالمهاد التاريخي للفترة،

Twitter: @ketab_n

ذاكراً اسم أرنست بيفن ومهملاً بعض الآخرين بضمنهم مصدري، آرماديو. ولكن لا. إستأنفت الكلام، «حين عاد إلى أوغادين تزوج من هناك، وقد أضافوا الحمري إلى إسمه ليميزوه عمن له الاسم نفسه».

أخذت رشفة من الماء.

وتنبأت «عموماً، كل شيء سيكون على ما يرام معك».

أخذت رشفة من الماء. وتساءلت، «كيف عرفت؟»

فاعتقدت «أنت عائد إلى (نفسك)»

قلت «وهذا يعني؟»

ورأيتها غير سعيدة بالسؤال. لم أعرف كيف أعتذر، رغم أنني لم يتوجب عليّ ذلك. فلم أذنب بشيء. قلت ما بذهني، «أنا... أر...»، ولم أكمل.

فقاطعتني «عدت إلى السطح، لا إلى العمق، السطح لا غير».

(٤)

عدت لأطفو من أعماق نومي وصحوت على صيحات الفرح التي تعلن عن وصولنا إلى حمر، «لؤلؤة المحيط الهندي». مسحت النوم عن عيني ورأيت، في أسفل الوادي زبد البحر يعانق زرقة السماء: ألوان باهرة، فكرت، وأنا أراقب زرقة السماوات وبياض الغيوم يعانقان زرقة المحيط وبياض زبده. كانت سعادتي لا حدود لها. كان الرجل الذي تحمل مسؤوليتي حتى أصل إلى بيت الخال هلال قد طمأنني أنه لن يتركني قبل أن يتأكد أنني بأيد أمينة. فأسرفت في شكره.

Twitter: @ketab_n

الجزء الثاني

كل هذا وهم - الكلمات المكتوبة والعقل المستهدف من قبلها، والحقيقة التي تنوي التعبير عنها، والأيدي التي ستمسك بالأوراق، والعيون التي ستنظر في السطور. كل صورة تطفو غامضة في بحر الشك - والشك نفسه يضيع في عالم اللايقين الذي لم يستكشف.

جوزيف كونراد

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل السابع

(١)

إعتقدت أن هلالاً، من الناحية الجسدية، هو النسخة الأصلية من مصرا، سوى أنه رجل - وهذا ما لم يهمك كثيراً في ذلك الوقت - وهو أيضاً أكبر سناً منها. وهو أفضل منها بكثير في ملبسه، وتصورت أنه أغزر منها معرفة. كان ضخماً مثلها؛ وبديناً مثلها، رغم أن صدى صوته، حين يفتح فمه يظل يرن في أذنيك لمدة طويلة بعد أن يتوقف عن الكلام. أدخلتك الخادمة التي فتحت الباب. وكانت هي التي قادتك عبر مدخل صغير لمقابلته. لم تعرف لماذا كانت مترددة - هل كانت غير راغبة في إزعاجه؟ أو أنها كانت تشك أنه سوف يصرخ بها لأنها سمحت لك بالدخول في المكان الأول؟ طرقت هي بلطف باب مكتبه - وانتظرتما أنتما الإثنان. بعد لحظة، كان يقف في الباب نصف المفتوح، ورأيته ضخماً مثلما كانت مصرا في ذاكرتك. وانقطع نفسك لدقيقة؛ وخلال ذلك لم تكن تعرف أين أنت ولماذا، وانعقد لسانك في حلقك فحدقت فيه في العتمة الخفيفة صامتاً. عتمة خفيفة؟ أجل، لأن الستائر كانت مسدلة في الغرفة؛ أجل لأنه حجب نور النهار وكان الضوء الشحيح الذي يبثه مصباح الطاولة قد صنع فسحة ناعمة في العتمة وأزاح الظلام الذي حوله. ثم أشعل عود ثقاب وأرّث سيجارة؛ ثم رشف منَ الشراب الذي في يده؛ وكان بإمكانك سماع ارتطام الثلج بالكأس، وبإمكانك سماع تقطر الماء من حنفية مكسورة في

Twitter: @ketab_n

مكان ما في البيت. هل يمكن أن يكون حضور تبادل العناصر ذاك بين الماء والنار هو الذي جعلك تطمئن في مقاديشو؟

قال هلال وهو ينظر إليكما أنت والخادمة، «نعم؟»

غمغمت بشيء لم تستطع فهمه. تنحى جانباً ليسمح لك بدخول الغرفة. وعند الحركة كان رأسه، مثل يد دخانية، قد حجب أكثر من نصف الإضاءة التي يمنحها مصباح الطاولة.

قال لك، «تعال»، فتبعته.

دفع باباً فانفتح. قال «هذه غرفتك. هذا هو الفراش، وعليه الملاءات والشراشف والوسائد - وكل ما تحتاجه. وثمة في الغرفة دورة مياه أيضا. سترتب لك الخادمة السرير، وتعمل لك وجبة طعام. بإمكانك أن تستحم، بإمكانك أن تنام، إفعل ما يحلو لك»، وما أن قال ذلك حتى سار مبتعداً واختفى في الممر عائداً إلى مكتبه. وبعد نصف ثانية ظهر رأسه مرة أخرى وكان يقول، «مرحباً بك يا عسكر. سأراك فيما بعد».

لم تعرف ما معنى هذا كله. لكن الخادمة عرفت - واقترحت أن لا تبالي بما حدث، مضيفة، «إنه في الحقيقة رجل دافئ. وهو اليوم مشغول على نحو استثنائي لأنه سوف يلقي كلمة في الجامعة هذا المساء ولذلك فهو متوتر».

أثارت الغرفة التي كنتما واقفين فيها انتباهك. لقد كانت واسعة، مكسوة بالآجر الإيطالي ولذلك كانت جذابة، مزينة جدرانها بصور لخيول وطيور بالحجم الطبيعي وخرائط لأفريقيا والقرن الأفريقي - والصومال. كانت الغرفة غارقة بنور الشمس، ولأن النوافذ قد تركت مفتوحة فقد كان الأثاث مغبراً. كان السرير أكبر من ذلك الذي كنت تقتسمه مع مصرا. فلا عجب إن سألت نفسك فيما إذا كنت قد عبرت عتبة المفترق الكبير - ومتى؟ ليس لأنك وجدت تشابهاً جسدياً مخيفاً بين مصرا وهلال فحسب، بل لأنك تخيلت أن مصيرك صار في يد خادمة أخرى، وهذه المرة في يد

Twitter: @ketab_n

التي لا تعرف اسمها والتي هي شابة ونحيفة الجسم. هل لديهم أطفال؟ وكم عددهم؟ وإن كانوا فأين هم؟ ورحت تشك أن من غير اللائق إلقاء أسئلة حول هذه الأشياء وغيرها فيما يتعلق بعائلة هلال وحياته على الخادمة، التي كانت تمسح الأرضية وهي على ركبتيها، وتمسح الطاولة والكرسي، وترتب السرير وتنفض الغبار عن أكياس الوسائد قبل أن تستخدمها ثانية. كان مشيك جيئة وذهاباً دونما هدف في الغرفة قد قادك إلى الحمام الذي كانت الحنفية تقطر فيه. ذهبت نحو المغسل. وضعت يدك المفتوحة تحت الحنفية، جمعت الماء بعد قليل في يدك المتكورة. كان طعم الماء مالحا.

كانت الخادمة تقول، «هل تريد أن تأكل أم تستحم أولا؟»

لم ترد أن تعترف لها بأنك لا تملك ثياباً نظيفة لتغير بها بعد الاستحمام، ولم ترد لها أن تعرف أنها المرة الأولى لك التي تكون فيها في حمام فيه رشاش ماء ومغسل وماء جار وكهرباء.

قالت، «كم عمرك؟»

كذبت وقلت، «تسع».

«وأين والداك؟... أعني أمك وأباك؟»

ولم تجبها. وفهمت من صمتك أنهما قد ماتا في الحرب ولذلك لم تضايقك أكثر. كانت متوترة الأعصاب لأنها كانت خائفة من أنها قد جرحت مشاعرك، وعرضت عليك أن تفعل أي شيء: تساعدك في الاستحمام، أو تحضر لك شيئاً لتأكله أو حتى تغسل قميصك وبنطالك القصير ليجفا في الوقت الذي تنام فيه القيلولة. من الواضح، أن هذا هو العالم الذي لم تتخيله - عالم البالغين، عالم القيلولة، عالم الحمامات ذات المرشات والمغاسل والماء الجاري؛ عالم ابتدع فيه هلال عالماً آخر ضمنه، رفض أن يخرج منه إلى السطح؛ عالم أضعت فيه إحساسك بالاتجاه، فأنت لا تعرف شمالك من جنوبك ولا تعرف أين موقعك بالنسبة

Twitter: @ketab_n

إلى البحر أو بالنسبة للمكان الذي أتيت منه.

كانت الخادمة نشيطة جداً. سألتك: «ماذا تريد مني أن أفعل؟»

بدت عليك الحيرة، فقالت، «آتي إلى هنا ثلاث مرات في الأسبوع. ولا أعمل هنا طوال الليل والنهار. هل ترغب في أن أحضر لك شيئاً ما لتأكله أو أرتب الفراش أو أغسل لك ملابسك؟ هيا قل لي. بقيت لي ساعة قبل أن أذهب إلى مدرستي بعد الظهر. أنا طالبة».

وقفت هناك، لا تتكلم. من الواضح أنك لم تفهم نصف ما قالته. هل كانت طالبة؟ وفي عمرها هذا؟ تذكرت أحد أعمامك، حين كنت تغادر كالافو، وهو يقول أن الغرض الرئيس من إرسالك إلى خالك بمقاديشو هو كي تصبح طالباً. كنت تنوي أن تسألها عن العمر الذي يتوقف فيه الناس عن الذهاب إلى المدرسة. لكنها لم تمنحك الفرصة لتسألها. ثم سحبتك فجأة من رسغك وفتحت أزرار قميصك وبنطالك القصير وتقول لك أنها ستساعدك في الاستحمام، والنوم، وتغسل ملابسك المغبرة من سفرك الطويل وتنشرها في الشمس لتجف... وما إلى ذلك.

إحمر وجهك من الخجل؛ وشعرت بالارتباك؛ ورحت تتمتم بشيء ما - لكنها لم تهتم بما كنت تقوله؛ ولم تزعج نفسها بالاستماع إليك. وعند ذاك كان بنطالك المفتوح قد نزل إلى قدميك وخرج ذراعاك من قميصك، لكنك كدت تختنق لأن رأسك كان محشوراً برقبة القميص الضيقة. فشعرت بإهانة بالغة فصرخت صرخة نصف خانقة «لا تفعلي ذلك»، وكررت صرختك مرة بعد أخرى بأعلى ما تستطيع، حتى جاء هلال إلى غرفة الحمام وهو يسأل، «ما الذي يحدث هنا؟»

تلعثمت الخادمة ببعض الكلمات.

غطيت عورتك بيديك كما رأيت الكبار يفعلون ذلك.

ثم نظرتم أنتم الثلاثة إلى الأعلى لترون امرأة تقف عند الباب: إنها صلاتو.

Twitter: @ketab_n

(٢)

ما دمنا نتقدم ونتراجع في الزمن، دعونا نستمر في ذلك. ولكن دعونا على أية حال، نقضي بعض الوقت معك، لنعرف كيف كنت عندما أتيت أول مرة ودخلت في حياتهما - تشعر بالحياء والخجل - قادماً من منطقة الحرب. قالت عيناك شيئاً واحداً لهما، وقال صمتك الشيء الآخر. وقرر هلال وصلاتو الانتظار، واضعين نفسيهما في مكان ما بين هذه الأركان من نفسك (كما عبر هلال عن ذلك)، وهما يعرفان تماماً أن ثمة أنت آخر، الذي فيما لو اكتشف جيداً وتم تحديده، قد يمنحهما ولداً ذكياً ولماحاً، ولداً يمثل وولداً يتخفى في الملاذ الآمن للصمت. لسوف يحبانه حين يظهر هذا، يحبانه كأنه من لحمهما ودمهما.

داعبك خالك هلال ومسكك من خدك وقال: «أين «الثالث» يا عسكر؟ أين الآخر؟»

نظرت فيما حولك، نظرت هنا وهناك ثم نظرت إلى كليكما، لكنك بقيت صامتاً. في هدوء أحلام يقظتك سألت نفسك، «(الثالث) - من ذاك؟» الأول هلال. الثانية صلاتو. «الثالث؟ ماذا يعني (الثالث)؟»

فضلت أن تلوذ في زاوية هادئة في الأيام القليلة الأولى وانسحبت عن رفقتهم. لم تتحدث كثيراً عن العم قورح، ولا عن زوجاته وأطفاله - أو كم مرة كان يجلدهم؛ لم تتحدث عن المسكن، الذي كان فيه السيد الذي لا يجادله أحد؛ ولا عن البدو الذين كان أغلبهم من أقربائه، والذين جاؤوا لكالافو في موسم التسوق، بدو لم تحبهم كثيراً (وهنا يكمن تأثير مصرا) لأنهم كانوا حين يأتون يخلفون وراءهم مستعمرة للقمل، ويحكك رأسك، وكذلك جسمك لو اقتربت منهم. (أليس هذا صحيحاً يا عسكر؟) ولم تقل الشيء الكثير عن مصرا في تلك الأيام المبكرة التي تلت وصولك. رسمت صورة هيكلية لها. وفي الحقيقة عرضت لها تخطيطاً بسيطاً جداً وغامضاً جداً حتى أن الخال هلال أبدى اهتماماً ضعيفاً بعلاقتك بها. والأكثر من

Twitter: @ketab_n

ذلك، احتفظت بمذكرات أمك على أنها سر لا يشاركك فيه أحد، قلت لنفسك «إنه الوحيد الذي بقي لي، السر الوحيد الذي املكه».

هل تعلم إلى ماذا نسبا تراجعاتك الصامتة؟ أو بالأحرى كيف فسّراها لبعضهما البعض في الليل، حين كنت نائماً، أو ربما تحلم، في غرفة كلها لك وحدك، خاصة بك؟ قال الخال هلال: «أي رعب! أي سفك للدم وأي رعب في العيون الخائفة من الجوع والموت جوعاً - إن جزءاً من معاناة الصغير عسكر الرهيبة هو افتقاده للعالم الذي كان يعرفه». فقالت صلاتو محتجة «ولكن عينيه تقولان شيئاً، ويقول صمته شيئاً آخر»، كان رأسها إلى جانب رأسه ولكنه دون وسادة أما رأسه فكان على وسادة عالية كالعرش. وأضافت «وأرجوك لا تحللنا نفسياً».

أنت صامت ومنسحب، نعم. لكن عقلك كان منشغلاً ولسانك في نشاط. وقد وضعت مسافة بين نفسك والعالم. كان عقلك منشغلاً ولسانك في نشاط خلال هذه الفترة، لأنك تقرأ كل شيء بصوت عال، كل قطعة كتابة تمر من أمامك، إلتهمت كل كلمة مطبوعة قابلتك. كنت تقرأ كل شيء بصوت عال كي تسمع ولا تنسى ما قرأته. كنت فرحاً مثل عربي تعرف على صديق جديد. كنت تحت تأثير صديق تعرفت عليه حديثاً - إنها المادة الجديدة التي تقرؤها. وقد اختارت صلاتو حكايات من (كليلة ودمنة) لتقرآها معاً، صوتك متردد وصوتها واثق مثل صوت المحتال.

ها أنت وحدك في فراشك في الليل، وحيد في غرفتك، كانت الأيام الأولى محبطة. تمنيت لو كانا يسمحان لك بالنوم في غرفتهما. كنت تخشى الكلاب التي تنبح في بيت ليس بعيداً، وتساءلت أنها قد تقفز من سياجكم وتهجم عليك في غرفتك. كانت صلاتو حساسة بما فيه الكفاية لأن تفكر بالأمر. ولذلك هرّبت لك في إحدى الليالي راديو صغير في غرفتك فنمت على ضوضائه. وبقي الراديو. هل احتل موقع مصرا - مصرا التي كان صوتها ينظم إيقاع نومك؟ ربما. عموماً نمت على ضوضائه كأنه كان يتحدث إليك وحين استيقظت في الصباح، كان الراديو الكبير مفتوحاً في

Twitter: @ketab_n

غرفة المعيشة، يعرض نشرة الأخبار.

كانا يتناوبان القراءة لك أثناء الليل. كان كتاب الخال هلال المفضل هو كتاب المعري(رسالة الحصان والبغل)؛ أما كتاب صلاتو فهو (كليلة ودمنة). ولم يمكنك مقارنتهما بمصرا؛ لم تستطع أن تقر بأنك تحب الثلاثة. لكنك لم تخبرهما كم تفتقد مصرا. باختصار، أنت أسدلت ستار الصمت حول نفسك. وكان السؤال هو إن كانت المسألة حالة تجتازها وحسب. قالت صلاتو «ماذا لو تكون الحال هي هذه؟»

وتنبأ هلال «لسوف يتكلم. إنه تماماً مثل أختي، أمه».

ثم، في أحد الأيام، سلمت خالك مذكرات أمك. لم تقل أبداً لماذا كنت تحتفظ على أنها سرك وحدك، ولماذا لم تذكر لأحد أبدا.

ونزلت الستارة - كانت ثمة شمس مشرقة وتبينت لصلاتو والخال هلال الشجاعة التي في داخلك، وكم أنت حيوي على خلاف ما يبديه مظهرك؛ وكان الهدير الذي يأتي من خلف غيوم هدوئك يصم الآذان إلى حد أنهما فرحا، لكنهما في الوقت نفسه كانا قلقين نوعاً ما. لقد كنت، كما عبرت صلاتو عن ذلك «عروضاً مدهشة للشكل الإنساني للرفقة». قرأ الخال هلال يوميات والدتك، وكان يقلب الصفحات متلهفاً. كنت تريد أن يقال لك ما هي الزبدة في يوميات أمك. ولكن برز بدلاً من ذلك - سؤال:

سألك «كيف هو العم فورح؟»

تذكرت أنك رأيت اسمه يرد مرتين في اليوميات. هل كان مهماً بالنسبة لها؟ هل كان نذلاً ووقحاً وشريراً معها؟ رغبت لو أن أحداً يقول لك. ولكن لم يفعل أحد ذلك. «كيف كان يبدو؟»

تساءلت: «هل أساء عمي فورح معاملة أمي؟»

فقال الخال هلال: «ما الذي جعلك تقول ذلك؟»

تذكرت ما كان يجري بينه وبين مصرا من جهة وعوضان ومصرا من الجهة الثانية. لكنك أحسست أيضاً أن اهتمام هلال بما كان يبدو عليه فورح

Twitter: @ketab_n

شيء حقيقي. فتساءلت: «هل اغتصب أمي؟ هل كان يريد الزواج منها عندما جاءت الأنباء بموت أبي؟»

اقترحت صلاتو: «إذهب لترتاح قليلاً».

«كلا»، قلت ذلك وكنت عدائياً.

وحصل صمت. ثم قال هلال: «أخبرنا عنه إذن؟»

فانطلقت نفسك. تنفست للحظة، سكت، بين الفينة والأخرى، كأن ما كان يعصب فمك قد حُل فجأة. كنت شلالاً هادراً، كنت ثقيلاً مثل مطر مدرار. وكنت ترتجف وأنت تتكلم. لكنك تكلمت وتكلمت. كيف يبدو العم قورح؟ كان مرعباً، رثاً وبهيمياً، كان يضرب زوجاته وأطفاله من الشروق إلى الغروب. تذكرت (وقد فكرت، أنه لمن العجيب أن تتذكر ذلك - وقد هنأت نفسك عليه، مثل ممثل أجاد الأداء) أنك كنت مغرماً به لفترة قصيرة فحسب - عندما أحببت أحذيته. لقد منحته حقه. كان يحسن اختيار أحذيته. لا تستطيع نكران ذلك. وكانت تلك الأحذية تسعد إحساسك بالرؤية، عندما كنت طفلاً في فترة الزحف القصيرة، التي يمر بها جميع الأطفال ويحبون فيها الأحذية. لقد أحببت أحذيته جداً حتى وددت أن تضعها في فمك. وعموماً، حين كبرت وتجاوزت مرحلة حب الأحذية رحت تكرهه أكثر. كنت لا تثق به - هكذا هي الحال. كنت لا تصدقه. ومباشرة منذ البداية - حين لم يكن عمرك سوى يومين - حين كنت مستحماً ونظيفاً، وعرضوك عليه، صرخت. أجل، قلت للخال هلال وصلاتو، كنت صرخت مذعوراً. فكرت لبعض الوقت، وأدركت، أنك كنت تشعر بحساسية من رائحته. لكنك الآن تعرف لماذا كنت لا تحمل له سوى الاحتقار المفرط. من الواضح، أن الأمر كان وراثياً - فشيء من ذلك رضعته في حليب أمك. لقد كرهته.

سألك هلال: «كيف تعرف؟ فأنت لم تقرأ يومياتها بعد، أليس كذلك؟»

Twitter: @ketab_n

راقبك الخال هلال وصلاتو وأنت تمحص أفكارك وتخرجها. بدوت يائساً، مثل رجل تبين له تواً أن المستقبل غير ممكن بدون الإقرار بماضيه. ثم تدفق نهر مشاعرك ثانية. وقلت (لن ينسى الخال هلال هذا. ليس ذلك فحسب، بل انه يتمسك بفكرة أنك أصبحت «شخصاً» آخر ينطقها، وأنك، كنت جاهلاً أن تلك كانت كلمات أمك بالتحديد)، «جعل الرجل الآخرين يعانون، أطفاله، ومن يعيلهم وزوجاته، نعم، جعل كل واحد منهم يعاني بينما كان هو لا يعرف ماذا تعني كلمة «المعاناة». إنها لمأساة».

ولأن الخال هلال كان منفعلاً، فقد سمح لعواطفه بالتحدث عنه. قال: «ها أنا أرى الثالث»، تماماً بالأسلوب ذاته الذي قلت فيه وأنت تشير إلى مصرا، «ها هي الأرض!» كان الطفل الذي فيه قد ظهر إلى السطح ورأيت مزِيّة فيه أحببتها إلى الأبد - إنها عطفه. لمسك مرة ومرتين وثلاث ليشجعك على الاستمرار، مثل مشجع لمتسابق دراجة سائر نحو النصر ضارباً سرج لاعبه المحبوب وهو يصيح فرحاً، «سر. موفقاً!»

وقد فعلت. إنطلقت من البداية، للمرة الثانية والثالثة. مصرا هي بطلة حكايتك الآن، ولم يكن لك سوى دور ثانوي. وكان هذا أمر جيد. من الواضح أنك كنت محتاجاً لتسرد «قصة مصرا». لابد للقصة أن تكون حول شخص آخر حتى لو كانت عن راويها. تحدثت عما يقلقك، وعن هواجسك فيما يخص الآخرين الذين لم يثقوا بمصرا. تكلمت وتصلبت ملامحك واندسست في حلكة الليالي التي لا قمر فيها - وكنت في حضنها، كنت ساقها الثالثة أو ثديها الثالث، وتدحرجتما أنتما الاثنان على بعضكما البعض في نومكما بينما كان كل منكما يتذمر من أن الآخر كان يركله أو يسحب الغطاء عنه. كنت النظرة التي في عينك. تركزها على خطيئتها. كنت الذي يوقف الصراعات، والبادئ للعراكات وللشائعات، وحولك أنت كانت الأحاديث تبدأ سهلةً مع مصرا. اعتمدت عليها كثيراً. كان الناس يقولون «لقد سحرته». قالوا أنها أطعمتك كل أنواع الأعشاب حتى استولت على روحك. قالوا: «انظروا إلى عينيه، إنها مفتوحة على وسعِها حتى حين

Twitter: @ketab_n

ينام». ولم تستطع إلا أن تذكر الفطور الأخير، ذاك الذي ملأت فيه معدتك حين غادرت كالافو.

وأتيت إلى عوضان. وقد أوضحت أنه كان معلمك ومنافسك في جلب انتباه مصرا. لقد استثمر كرهه لك في ذراعه عندما كان يضربك. كانت هي لا تضربك إلا حين تأتيها العادة الشهرية. ثم صرت في عهدة امرأة شفوقة تسمى كارين. إنها حلم امرأة. تساءلت دون أن تكون بحاجة إلى جواب، «هل كنت تعرف أن النساء عندما تنقطع عادتهن الشهرية ينقطعن عن الإنجاب؟» كان عمر كارين قد تجاوز ذلك. وحين انقطعت العادة عن مصرا، كانوا قد أحشوا جسدها بالأعشاب وبعض الأشياء - كي تجهض. لكنك راعيت بأن لا تذكر أي شيء عن القدرات التنبؤية لدى مصرا أو الأشياء التي كانت تستعملها - الماء أو الدم أو اللحم النِيء. لقد خشيت أن ذلك قد يترك انطباعاً خاطئاً لدى هلال وصلاتو. كنت تريدهما أن يحباها. وحين انتهيت، ران صمت طويل طويل طويل. ثم قالت صلاتو، «كانت الحياة بالنسبة لك حرباً من كل نوع».

وعانقك الخال هلال قائلاً، «إننا الآن في حياة بعضنا البعض. لا حروب بعد اليوم. نحن عائلة. ثلاثتنا».

في تلك الليلة، تحدثا وقررا أن يرويا لك قصتهما، بالنزاهة والصراحة التي رويت بها قصتك. قالت صلاتو: «إنه لأمر عادل أن نفعل ذلك».

على أية حال، لم يسردا قصتهما إلا بعد شهر. وخلال ذلك الوقت كانا قد جلبا معلماً اسمه عثمان ليساعدك في دراستك خصوصاً في قراءة الخرائط. كان هلال هو الذي سرد لك قصتهما، حين كنتما الإثنين في السيارة، هو في الأمام وأنت في الخلف. تحدث لك بصورة طبيعية، مثلما قد يتحدث شخص عن أحد أمراض الحياة التي أصيب بها منذ زمان طويل مضى. قال: «إننا مدينان لك بتفسير يا عسكر».

كان يوم جمعة. وقفت السيارة التي كنتما فيها أمام نادي ليدو. كانت

Twitter: @ketab_n

صلاتو قد ذهبت لتشتري ثلاثة أكواز من البوظة. كان ذلك في آخر النهار، بعد أن قضيتما أغلب النهار في السباحة أو الجلوس قرب البحر. كنت مرهقاً بعض الشيء، وكان رأسك مليئاً بماء البحر، وشعرك مليئاً بالرمل.

كرر لك «إننا مدينان لك بتفسير»، وراقبتما، صامتين، الطيور وهي تلعب ألعابها البهلوانية. كنت قد حسدتها على خفة حركتها. قال مستأنفا الكلام «مثلاً»، وكان ينظر إليك مكشراً من فوق كتفه الأيسر ليتحدث لك وأنت في المقعد الخلفي من السيارة. وظننت أن «مثلاً» التي قالها، مكتملة بنفسها. ولم تتوقع منه أن يقول شيئاً بعدها. ثم ومثل الآباء الذين تبنوا أطفالاً منذ زمن، كانت مقدمات هلال تتضمن تلك التوكيدات الضرورية كي يطمئن الطفل أنه محبوب كأنه من لحم ودم اللذين تبنياه. لم يكن بحاجة لأن يقول كل ذلك - كنت تعرف ذلك وهو أمر واضح جداً. ثم قال، «لا احب السياقة، مثلاً. أما صلاتو فتحبها. أنا أسوق مترددا. آمل أن تكون قد لاحظت ذلك».

«أجل، لاحظت».

رفع زجاج النافذة التي من جانبه في السيارة، مبعداً ضجة البائعين المتجولين والشحاذين الذين يطلبون الصدقات أو يعرضون عاهاتهم الجسدية: ذراع مبتورة، طفل مريض يرضع ثدياً مجدباً. وعاد للكلام مرة أخرى، لكنه وقع أسير كلمته «مثلاً»، كمن التقى صديقاً طلب منه أن يتناولا شراباً ويتحدثا قليلا. تحرك الخال هلال في مقعده ونظر أمامه مباشرة مركزاً شارد الذهن، ينظر إلى مجموعة الأولاد يلعبون كرة القدم بخشونة. ثم «مثلاً أنا أحب الطبخ. أما صلاتو فلا. ليس ذلك فحسب، بل ان طبخها رديء. وهي تحرق كعب القدور والأباريق والطعام الذي فيها؛ الماء الذي فيها يتبخر إلى بخار خفيف لأنها لا تتذكر أن لديها شيئاً ما على الموقد. وما تعمله، أحياناً، هو أن تغرق الرز بالماء لتطبخ لك نتيجة لذلك عصيدة الرز أو ما شابه ذلك. كارثة بعد كارثة. أما أنا فأحب الطبخ».

رحت تفقد صبرك، لأنك لم تعرف إلى أين سيقودك حواره، وأنزلت

Twitter: @ketab_n

زجاج النافذة التي إلى جانبك في السيارة. كان من الجلي أن المكان يعج بالناس الذين يتحدثون. فرفعت الزجاج حالما جاء الشحاذون والباعة نحوك. وعند ذاك أبعدت عنك كل العالم سوى تنفس هلال غير المنتظم وكلمته «مثلاً». حين نظرت باتجاهه شعرت بالضياع في الفضاء المفتوح الذي صنعه كوعه الملتوي، الكوع الذي كان يتوقف في منتصف الحركة عندما يشير هلال إلى نقطة. ثم قال، «أنا وصلاتو ليس لدينا أطفال، أو بالأحرى، لم يكن لدينا أي أحد قبل قدومك. هذا صحيح. ونحن لم نكن نهتم لحقيقة أننا ليس لدينا أطفال من صُلبنا. إننا نحب بعضنا البعض كما نحن. المشكلة أن الناس يتحدثون ويقولون أشياء سمجة عن المرأة التي لا تنجب. ثمة تعقيدات. وكان على صلاتو أن تجري عملية خطيرة في أوربا. لقد كانت عملية مؤلمة جداً وقد عانت منها الكثير. مثالاً على ذلك».

وفكرت أنهما قد رتبا الوقت بطريقة لا ترجع فيها صلاتو حتى يكمل كل ما يريد قوله لي. فاستمر بحديثه دون «مثلاً» هذه المرة.

«كانت عملية إجبارية وجد مؤلمة لصلاتو. ربما لا تعلم ما هي المبايض. هذا هو ما استأصله الأطباء. وعندما عرف أقربائي أنها لن تنجب، جاؤوا ليشيروا علي بالزواج. فقلت، لا. ورغم أنهم ألحوا، إلا أنني قلت، لا. ثم قررت أن أجري عملية تسمى قطع القناة. إنها تجعل الرجال عقيمين لكنها غير مؤلمة. عموماً، أنا رأيت أن هذه البلاد مزدحمة سكانياً - فلماذا يكون لنا أطفال؟» توقف كأن ذلك قد يقلل لمسة القلق في صوته. «على أية حال، فهي لن تنجب، ولا أنا. كانت عمليتها ضرورية. أما عمليتي فقد اخترتها أنا. لكننا لدينا أنت الآن ولم نعد بحاجة إلى أطفال من دمنا ولحمنا. المسألة بسيطة جداً، أليس كذلك؟» توقف، وكان الجزء الأعلى من جسده ينهض قليلاً، كأنه كان يرفع نفسه نصف رفعة عن المقعد. واعتقدت أنها كانت الطريقة التي نطق بها السؤال الذي أشار إلى هذا، وخصوصاً رفع «أليس كذلك؟» الأخيرة.

حين تحدث ثانية، بدا كأن ثقله بأكمله قد ثبت على المقعد. قال،

Twitter: @ketab_n

«في الحقيقة لم يكن الأمر بهذه البساطة. لا يستحسن المجتمع رجلاً يحب امرأته التي لا تنجب ولا تطبخ طعامه ولا تنظم بيته أو تغسل ملابسه الداخلية. امرأة تجلس خلف المقود لتسوق السيارة ويكون الرجل راكباً إلى جانبها - هذا شيء لا يطاق بالنسبة لمجتمعنا. إنه التمييز الجنسي أولاً وأخيراً. وهنالك الكهنوتية التي تحمي فكرة التمييز الجنسي. الآن... مثلاً. ولهذا لا ترى أناساً كثيرين يدخلون ويخرجون من بيتنا. قاطعني أقاربي على موقفي العنيد. لذلك، كلما رأيت أحداً يزورنا، فكن متيقناً أنه إما صديق حميم أو من أقارب صلاتو».

إحتشدت الأفكار في رأسك متسابقة في اللحظة التي صمت فيها. رغبت في الحقيقة القول أنك تحبهما حباً كبيراً. لكن صلاتو أنقذت الموقف - فقد ظهرت ووقفت عند جهتك من السيارة، وهي تحمل كوزك من الفانيلا. وراحت تقود السيارة بصمت مسحور.

(٣)

ما إن رأيت صلاتو حتى أحببتها. شعرت بالراحة بالفضاء الذي يحيطها وتتبعتها إلى أماكن وجسدك قريب من جسدها. كان أحد الجيران قد علق «إنه طائر البلشون الأبيض وهي الماشية». وضعت ثقتك فيها. وفي الأغلب كنت تمسك بها من خنصرها. تجلس عند قدميها حين تحكي لك قصة. تلمس حاشية ثوبها، وفي بعض الأحيان تتلمس نعومته الحريرية على خديك مما يمتع الخال هلال. لقد أمست المعلم الوحيد الذي ترغب في التعلم منه، بينما تفضل رفقتها على أي أحد آخر. وقد علمتك، خلال يومين، كيف تكتب اسمك بالصومالية، وكيف تتعرف على الكثير من الأصوات التي تنطقها وكيف تكتبها. خلال هذا الوقت كله، على العموم، بقي هلال على هامش حياتك. كان يطبخ وجبات الطعام، يغسل وينشف الصحون ويرتبها في مكانها المعتاد؛ ويكوي قمصانه وبناطيله ويساعدك لتعتاد على

Twitter: @ketab_n

الاستقلالية. كان تعاكس الأدوار بين الذكر والأنثى قد أزعجك قليلاً أول الأمر، لكنك تقبلت ذلك، في النهاية، وصرت أسعد حالاً لأنك شعرت كأنك عضو في تركيبة متفردة. لم تعرف أي اثنين من الناس يمكن أن تقارنهما بهما، ولم تعرف أي بيت رائع مثل الذي قادك القدر إليه، لم تعرف كم كنت محظوظاً. أنت بكل بساطة قد أحسست أنهما يتفوقان على معظم الرجال والنساء.

كانت جميلة وحسنة الهندام. طويلة ونحيلة ولا تضع مساحيق على وجهها. وقد حركت فيك دوامات من مختلف الأنواع - تختلف عن تلك التي كانت مصرا تحركها فيك. لقد جعلتك صلاتو تبذل كل ما في وسعك لتصنع ذاتك. منحتك خارطة كي تستطيع أن تعرف أين ولدت وأصرت أن ترى نفسك في ذلك السياق - فتى من الأوغادين، عالمه في هيجان. ولذلك، عُلق تقويم إلى جانب الخارطة التي كانت تشير إلى مسقط رأسك. ولهذا، فإن رغبت يمكنك تتبع تطور الحرب في الأوغادين. وإلى جانب التقويم، كان ثمة مرآة. هنا، يمكنك تسجيل تغيرات جسمك، وترى كم ازداد طولك أو وزنك أو كم انخفض. مما لاشك فيه أن صلاتو كانت أجمل امرأة رأيتها وتمنيت لو أنها كانت أمك، أو فكرت بأن تكون أمك أو تناديها بذلك. لقد فضلت أن تناديها «معلمتي» بدل «عمتي». وكانت معلمة محترفة بالفعل. ذلك لأنها كانت تغادر بيتها في الساعة السابعة صباحاً، وتقود سيارتها بنفسها، وحين تعود في المساء، توقف سيارتها في المرآب، وفي أغلب الأيام لا تعود إلا بعد الرابعة عصراً. وخلال غيابها كان يتحتم عليك أن تدرس ما كانت قد كلفتك به كي لا تفوت عليك سنة أكاديمية دون أن تفعل شيئاً. إن كان عندك تساؤلات فعليك أن تطرق باب مكتب الخال هلال، ولسوف يمنحك، متذمراً، بعض الوقت ليرد على تساؤلاتك. وإلا، ستذهب للعب مع الأطفال في البيت المجاور - رغم أنك لم تحب أفكارهم حول الألعاب المسلية. وفي النهاية، مادمت قد فضلت عزلتك على رفقتهم «الصبيانية» فقد قرر خالك هلال أن يشتري لك دراجة هوائية.

Twitter: @ketab_n

ومرة أخرى، كانت صلاتو هي التي علمتك كيف تحافظ على التوازن بينما كنت تتعلم ركوبه. رائعة صلاتو!

وكان الخال هلال عطوفاً أيضاً معك. كان ذا صوت بعيد المدى - مثل اليد. كنت تندهش دائماً لما تجده من راحة في الاستماع إليه؛ ومثل اليد، كان يربت على رأسك أو كتفيك؛ كان صوته يرفعك خارج روحك الهاجعة عندما تكون منكفئا. تنهض طوعاً لأمره، وتأكل الطعام الذي توشك أن تبعده؛ باختصار، كنت تفعل أي شيء يأمرك به. ولذلك، كان صوته حاضراً دائماً، موجود في عمق أفكارك، صوت يزرع الثقة في داخلك حين تهبط روحيتك، صوت انتقادي عندما تكون روحيتك متمردة ولا تستطيع السيطرة عليها؛ لقد كان صوتاً كنت تستمد من أعماقه الإسناد، كأنه كان بئراً. وذهبت إلى النوم وصداه يرن في أذنيك؛ استيقظت، تصغي إلى هبوط وارتفاع موسيقاه. حين لا يكون موجوداً، كانت جدران ذاكرتك تردد صدى طبيعته التنويمية، حتى كأن له حياة في ذاته، حياة لا يمكن فصلها عن حياة خالك.

في أحد الأيام كانت صلاتو مشغولة بتصحيح أوراق الامتحان، وطلبت منها أن تشرح لك شيئاً ما. كانت رقيقة، كعادتها، لكنها قالت لك أنها مشغولة واقترحت أن تسأل الخال هلال ليُدرّسك في ذلك اليوم واليومين التاليين.

قلت، «إنه صوته».

لم تفهم هي تماماً. «ماذا تعني؟ ما الذي لا يعجبك في صوته؟أم أنه يخيفك؟ قل لي».

ولاحظت شيئاً في ذهنك - وهي الحقيقة بأنها لم تكن تخاطبك مثلما اعتادت مصرا مخاطبتك، ولم تزخرف كلامها بعبارات التحبب، ورغم ذاك لم تشعر بأن ثمة مسافة تفصلكما، أبدا. وقد لاحظت بعقلك شيئاً آخر، مهما كانت أهميته - وهي حقيقة أنك ارتأيت الجلوس في المقعد الخلفي، لتسمح للآخرين بأن يأخذوا مقاعد الصدارة في الحياة. بكلمات أخرى، لم

Twitter: @ketab_n

تكن الموجود الوحيد، لم تكن من تدور حوله الشمس والقمر والنجوم، أنت باختصار لست من يدور العالم حوله.

قالت وهي تمسك بيديك برفق «أجبني، عسكر، ما الذي يزعجك في صوت هلال؟»

قلت، «إنه لا يسمح لي بالتركيز على ما يقوله».

قالت، «لا أزال لا أفهم».

حاولت التعبير عن نفسك بطريقة أفضل، لكنك أدركت أنك لا تملك الشجاعة لتطرح الأفكار التي في بالك. أخبرت صلاتو بعد سنوات، «كما يتلاشى جمال العالم حين يقارن بجمالك، فإن كل الأصوات الأخرى وانشغالات الحياة تتراجع لتكون هباء حين يتكلم. فيظهر صوته المجسم أمامي كأنه شخص آخر. حين أنظر إليه، أجد أنني أيضاً لا أستطيع التركيز على ما يقوله الصوت (الآخر). هل تدركين ما أعنيه؟»

فأومأت برأسها، «نعم»، ويكاد صوتها يخونها.

(٤)

يمكنك أن تضحك في هذه الأيام من فكرة مقاومتك لإغراء جذب أنف الخال هلال - تسحبه وتضغطه ملاطفاً، مثلما يقرص أحد ما خد طفل - لأنك كنت تعتقد دائماً أن له أنفاً صغيراً مثل قبضة الرضيع ذي الوجه العريض، إنه يشبه أنف الطفل كثيراً. أنت تشك أن صوته هو الذي منعك من التقدم، أن صوته هو الذي أبعدك على مسافة ذراع، صوته القوي والجهير، المتنوع الطبقات، الذي سجلته وخزنته بعيداً في مستودع ذاكرتك كي تستطيع استخدامه حين تشيخ وتتذكر ما قاله لك، مثلما قاله لأي أحد آخر - صوت يمكنك أن تستعيده كلما رغبت.

لست قادراً، بالطبع، على تحديد تواريخ للحوادث، كما أنك لست قادراً على أن تتذكر بالتحديد متى قالها الخال هلال وإلى من. ربما كان

Twitter: @ketab_n

ذلك عندما كان الصوماليون مازالوا منتصرين و «الأثيوبيون» مندحرين، يفرون إلى «ديارهم»، تاركين خلفهم مدناً لم ينلها الخراب؛ بعد أن هرب مشاتها، تاركين خلفهم ذخيرة غير مستخدمة. وتظن أنه قال حينذاك، «المسألة هي، من هو الأثيوبي؟»

والآن ما الذي يجعلك تكرر إلى نفسك السؤال البياني، «المسألة هي، من هو الأثيوبي؟» ألم تكن تكرره لنفسك لأنه كان في تلك الأيام يمنحك متعة كبيرة في تقليد صوت الخال هلال؟ حدث أن كانت صلاتو تقف بالقرب منك. أنت تعرف كم يحب البالغون أن يجيبوا عن أسئلة الأطفال؟ فعلى الرغم من أن سؤالك لم يكن موجهاً إلى أحد معين، فقد أجابت صلاتو عنه. لم تكن منزعجاً، لكنك رُوعت فجأة. أصغيت، بأدب، إلى كلامها بينما كانت تشير إلى الاختلاف بين البلد الذي أسماه منليك أثيوبيا - الذي يعني باليونانية «الشخص ذو الوجه الأسود» (وكانت صلاتو تشك في أن الذي سماها أثيوبيا أجنبي) - وتلك البلاد التي كانت منطلق سلطته حتى احتلال جيوشه للمناطق الجنوبية في منعطف القرن. كنت منتبها وتتعلم الكثير من صلاتو حين التحق بكما الخال هلال. أصغى لبعض الوقت قبل أن يدلي بدلوه.

قال هلال، «أثيوبيا هو الاسم العام لمجموعة من الشعوب المختلفة، يدينون بأديان مختلفة، ويزعمون أنهم ينحدرون من سلالات مختلفة. لذا تصبح «أثيوبيا» تلك الفكرة العامة المتسعة والشاملة. أما لو جئنا إلى الصومال، فهي خاصة. أي أنك إما أن تكون صومالياً أو لا تكون. على خلاف الحال مع «الأثيوبي»، أو «النيجيري» أو «الكيني»، أو «السوداني» أو «الزائيري». إن اسم أثيوبيا يعني أرض العرق الأسود».

«وأبيسينيا؟»، سألت صلاتو، (هكذا تظن).

لكن الخال هلال استمر، غير معني بالسؤال، «هل تدري ان زائير هي الكلمة البرتغالية لـ «نهر» - والتي هي ربما جاءت من الاسم الذي أطلقه رحالة برتغالي على البلد الذي حدث أنه كان فيه - رغم أن ليس ثمة شيء

Twitter: @ketab_n

وطني أصيل يخصها، كما يريد منا سيسي سيكو أن نعتقد. هل كنت تعرف أن «نيجيريا» قد سميت كذلك من قبل عشيقة لوغارد، نسبة إلى نهر «النيجر» وأن السودان نسبة إلى السود الذين يسكنونها. أما الصومال فهي فريدة. فقد سميت نسبة إلى الصوماليين، الذين ينسلون من عرق واحد والذين يتكلمون لغة واحدة هي اللغة الصومالية».

عدت لتسأل صلاتو بقلق واضح: «ولكن ماذا عن أبيسينيا؟»

فقال، «وأبيسينيا كذلك، هي اسم عام، فقد جاء من الكلمة العربية «الحبشة» - وهي تعني الزنجي. ومرة أخرى يكون للبلاد اسم عام - وليس خاصاً. قبل أن تغدو إمبراطورية، حين لم تكن غير مملكة صغيرة، كانت تسمى أبيسينيا؛ ولكن فيما بعد حين توسعت وأصبحت إمبراطورية سميت أثيوبيا. وكلا الاسمين له خصائص عامة».

وتساءلت هي «ماذا نتعلم الآن من هذه المفاهيم؟ وما هي أهميتها للحرب الدائرة في القرن؟»

فكر لوقت طويل. ثم قال «إن الحرب دائرة بين العام والخاص من المفاهيم - إن الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة والدول الأفريقية الأعضاء في منظمة الوحدة الأفريقية يدعمون العام ضد الخاص. من الجلي، أنهم أنفسهم ينتمون إلى النمط العام».

قالت «لكن الخاص يربح الحرب؟»

فقال متنبئاً، «مؤقتاً ليس إلا».

«ماذا تقصد؟»

وعاد مرة أخرى ليفكر لوقت طويل.

«إن العمومية الأفريقية هي مفهوم تستعمله الحكومة الأثيوبية وباقي الحكومات الأفريقية التي تنتمي شعوبها إلى جماعات وأعراق مختلفة، حينما تواجهها تحديات أقليات وأعراق انفصالية تعيش ضمن حدودها المتسعة والشاملة. بالجدارة المنطقية فحسب يربح الصوماليون قضيتهم -

Twitter: @ketab_n

الشعب الصومالي، منقسم إلى اثنين من الصومال البريطاني (أحدهما مستقل الآن والآخر هو في الوقت الحاضر يعرف بالصومال الكيني)؛ والصومال الفرنسي؛ والصومال الإيطالي (الذي يشكل الجمهورية الحالية - سواء أكانت ديمقراطية أم لا!) والصومال الفرنسي سابقاً (الذي هو الآن جمهورية جيبوتي). إن الشعب الناطق بالصومالية لديه قضية لتشكيل دولة لأمته. . . ولكن. . . !»و هز كتفيه، ثم صمت.

أرادت أن تعرف، «ولكن ماذا؟»

فابتسم هو. «هكذا هو الأمر تحديداً».

فقالت متوترة، «ولكن ماذا؟»

«هذه الـ(لكن) هي التي تقدم عنصراً لتفرد القضية الصومالية، إضافة إلى الخوف المقبول عموماً هو لو تحقق للصوماليين ما يريدونه، فمعنى ذلك أن البايافرانيين سيرغبون في المحاولة كذلك، ولسوف يطالب الماساي بجمهورية لهم أيضا، وكذلك شعب جنوب السودان. الذي غاب عن منتقدي الحلم الوطني العظيم هو أن الصوماليين قد ناضلوا ولسوف يناضلون لإدراك أهدافهم الوطنية، وأن الماساي لم يفعلوا ذلك وليس من المحتمل أن يفعلوا مستقبلاً؛ وأن الصوماليين ليسوا الأقلية العرقية الوحيدة المستاءة من حالتها المتدنية في إمبراطورية الشعب الناطق بالأمهرية؛ أو أن الصوماليين في كينيا، صوتوا في الاستفتاء الوحيد الذي أجرته بريطانيا على أنهم شعب قرر الانفصال عن كينيا والانضمام إلى الجمهورية. إن هذه الـ(لكن) هي التي تقف في طريق الصومالي».

من الطبيعي أنك لا تستطيع أن تتخيل نفسك تسحب أنف أحد، كانت حياته تجسيداً للأفكار؛ وكان صوته أوسع من أي منزل رأيته؛ والذي يتخذ الأدوار المتناقضة كونه «أم» لك ولصلاتو. ألم تضعا رأسيكما الناعسين على صدره؟ كانت مصرا قد علمتك بطريقتها البسيطة أن تعزل الجسم عن الروح؛ أما صلاتو فقد غلمتك الفصل بين الخاص والعام وساعدك الخال هلال في تقبل الآخر.

Twitter: @ketab_n

الآن، هل تتذكر حين سألت، «ولكن ما الذي تفعله يا خالي إذ تغلق عليك مكتبك يوماً بعد يوم؟» هل تتذكر ما الجواب الذي حصلت عليه - وفيما إذا كنت قد اقتنعت به مطلقاً؟

(٥)

يواجه مكتب خالك الشرق، وحين تنظر من النافذة في الصباحات، فإن أشعة الشمس تعمي بصرك، وحين تنظر إلى الداخل، لا ترى شيئاً سوى الكتب، البعض منها ثقيل الحمل والآخر خفيف، البعض منها يحتوي على صور والآخر بدون صور. وفي أي وقت ثمة عدد منها مفتوح وهو يراجعها بتركيز. وتعلمت، متأخراً جداً، أنه كان يبحث في الاضطرابات النفسية التي تسببها الحرب في حياة الأطفال والنساء. يبدو أنه لم يهتم أبداً في توجيه الأسئلة إليك. كان يعلم أنك عاجلاً أو آجلاً ستتكلم؛ ولسوف تخبره عن الأحلام التي تركت آثارها على نمو ذاتك؛ وأنك حتماً، لو سنحت لك الفرصة سوف تعبر عما في نفسك، وتمكنه من تجميع ما توصل إليه من معايير بحث ملائمة كان يعمل عليها. لقد استمع إليك بصبر غير نافد وأنت تتحدث عن مصرا، ومن النادر أن يقاطعك، وفي بعض الأحيان يسجل ملحوظات.

وفي أحد الأيام، وأنتما معاً في مكتبه، عندما كان يشرح لك شيئاً ما حول التشويه المتعمد لأحجام القارات (وهو التشويه الذي عمل اختلافاً أساسياً لحجم كل من أوربا وأفريقيا)، وقد أدهشته وأدهشت نفسك أيضاً، بصياحك، «أنظر، أنظر!»

رأى الخال هلال، من الواضح أنها حبلى، وتمضغ شيئاً ما.

قلت، «إنها تأكل من التراب، مثلما كنت أفعل».

فشل هلال في أن يجعلك ترى الاختلاف بين «التراب» الذي اعتدت أن تأكل لقماً منه، وأقراص الطين التي تقضم منها النساء الحوامل. إلتفت

Twitter: @ketab_n

إليه بغتة جعلته نصف ضاحك، قلت، «إن السبب الذي جعل قارة أفريقيا أصغر هو لأن البالغين، والصغار مثلنا، يأكلون ترابها - مما جعل حجمها يتقلص. أليس هذا صحيحاً؟»

ومرة أخرى، وبصبر يليق بباحث يخاطب طالباً متحمساً ونبيهاً، أوضح لك الخال هلال الأسباب، وليعطيك المضامين السياسية بالإضافة إلى النوايا الاستعمارية لرسامي الخرائط. كان لا يزال في صلب الموضوع حين انفعلت وطفحت فيك الإثارة. من الواضح، كان ثمة كشف آخر رغبت أن تبوح به. فسمح لك.

سألته وأنت تسحب ذقنه، «هل أخبرك يا خالي ما الذي فعلته يوما؟»

قال لك، «أخبرني».

«لقد حضت».

وقد صعق.

«لقد حضت في إحدى الليالي بينما كنت نائماً، كما تفعل النساء. مثلما كانت مصرا تفعل. لكن الاختلاف بيني وبين المرأة هو أنني لم أشعر بأي ألم لا قبله ولا بعده، وأنه قد حدث لمرة واحدة فحسب».

قال غير مصدق تماماً، «مرة واحدة؟»

«على الرغم من أنني أحس بشعور غريب هو أن ثمة «آخر» في داخلي، أكبر مني، إمرأة. لدي شعور واع أنها كانت تتحدث من خلالي، إن فهمت ما أعني. أشعر كأنني سمحت لامرأة أكبر مني تعيش في داخلي - ولا أتكلم أنا كلماتي ولا أفكاري، بل أتكلم بكلماتها وأفكارها. وخلال الوقت الذي أتحدث فيه، أكون أنا هي - ولست أنا. ومن المؤلم الافتراق عن أحد سمحت له أن يعيش فيك، لأنه لا يملك حياة مستقلة، لأنه مات صغيرا أو أن كارثة مجهولةً قد أنهت حياته. وعلى نحو ما، ثمة إحساس واهن بالضيق فيما أحس به كأن موت أمي كان ميلاداً لي، وإن شئت فإن موتها قد منحني الحياة».

Twitter: @ketab_n

نهض خالك من كرسيه ووقف صامتاً خلف النافذة. شيء ما أثار انتباهه فابتعد عنك، متغاضياً عن كل محاولاتك في جلب انتباهه. حتى بدأت القول، لم أكن قد رأيت المرأة التي أتحدث عنها، عدا مرة واحدة، وحتى حينذاك، لم أر غير رقبتها من الخلف لا أكثر من ذلك. رغم أن ذلك يشبه على نحو صارخ الصورة نصف الجانبية للمرأة التي تقول أنها أمي.

كان يتحرك بعصبية حول الغرفة. سألك، «كم عمرك؟»

«ثمان».

وبدت عليه الآن نظرة من تخلى عن قيمة عالم وأكثر من ذلك. جمع ملاحظاته ووضع ركام الورق تحت يده بينما كان يفكر بالحركة التالية التي سيقوم بها. فتح درجاً وجلب علبة ثقاب.

قال لك، «هل تريد المجيء معي إلى الحديقة؟»

قلت، «ما الذي سنفعله هناك؟»

إلتقط ركام الورق الذي جمعه، وهو يقول، «سنشعل ناراً، أنت تحب النار أليس كذلك؟»

فاعترفت، «بلى».

فقال، «حسن، دعنا نشعل واحدة. ماذا تنتظر؟»

وأحرق كل أوراق البحث وقال فيما بعد لصلاتو أن الحديث معك جعله يعي أنه من المؤكد كان يسير بالاتجاه الخاطئ. قال، «الحروب هي الأنهار التي تحترق».

(٦)

من يقول إن كنت تتذكر سماع أحد ما آخر يتكلم بالكلمات ذاتها، «الحروب هي الأنهار التي تحترق»، من قبل؟؛ من يقول إن كنت قد سجلت التردد والامتعاض على وجه الخال هلال في ذلك اليوم الذي أحرق عمل عام كامل؟؛ هذا يعني أنه هو الذي سكن في منطقة الألم، راقداً على

Twitter: @ketab_n

نحو عمودي، ويتفوه بأشياء غير معقولة على نحو غريب: «مادمت نائماً في الفراش، لا أفكر، لا أستطيع التفكير بأية فكرة، ولن أزعج نفسي بالأفكار بعد اليوم»؟ من يقول أنك قمت بالاستدلالات الصحيحة من مختلف الأشياء التي حدثت بعد الكشوف؟؛ من يقول إن كنت «الآن» تتذكر أياً من القصص التي رويت عن أمك - الأخت الصغرى لهلال؟ خلال وقت قصير صرت واعياً بالولادات والميتات كما لم تكن من قبل. ربما عند ذاك (أو نتيجة لذلك؟) أن الخال هلال قد أخبرك بالسبب الذي حدا بصلاتو وبه أن لا يكون لهما أطفال.

«أن تفكر بأن الذي تحبه بشغف يعاني من الألم بعد ألم لا متناه، كي تحمل طفلاً ميتاً! هذا ما أجبرنا على فعل شيء ما. في كل مرة يتحتم عليها أن تحمله لسبعة شهور تقريباً، حتى يأتي ما هو أشد إيلاما لتلد طفلاً ميتا، نصفه دم، طوفان من الدم في الحقيقة. حدث ذلك عدة مرات وكنا نأمل، في كل مرة، لا الموت بل الولادة فصلينا وصلينا وصلينا؛ والتقينا بأفضل الأطباء. وفي النهاية، كان لابد لذلك أن يحدث. تحتم أن يزال أحد المبيضين. فعلت ذلك من أجلي. قلت، أن زوجتي قد عانت. وعلي كذلك أن أعاني. لذلك ذهبت إلى المشفى وأجريت عملية استئصال القناة الدافقة. إن لم تعد تستطيع الإنجاب فلابد لي أنا كذلك أن أكون مثلها. لكننا نحب بعضنا البعض».

ربما قيل ذلك بعد وقت طويل - بعد أن كبرت، حين لم تعد بحاجة للبحث في المعجم عن عملية «استئصال القناة الدافقة»، لأنك توافق على عدم وجود مفردة صومالية تقابل ذلك المصطلح. كلا؟ مما لا شك فيه أنك تتذكر أن مصرا قد أجرت عملية استئصال الثدي - أو بالأحرى أن الخال هلال قد قيل له ذلك. ربما حينذاك قمت بإشارة مؤسفة - إشارة لها علاقة بتبادل الأجساد بين مصرا وصلاتو - وكان من المفترض أنك قد قلت، ولو كان ذلك ممكناً، لكانت للطفل أم حية ليس لديها عضو مبتور أو نصف مبتور! أنت لا تتذكر حتى أي شيء عن هذا التبادل؟ كلا؟ ماذا تتذكر إذن؟

Twitter: @ketab_n

شيء مفهوم أنك تخلط التواريخ، وأنك لا تستطيع أن تفهم على نحو دقيق متى دار ذلك الحديث عن الأجساد المعطوبة والأطراف المبتورة أو الأعضاء المستأصلة. كان ثمة الكثير من الكلام في الصحف عن هذه الأشياء وما يتعلق بها من أجل توجيه أصابع الاتهام إلى العدو الذي كان «آكلاً للحوم البشر وشديد الوحشية». حملت الصحف صوراً للأجساد المعطوبة، ونشرت الصحف ذاتها تقارير عن قائد إسلامي قاده تمسكه بالعدالة إلى إصراره على قطع ذراع أي رجل سرق حاجة صغيرة من متجر؛ ونشرت الصحف ذاتها نتفاً عن جريمة قتل طقسية حدثت في نيجيريا إذ يقال أنهم يستأصلون أعضاء معينة، باستشارة أحد المتطببين، من أي أحد أراد أن يفوز بمقعد في المجلس الاتحادي. لقد عرفت شخصياً ورأيت بعينيك الناس الذين فقدوا ساقاً في الحرب، أو عيناً؛ أو ابناً أو بنتاً. الأشياء التي كانت بعيدة تقربت حين أعيد الحديث فيها مرة بعد أخرى حتى تمكنت من الإحساس، بأناملك، بالعصب الميت الذي قطع لإنقاذ يد. فلا عجب بعد ذاك، أنك لم تكن متأكداً حين تحدث خالك عن فقدانه وفقدان صلاتو لأعضاء من جسديهما.

استمعت إلى قصص رويت عن رجال لم ترهبهم نيران العدو، فساروا ببطولة، دون أن يرف لهم جفن، ليصلوا إلى مبتغاهم - أولئك الرجال الذين حرروا مدناً مثل جيغجيغا. إستمعت إلى آخرين يتفاخرون بتعليق أوسمة الرصاصات التي اخترقت مقدم الساق، قريباً من العظم، وعبر الجباه (لم تكن تتخيل أن أي أحد يمكن أن يعيش بعد ذلك - لكن البعض من الناس عاش فعلا) أو كسرت لهم عظمة الأنف. استمعت إلى قصص عن عضو ذكري لجندي ميت حشروه بين أسنان رفيقه الحي الذي كان سيعدم رمياً بالرصاص (إن كل واحد من الطرفين بربري فهل ثمة مبرر في رواية هذه الحكايات أصلا؟) سمعت قصصاً عن اغتصاب نساء، عن نساء حوامل بقرت بطونهن. وتساءلت وأنت تستمع إلى كل هذه القصص التي رويت، فيما إذا كان للرجال الوقت الضروري ليتلوا صلاة أو اثنتين قبل أن تصبهم

Twitter: @ketab_n

الطلقات، أو إن كانوا قد اغتسلوا - أي، توضؤوا قبل أن يدركهم الموت. ألم تكن صلاتو تلح دائماً أن ترتدي ثيابك الداخلية النظيفة إن كنت ذاهباً لزيارة الطبيب حول أمر يتوجب عليك فيه أن تخلع ثيابك؟ بكلمات أخرى، ألم يواجه أولئك الرجال الموت ثم الرب، خالقهم، في حال أنظف من اليوم الذي ولدوا فيه؟ كل واحد من هؤلاء الرجال، هكذا قيل لك، كان شهيداً، تحشر روحه أبداً مع القديسين والأنبياء والله؛ كل واحدة من أولئك النسوة اللائي اغتصبن سوف ينتقمن لأنفسهن بالطريقة التي يرغبن فيها؛ وكل واحد من أولئك الأطفال سيولد من جديد، أكثر حكمة وسعادة - سيولد ليعيش حياة أطول.

قصص بأجساد متشظية!

أجساد تروي قصصاً متشظيةً!

حكايات عن قلوب محطمة وأرواح مهشمة!

وفي النهاية من يقول، إلا أنت، ما الذي ترغب في أن تحيله إلى ماض منسي؟؛ من يقول إن كان رسمان لفنانين ساذجين كان الخال هلال قد قدمهما إليك، حين أبديت اهتمامك بالرسم، سوف يلعبان بأعصاب ذكرياتك؟؛ من يقول أن لوحة بيكاسو «الجورنيكا» التي عرضها عليك هلال أيضا، قد قامت بما هو متوقع - فقد ذكرتك أن الحروب هي الأنهار التي تحترق، الأنهار التي مياهها خشنة كالصخور، تشوه الواقع؟ أجل، من يقول، إلا أنت، إن كنت فعلاً تستطيع أن تكون دقيقاً مثل إبرة البوصلة، تشير جبهته إلى الشمال نحو محور الدقة المتكررة؟ من غيرك؟

Twitter: @ketab_n

الفصل الثامن

(١)

كانت مصرا في أفكاري لوقت طويل خلال الأشهر الأولى. كانت الحرب مستعرة آنذاك والصوماليون يحرزون نصرا برياً على الأقل وبدأت أنا أتحدث عن زيارة كالافو - وهذا يعني أني سأذهب لزيارة مصرا. حتى أنني بدأت بكتابة الرسائل لها، الرسائل التي أخبرها فيها عن زيارتي المزمعة. كنت أشك في أنها قرأتها لأنها لا تقرأ الخط الصومالي. ربما ساعدها شخص ما. لم أنهِ كتابة تلك الرسائل مطلقاً. أمضينا الكثير من الوقت عند المذياع نستمع إلى آخر أخبار جبهة القتال، نستمع إلى التقارير المتضاربة القادمة من المعركة إلى هرر وديرداوة. كنا نشعر بالفخر والسعادة لإقدام الصوماليين.

ثم، في إحدى الأربعاوات، عدت إلى البيت مصاباً بحمى شديدة. وفي صبيحة الخميس، أخذوني إلى الطبيب. في يوم الجمعة جاء تشخيص الطبيب: إنها الملاريا. كنت أشعر بغثيان طوال الوقت، غير قادر على رفع رأسي. كنت أقيم في أرض الضباب الكئيب. كانت حرارة جسمي مرتفعة على نحو غير عادي، شفتاي جافتان مثل خشبة، وفمي أحمر كما لو كان جرحاً طازجاً. لم أعرف النهار من الليل، ولم أكن أعرف من معي ومن الغائب عني ولم يكن بالإمكان دفعي إلى الأكل. كان في كل مرة ثمة من يساعدني على المشي إلى المرحاض. كنت أشعر بارتجاف الأرض تحتي،

Twitter: @ketab_n

كنت أحس بارتعاش في ساقي. في الحقيقة كنت لأقسم بأن الأرض كانت تهتز تحت قدمي وأتساءل لم لم يعلق أي شخص على ذلك.

على أية حال، دخلت عطلة نهاية الأسبوع تلك حوليات التاريخ الصومالي بوصفها العطلة المأساوية، فقد وجه فيها الجنرالات السوفيت والكوبيون والعدنيون (مع مساعدة قليلة من الأثيوبيين) ضربة قاصمة أعادت قدر الأوغادين وشعبها لأيدي الأثيوبيين. ولك أن تتخيل بأني كنت مريضاً وطريح الفراش حين حدث ذلك. وبينما كانت البلاد تنتحب، كنت أرقد غير واع، في مستنقع الحمى التي تعصف بي، على كسارة الحجارة، على الأشواك.

وبينما كنت أتنقل عبر سرابات بفعل حرارة جسدي المستعرة، إكتشفت أن الملاءات ساخنة حتى أنني لم اعد أستطيع تقريبها مني، وما عاد الفراش بارتفاع يكفي لإبقاء جسدي المتألم في وضع ثابت. كنت أطالب بأشياء مستحيلة، طالبت بصنع المعجزات التي منها مثلاً دراسة إمكانية استبدال جلدي، لأنه كان شديد السخونة، بجلد آخر - بارد. وحينما كانت البلاد تنوح على خسارة الأوغادين، كنت مشغول الذهن بحالة صحتي وجسدي وجلدي. لن أنسى ذلك.

كنت آخر من سمع بالخسارة. ولم تكن آنذاك أي جدوى من البكاء على الحليب المراق. «لابد للمرء من أن يكون قوياً بما فيه الكفاية ليتقبل الهزيمة. لكننا سنعود ربما في غضون عشر سنوات وربما عشرين ونعيد الأوغادين إلى حيث تنتمي - بأيدي الصوماليين»، قلت ذلك وأنا أغذي جسدي الواهن بالطعام الذي أحضره خالي هلال لي. كنت أتكئ على الجدار لأسند ظهري ماسكاً الملعقة بيدي وركبتاي ترتجفان تحت الملاءات، وسألت «ثم ماذا؟ ما الذي تعتقد أنه سيحدث الآن؟» خمن قائلاً، «تدفق للاجئين. هذا ما ستعنيه الهزيمة». كان تعبيري يخبره أني لم أكن أتابع جدله. وهكذا، علق قائلاً لو كسب الصوماليون الحرب لما كان هناك لاجئون «صوماليون» بل لاجئون «أثيوبيون» واستمر، عموماً، في

Twitter: @ketab_n

تثبيت طريقه للدخول في صلب المشكلة، مادام الأثيوبيون لا يملكون سوى الحاميات العسكرية وليس لديهم سكان مدنيون في الأوغادين (ربما يكون في كالافو مثتا امرأة تقدم خدمات ما للحامية العسكرية الموجودة فوق التل - وهناك الكثيرات ممن لم يعبرن، مطلقاً، الجسر الذي يفصل الجانب الأثيوبي للنهر عن السكان الصوماليين المدنيين)، نعم، لو خسر الأثيوبيون في الحرب، لأصبح الرجال الذين وقعوا بأيدي الصوماليين أسرى حرب لا لاجئين.

«ولو لم اصل مبكراً، ولو لم أصل حتى بعد إعادة احتلال الأوغادين على أيدي الجنرالات من الجيوش السوفيتية والكوبية والعدنية - فما الذي سيحدث؟»

لكل صومالي الحق بأن يعيش في جمهورية الصومال. وقد ينتمون إلى أي منطقة تتكلم الصومالية، سواء أكانت كينية أم أثيوبية أم حتى جيبوتية. لكل صومالي حق المولد الدستوري بالإقامة في أي مكان من الجمهورية، وإن وضعية اللاجئ تشير بإصبعين إلى مسألتين متوازيتين - سياسية واقتصادية، إذا كان ثمة صومالي في أثيوبيا أو كينيا أو جيبوتي يخشى على حياته، تكون لذلك الصومالي وضعية اللاجئ السياسي، لكن لا حاجة ليعلن نفسه كذلك ما لم يكن في موقف يعجز منه عن البحث عن وظيفة والحصول عليها وأن يعيش وهو يمارس مهنته. ومع ذلك، إذا كان الصوماليون القادمون من خارج الجمهورية غير مكتفين اقتصادياً أو إذا كانت علاقاتهم غير جيدة بما يكفي لدعمهم، بإمكانهم عندئذ التصريح بأنهم «لاجئون». وتشير التقديرات إلى أن أكثر من ثلث السكان المسجلين في الجمهورية جاؤوا من الأوغادين أو جيبوتي قبل مدة طويلة من حرب عام ١٩٧٧. وقد التحق الكثيرون منهم بالجيش، وهم يشكلون نسبة كبيرة من الجنود وفيلق الضباط. والتحق الكثيرون منهم بالمدارس والجامعات هنا، أو بالخدمة المدنية أو الحكومة في مجال أو آخر، وبعضهم يشغل وظائف راقية جداً كوزراء أو مدراء عامين في حين تم تجنيد البعض الآخر في السلك الدبلوماسي.

Twitter: @ketab_n

«وما الذي سيحدث لأولئك الذين لم يغادروا الأوغادين؟»

«يسمم الأثيوبيون الآبار، مثلا، ويغتصبون نساءهم ويسوقون أطفالهم للجيش الأثيوبي أو الشرطة. ويجبرونهم على تعلم الأمهرية، ويضطرونهم إلى تبني الثقافة «الأمهرية» ويطردونهم من أرضهم».

كانت ثمة وقفة. تناولت ملعقتين من حساء الخضار والمعكرونة الذي أحضره الخال، وأضفت له الملح والفلفل والليمون، جلس على حافة السرير دون أن يسند ظهره، وظننت أن توتراً كان يؤثر في فقراته القطنية. كان يلمس عموده الفقري كما لو أنه كان بارداً وهو يحث الدم إلى جهاز الدوران.

سألته، «هل يمكنك التفكير بمواقف مشابهة في أماكن أخرى؟»

قال، «ما الذي تقصده؟»

سألته، «هل يمكنك التفكير بأي بلد يستطيع منه الشخص المولود في بلد آخر أن يحصل على جنسيته اعتمادا على قوة اصله العرقي؟»

«نعم، الألماني العرق هو، بحكم القانون، من رعايا جمهورية ألمانيا الاتحادية، وكل من تولد في ألمانيا الشرقية هو أيضاً من رعايا ألمانيا الغربية تماماً».

بدا عليه الإعياء - وتحدث بكلل أيضاً - وصار يسترد أنفاسه طويلاً أثناء حديثه. تساءلت إن كان ثمة ألم في ظهره يسبب له توتراً في أعصابه. اقترحت عليه أن يجلس في مقعد سليم، وقد فعل. شعرت بالضعف - بالضعف الذي شعرت به مصرا حينما أجهضت. تذكرتها وهي راقدة في الفراش لأيام. كانت خسارة الأوغادين أعظم، قطعا. لكنني لم أستطع النظر إليها سوى أنها خسارة شخصية حتى أفهم أبعادها. بدا كما لو أن دمائي كلها قد أفرغت مني - هذا هو الضعف الذي شعرت به. وهكذا بدت لي جسامة الخسارة.

قلت، «لكنهم لن يأتوا إلى هنا، أليس كذلك؟»

Twitter: @ketab_n

«هم، من هم؟»

قلت، «الأثيوبيون؟ لن يأتوا إلى مقاديشو؟»

تأمل خالي هلال للحظة ثم، «لقد زعم منليك مرة، وهو الإمبراطور الذي منح البلاد اسمها، بأن حدود بلاده تتضمن الصومال بأكملها، وأجزاء من تنزانيا الحالية، والجزء الأعظم من كينيا وأوغندة بما فيها بحيرة فكتوريا وأجزاء من السودان الأعلى وضمن ذلك الخرطوم لأنه كان يرغب بالمطالبة بالنيل. كان يسعى وراء منطقة ساحلية من أجل الحبشة التي تحيط بها اليابسة. وقد قام الإمبراطور هيلاسي لاسي بمطالب مشابهة للوصول إلى البحر في أواخر عام ١٩٥٣. وفي النهاية تخلى هيلاسي لاسي عن مطلبه لأن الأمم المتحدة قد أعطته أرتيريا، التي لها منفذ يوصل إلى البحر، ليديرها. فقام بضم أرتيريا».

قلت، «لن نسمح بذلك فمقاديشو لنا».

قال، «لن نسمح بذلك، الآن تناول طعامك».

وبعد صمت، قلت «أحب مقاديشو كثيراً».

قبلت بمقاديشو على أنها مقياساً آنياً، أحب شواطئها الرملية واستحم ببحرها، وامقت حرارة منتصف الظهيرة فيها لكنني أحب فضاءاتها الهائلة وأرضها البنية المحمرة التي تزهر فيها أفكاري. فهمت أنني سأغادرها يوماً لكن ربما لأحبها أكثر. فلدي عمل لأؤديه، مثلما اعتاد أرماديو القول. لدي وطن لأعود له ولأعيد تحريره، وأم لألم شملي بها. بمقدوري سماع خالي هلال يقول «لكن قبل أن تغادر. . . . ، لكن قبل أن تغادرنا»، بمقدوري سماع صلاتو تبدأ - أنا أعرف. عرفت أنني غير مضطر إلى بذل جهود أكبر للدراسة، وإنفاق ساعات أكثر على الدراسة والقراءة أكثر من الفتيان والفتيات الذين لا يحملون على عاتقهم النوع نفسه من المسؤوليات التي أحملها، والذين ليست لديهم، مثلي، وظيفة ليؤدوها. كنت أجلس مع هلال وصلاتو ليتم تفسير الأمور لي بتفصيل أكثر شرحا. كانت الخرائط تعرض علي، سايكلوجيا الحرب، لماذا لم يجرؤ الكوبيون على خوض

Twitter: @ketab_n

الحرب مع جيش جنوب أفريقيا في أنغولا، لماذا كانوا ينسحبون كلما قام الجيش - الذي يعتمد سياسة التمييز العنصري - بغزوات حربية على البلاد التي يرابط منها عشرون ألفاً من جنودهم. في صحبة صلاتو وهلال كان للكون منظور مختلف، كان يتقلص إلى لوح شطرنج صغير لم يكن فيه الأفارقة ملوكاً ولا ملكات ولا أساقفة، ولا حتى بيادق - حيث كنا جزءاً من الاحتياطي، لم تكن أرضنا سوى ساحة لعب، تحولت حروبنا إلى شأن من شؤون عطل نهاية الأسبوع التي يستعير خلالها الروسيون الدبابة الألمانية الغربية الصنع، والتي أطلقت عليها شفرة «الظبية» ويبيعونها إلى ليبيا. كانت الفكرة أن يتم اختبار فيما إذا كانت هذه القطعة المعقدة من آلة الحرب الألمانية تصمد في ظروف الأوغادين ومناخها. وبعد مهمة عطلة نهاية الأسبوع تم ترحيل «الظبية» إلى الأوديسا وتفكيكها، تبعاً لما ورد في تقارير مخابراتية غربية جاءت بها رويتر ووكالات أخرى. سباق فئران أسرع من سباق التسلح - ونحن نموت جوعاً!

مقاديشو برمالها البيضاء كدخان نار أضرمت للتو، مقاديشو - أقدم مدينة في جنوب الصحارى، المدينة التي قصفتها قنابل البرتغاليين، ونهبها العرب واستعمرها الأتراك العثمانيون وأخضعها الإيطاليون وباعوها، في نهاية القرن، بوساطة زنجباري دفع ثمناً لها يقل كثيراً عما كلفته بومباي لبريطانيا أو مانهاتن لهولندا. وأجّر سلطان زنجبار المنطقة، من الباطن، إلى الإيطاليين. أحب مركزها الذي تكشف فيه عن تراث عرقي وثقافي متعدد. أحبه لأنه لا يجعلني أشعر بالصغر وأنا أعلو بنظري إلى ناطحات السحاب العالية جداً.

مقاديشو - مكان للغسيل الجاف. هكذا رأيتها حينما دخلتها أول مرة. رأيت أعلاماً من الملابس النظيفة على حبال الغسيل خارج منازل الناس وباحاتهم. رأيت أعلاماً منها تلوح برسائل ترحيب للصبي الخائف، الذي هو أنا. وأول شيئين لاحظتهما حينما دخلت مصرا «بيتي» أحذية على رف ومرايا، الكثير من المرايا على الجدران. وقد فسروا لي الأمر بأن خالي

Twitter: @ketab_n

هلال يملك الكثير من الأحذية لأنه يمشي كثيراً ويبلي أحذيته أكثر من أي شخص آخر رآه في حياته. بعض أحزمة أحذيته تتقطع، وتبلى أعقابها، فيتخلص من معظم أزواج الأحذية في شهر، والحد الأقصى شهرين، هكذا قالت صلاتو. وقد لاحظت أنها ليست من أفضل نوعية - ليست بمستوى نصف جودة ما يرتديه العم فورح، هكذا رأيت.

ما الشيء الآخر الذي لاحظته حين دخلت هنا لأول مرة؟ إن الأمر يستغرق مدة أطول حتى أغدو رجلاً بالغاً. وقد يستغرق الأمر سنوات حتى يقتنع المرء أن عليه أن يكسب لنفسه زوجة، إن كان رجلاً، أو زوجاً إن كانت امرأة. أتذكر الفتيات اللواتي تزوجن قبل عامهن الخامس عشر، والكثير من الفتيات قبل أن يبلغن العشرين. لم يكن الحال هكذا في مقاديشو. والفتيات والفتيان لا يتطلعون إلى الزواج وإنجاب الأولاد، لا. كانوا يحلمون بالسفر إلى الخارج. هل كانت رائحة البحر هي التي وضعت الفكرة في أذهانهم؟ أم أنها روائح الأطعمة الأجنبية التي كان يحملها الهواء، أطعمة توحي بعوالم أخرى، ثقافات أخرى - هندية وفارسية وعربية وإيطالية ومصرية. تصورت أنني في مقاديشو أستطيع أن أقرأ في وجوه الناس رغبة في طور الشباب والجمال والرشاقة إلى الأبد. ويتصرف متوسطو العمر من الرجال والنساء كما لو أنهم في العشرينيات.

لا يرتفع نهر في مقاديشو، بل البحر. إنه يبدأ هنا، البحر، سيشعرك كما لو أنه كذلك، أزرق، مثلما هو على الخارطة أمامنا، معرّق بأمواج نبيلة، حية بقدر ما هي مميتة، إنه معرّق بمد يعلو مرة في النهار أو في الليل، مد ينبئك بأن القمر سيكون بدراً أو هلالاً. وللبحر جرفه، وأمزجته وخدعه، إنه يمنح الهدايا ويسرق حياة المرء، يظهر للمرء مكامن الضعف فيه وأين مكامن التأمل في الجسد. البحر تنورة السفن التي ترتدي البضائع، إنه العقد الذي يتقلده محبو الذهب، إنه المشتريات المعفاة من الضرائب التي يجلبها المهربون إلى اليابسة. البحر خارطة: يخبرك بلغته عن مكان المتعلمين، ويكشف لمن أوتي القدرة على كشف الأسرار - عن موضع

Twitter: @ketab_n

النفائس. ألم يوظفه كل المؤرخين، على النحو الذي وظفوا فيه ذكاءهم وإمكانياتهم في قراءة الخرائط والكتابة - ألم يعبروه لغرض الاحتلال والاخضاع والاستعمار؟ ذكر العم هلال مرة أن من سوء حظ الصومال هو أن القوتين الاستعماريتين - وأنا أستعمل هذه العبارة غير الوافية لعدم وجود بديل أفضل عنها - تقفان في طريق الأوغادين، للانضمام إلى الجمهورية. نعم، فهاتان الأمتان غير أوربيتين، ولم تعبر أي منهما المحيطات، كلتاهما جارة للصومال. أي بعبارة أخرى أن تتخلص نفسك من مستعمر قادم من وراء البحار أسهل من طرد مستعمر أفريقي. الصحارى الغربية تجد الأمر قاسياً وأرتيريا - في وضع مشابه جداً - تجد نفسها معزولة وغالباً غير ودودة - ناميبيا مختلفة. وسواء أأحببنا الأمر أم كرهناه، فإنه يلعب دوراً مهماً في سياسة اليوم - ولناميبيا حسنة كونها مستعمرة، إن كانت تلك هي الكلمة الملائمة، من قبل «قوة قادمة من وراء البحار».

مقاديشو! في إحدى المرات سألت صلاتو هلالاً، «ماذا عن مقاديشو التي تغوي الزائر؟ لماذا لا أحد يغادرها حال مجيئه».

شرح الخال خلال طبيعة الحكومات الاستعمارية الجديدة وكيف تطور نوعان من المدن، تاركة الداخلية منها لمصيرها الكارثي.

«نعم، نعم، لكن لماذا؟»

«إن المدن التي لها تواريخ غامضة لا تملك صفات ساحرة. وتاريخ مقاديشو مضاء مثل مخطوطة. هناك معالم تاريخية يرجع تاريخها إلى القرن التاسع، وهناك مساجد وأضرحة - تشخص بآثارها - التواريخ التي نتحدث عنها، ربما هذه هي ما يبقيهم هنا؟»

مقاديشو - أنت لي فردوس مؤقت. سأغادرك، لكنني سأحبك دوماً.

ومثلما توقعنا، تدفقت أفواج اللاجئين من صدوع مقاديشو بعد شهور قليلة. لا يمكنك الذهاب إلى أي مكان من دون أن تراهم في الشوارع مغبرين ومنهكين كما لو أنهم تركوا الأرض وراءهم. أما الذين لديهم أقارب أثرياء بما يكفي لإيوائهم وإطعامهم فقد فعلوا الشيء نفسه بتحفظ. إلا أن

Twitter: @ketab_n

الكثيرين لم يكن لديهم من يتوجهوا إليه. أو كان لديهم أقارب لم يتدبروا أنفسهم فهم على النزر اليسير مما لديهم، إذا أخذنا بالاعتبار الأسعار المتضخمة التي جاءت بها الحرب، لأنها كانت حرب باهضة الثمن طالبت بالكثير من الحيوات والممتلكات. وتوجب بعد الحرب إبطال قيمة الشلن الصومالي. وصار من النادر الحصول على أي شيء عدا الجوع والفساد والفقر. وبدأ الناس يظهرون اللاعطف إزاء أحدهم الآخر وأصبحت الشفقة واحدة من تلك الخدمات النادرة. ولقي الكرم المصير نفسه وغذاه الشك الذي تملك صدر كل شخص صار يخشى كل شخص آخر. ونحن أيضاً كان لدينا الكثير من الأقارب الذين جاؤوا للبقاء معنا لفترة، وملأ الخال هلال وصلاتو كرشيهما بالطعام، وقبضتيهما بنقود السفر على أمل أن يواصلا رحلتهما الاستكشافية. وعمد بعض من هؤلاء في النهاية إلى إضافة أسمائهم وتواريخهم إلى إحصائيات ومتاعب وكالات الإغاثة التابعة للأمم المتحدة.

ثم حدث أمران، في وقت واحد إلى حد ما. لا يمكن أن أتذكر أي منهما حدث الأول. ذكر خالي هلال أن صديقه في المكان الذي يدون فيه اسم كل صومالي في المدرسة يسعى وراء الحصول على وظيفة أو يرغب في الانضمام إلى الخدمة المدنية - قال بأن المحافظ قد وقع أوراقي. هذه الأوراق تعرفني بأني مُعال من الخال هلال وصلاتو. وأنا أعتقد أنه خلال الأسبوع نفسه، وربما قبل أو بعد يومين جلبت صلاتو إلى البيت أخباراً تفيد بأنها وجدت عثمان. لست واثقاً من التواريخ. كان عثمان قريبها وكان طالباً في جامعة الصومال الوطنية في مجال له صلة بعلم اللغة الاجتماعي، وإن كنت أتذكر بشكل صحيح فإن مقاله كان عنوانه شيئاً من قبيل «سوء تلفظ الصومالية من قبل المتكلمين غير المحليين». وعلى الرغم من احتمال أن يكون العنوان، هو «سوء استعمال ضمائر التذكير والتأنيث من المتكلمين غير المحليين»، لأن المتكلمين بالصومالية من غير المحليين كانوا يواجهون صعوبات تشابه ما كان يواجهه المتعلمون الأجانب حينما يتعلمون الألمانية.

Twitter: @ketab_n

كان هلال وصلاتو يمتعان نفسيهما، بإمكاني رؤية ذلك، وإن كنت لا أعلم تماماً أسباب ذلك. فأستاذ عثمان نفسه كان «يسيء استعمال ضمائر التذكير والتأنيث»: وهذا مصطلح يشير إلى الموضع الذي يحدث فيه الخلط حيث يتم إحلال ضمير الشخص الثالث للمذكر محل ضمير الشخص الثالث للمؤنث. قالت صلاتو، «عثمان في وضع مثالي، يدرسه شخص هو أفضل موضوع للدراسة».

يبدو أنهما لم يكونا يحبان أستاذ عثمان. كان صومالياً من مكان ما في شرق أفريقيا، ربما تنزانيا، كانت لديه طريقته بإلحاق نفسه بك، يربط ذراعيه بك كما لو أنك رفيقته. شاهدته في مناطق قريبة، وراقبته حينما جاء لبيتنا مرة وهو يتناول كل ما يجده في الثلاجة من دون استئذان متغافلاً وجود الآخرين. قيل أنه أستاذ. وقيل أنه خان أصدقاءه وتحدث الكثير عنه بسوء. لكنه كان يحظى باحترام وافر من الأجانب. وحينما انتقل هذا الرجل إلى الصومال، ذكرني بالجنود الأثيوبيين الذين سمعتهم يتحدثون الصومالية في السوق. على نحو لا يشيرون فيه إلى جنسهم بضمائر سليمة، فكانوا يشيرون إلى الرجال بـ «هي»، وإلى النساء بـ «هو».

«مثلاً»، قال الخال هلال بصوت يوحي بأمرين - أن الموضوع قد تغير قليلاً، وأنه كان ينوي التفوه بعبارة أصيلة. فقد قال، «في لغة الولوف قلما يكون ثمة ما يشير إلى التفريق بين الجنسين. فالذي يتحدث الفرنسية دون أخطاء تجده حين يتحدث إلى زوجته الواقفة أمامه والتي بمقدوره رؤيتها والمؤشرات واضحة على أنها امرأة، يشير إلى أنها «هو». وكذلك الحال مع الزوجة التي قد تشير إلى زوجها بالضمير «هي»».

وسألت، غير مصدق، «هل حقاً ذلك يا خال؟»

قال، «إسأل كل من يتكلم لغة الولوف».

قالت صلاتو، «يا للدهشة!»

أنبأنا صوتها أننا استنفدنا الموضوع وربما حان الوقت لتناول موضوع آخر يخص مجال اهتمام آخر. لم نمنع أنفسنا، إلى حد ما، من العودة إلى

Twitter: @ketab_n

مسألة أوراق هويتي. فمتى علي الحصول عليها؟ وما الأثر السايكولوجي الذي سيترتب منها عليّ؟ هل أنوي الاستقرار في الجمهورية دائميا؟ ما فرصي للعودة إلى الأوغادين أو الالتحاق بحركة التحرير؟ باختصار ما الذي يعنيه كل ذلك؟ وعند ذاك أثرت الدهشة حتى على نفسي، سألت:

«هل ثمة متسع لمصرا في أوراق هويتي؟»

قال هلال بصوت كأنه فاقد لحيويته، «ما الذي تعنيه؟»

قلت، «أنت تتذكر أنك أريتني أوراقك» - رأيت حينها السعادة التي بدت عليه، وأعتقد أنني أعرف سببها، لكني واصلت كلامي رغم ذلك، وهذه المرة بنظرة مختلفة - ولاحظت أن في الأوراق فراغاً مخصصاً للوالدين الأصليين وللأوصياء وليس لأي شخص آخر مثل مصرا التي ليست واحداً من أبوي وليست وصية عليّ حالياً.

كان كل ما قاله، «بالتأكيد»، لكني أراهن أنه لم يعلم ما كان يتحدث عنه.

كنت على وشك أن أضيف بأن مصرا تعني الكثير بالنسبة لي، أكثر من أي شخص آخر حينما اعتذرت صلاتو وغادرت غرفة الجلوس تماماً، تبادلنا النظرات، أنا والخال هلال، وانتظر كل منا الآخر ليقول شيئا. أحسست بأن كلا منا يعرف الفكرة التي كان يسمع طنينها في رأس صاحبه، الأفكار التي كانت حبيسة في رأسينا مثل نحلات أسيرة في قنينة لم تعرف سبيلاً للخروج منها. لم أره مطلقاً ينظر بمثل هذا الحزن، ولا رأيته أبداً يبدو بهذا الاكتئاب باستثناء مناسبة أخرى حدث فيها خسوف الشمس، لكننا سنعود لهذه الحادثة فيما بعد. يكفي القول أنني صممت تماماً آنذاك على عدم إثارة الموضوع مطلقاً؛ ولن أشير إلى والدي، لمصرا وللخال هلال وصلاتو في جملة واحدة. وتذكرت الغموض الذي كان عليه حينما سألته مرة أن يذكر لي أبرز القضايا في يوميات والدتي. في تلك الأيام كانت الأفكار القبيحة تجوب رأسي؛ منها أن العم قورح قد اغتصب والدتي وأنني إبنه. ومنذ ذلك الحين لم يكن ليوميات والدتي وجود غير خبر واحد يفيد بأنها توفيت بعد

Twitter: @ketab_n

ولادتي، ذلك الخبر الذي يتناقض مع الرأي الذي تؤمن به مصرا - أم تراني أخلط الأشياء؟ وبعد توقف طويل، طويل، قلت، «حقيقة الموقف هي أن مصرا لكونها من الأرومو، كما ذكرت لي، تنتمي لشعب هامشي، ولا يمكن لأي أحد أن يعتقد أن الأرومو يشكلون ما يزيد على ٦٠٪ من سكان أثيوبيا، على الرغم من كونهم لا يحتلون سوى مكانة هامشية، وهكذا فقد توجب على الأرومو تبني إما الهوية الصومالية أو الأمهرية. حمداً لله أن أصولي العرقية تتطابق مع الأوراق التي أنوي إصدارها»، هكذا أنهيت كلامي.

نسيت ما قلته، أو ما إذا قال هو شيئاً. أتذكره ينظر بشيء من الارتياح من أننا توصلنا إلى نهاية تلك الجولة. ولهذا عليك أن تضع هذا في ذهنك رجاءً إن لم أشر - خلال مجرى هذه الرواية - على نحو مباشر أو غير مباشر إلى يوميات والدتي أو ما يتعلق بها من موضوعات.

(٢)

بعد يومين من هذه المناقشة، دخل خالي هلال إلى غرفة الجلوس حيث كانت صلاتو تساعدني في التمرن على الكتابة. تمشى جذلاً كرجل اكتشف بنفسه أكثر النفائس الدفينة عمقا. لم أظن، إلى حد ما بأن للأمر علاقة بي، أو أنني ربما أحصل على هدية غير متوقعة. جلست حيث أنا وتركت صلاتو تكلمه، وتركتها تكتشف ما الذي أسره هكذا.

سألته صلاتو، «ما الأمر؟»

قال بطريقة من يسرد الحقيقة فحسب، «ها هي».

وأخرج من جيبه ورقة بهت - كما أظن - لونها الأخضر قليلاً، تحمل بعض الكتابة. كانت مطوية وبطباعة رخيصة - على ما أذكر - من النوع المنجز بثمن بخس وعلى عجلة وصورتي ملصقة في أعلى اليمين منها وانحنى وسطها بغير انتظام.

Twitter: @ketab_n

قال، «قلت، خذها»، عند ذاك فحسب أدركت أنه كان ينظر إليّ، وكأنني أعرف ذلك للمرة الأولى. كانت الفكرة هي أنني أنا ولا أحد غيري من كان يوجه له الخطاب وسوف يمنحني شيئاً، لكنني لم أستطع أن أتحدث عنه. وثبت على قدمي مذعوراً وفتحت يدي كلتيهما لتلقيها.

أعلن، «أنها بطاقة هويتك».

ومن طريقة إعطائي إياها يمكنك أن تعتقد أنه كان يعهد إلي بـ «حياة» جديدة تماماً. ها هي، بدا لي أنه يقول، حياة أخرى تحت تصرفك، حياة لابد من أن تعتني بها جيداً مادامت هي من ورق، تنتجها يد إنسان تبعاً لقوانين إنسان. أمسكت بها برفق ولكن بحزم أيضاً، بالطريقة التي تمسك بها طفلاً حريرياً. وبينما كنت أنظر إليها أشرك الخال هلال صلاتو في حوار مهيب كما لو أنها كانت شاهداً على زفافي إلى نفسي.

قال، «إفتحها. هيا، لن تنكسر».

فعلت ما قيل لي.

قال، «إقرأها».

إخترت أن أقرأها لنفسي، أبقيتها مفتوحة مثلما يفعل المرء مع كتاب وشعرت بوسطها غير المنتظم مثلما يشعر المرء الذي يعاني من ألم عرق النسا في عموده الفقري. منحتني الورقة جزيئات - إسم، إسم الأب واسم الجد وكذلك اسم الأم. لاحظت أن ثمة فاصلة موضوعة، بين اسم أبي الحقيقي واللقب الذي اكتسبه من ذهابه إلى الأوغادين من قاعدة حمر. كان عليّ أن اقصر ذاكرتي على رقم الهوية ولا أفقدها، وإلا لن تقبلني المدرسة. والأهم من ذلك أنني لم أكن لاجئا! هل قالت صلاتو أنني أحتاج الهوية لأكون معهم؟ على أية حال وأنا أنظر إلى الصورة التي اندرج اسمي تحتها مثل تعليق، طفقت أرى نفسي في صور محفورة من حروف ألفها اسمي. كانت تعني أنني كانت لي عائلة، وأنني لم أكن مجرد لاجئ من الأوغادين. هذا ليس عدلاً، فكرت مع نفسي، إذ لم يرد حتى ذكر اسم

Twitter: @ketab_n

مصرا في بطاقة هويتي. والآن تخلصت من اعتقادي السابق من أن هذا سببه كونها من الأرومو وأنا صومالي. واستنتجت بأن الأمر يعود، ربما، إلى أن علاقتنا يعود تاريخها إلى قبل مجيئي إلى مقاديشو وقبل ذلك - إنه يعود إلى ما قبل أن أكتسب أنا نفسي الهوية الصومالية بشكل مكتوب، ذكرت نفسي من أن مصرا تنتمي لماضيي «غير المتعلم» - وأعني به أنها تنتمي لماضيي الذي كنت أتحدث فيه الصومالية من دون أن أكتبها أو أقرأها.

ثم، وعلى عجل، إنتقلت أفكاري إلى موضوعات أقل جدلاً، وتذكرت اليوم الذي التقطت فيه الصورة، تذكرت حجم الجلبة التي أثيرت حول ملابسي، تذكرت كيف أُجبرت على تغيير القميص والسروال اللذين كانا مفضلين لدي، ثم - وأنا أفكر بأنه لم يكن «أنا» من ارتداها بل كانوا «هم». (في أحيان كثيرة أقرن قطعاً معينة من الملابس بشخص ما أو آخر. فمثلاً، لقلادة صلاتو حرف «S» يتدلى منها، ولهذا فإني لا أقرن الحرف بها فحسب، بل أنه يعني لي الحرف نفسه الذي تقترن به فكرة «الصومال»). وكنت أتساءل إن كان ذلك يثير أي إحساس بالاعتقاد بأن الصورة التي بحجم جواز السفر قد تساعد أي شخص على التعرف على هوية شخص ما؟ هل نحن وجوه فحسب؟ أعني هل أن الوجوه هي مفاتيح هويتنا، وماذا عن رجل مثل عوضان، بساق خشبية - هل تعرف ذلك من صورته؟ وماذا عن طفل مولود حديثاً، طفل منبوذ في صفيحة الأزبال، طفل يعصف به عنف الخيانة - هل ستتمكن أن تقول من هو من خلال تجفيف لطخات الدموع والمخاط، هل ستعرف مولدته، هل سيوصلك أثرها لوالدته أو والده؟

وحدي درست تفاصيل هويتي بالعناية التي يتفحص بها شخص مثل هذه الأشياء - بعناية رقيقة. لقد تعلمت مقدار طولي، ووزني، وكيف يلفظ اسم جدي بالكتابة الصومالية الجديدة عليّ. وبحنين قرأت اسم المدينة في الأوغادين التي ولدت فيها - كالافو - وكنت سعيداً لمعرفة كوني طالباً في حقل المهنة. ثم قفز سؤالان إلى رأسي في آن واحد: أحدهما، هل ستمنح

Twitter: @ketab_n

مصرا بطاقة هوية صومالية إذا جاءت؟ وإن كان الجواب لا، فلم لا؟

أعترف بأنني إعتقدت أنني كان متوقعاً لي من تلك اللحظة فصاعداً، أن أتصور نفسي بالهوية التي وجدت لي. على الرغم من وجود أنواع أخرى من الصعوبات التي واجهتها، حين جاء شاب عاطل من أقارب صلاتو ليعمل معلماً لي. كان اسمه «عثمان». والآن أصر هذا الشاب على أن يذكرني من أنا، ولعله كان يقول «هل تعرف من أنت؟ أنت لاجئ، هربت من الحرب في الأوغادين، وسواء أخسر الصوماليون هذه الحرب أم لا، سيتوجب عليك أن تتذكر من أنت وعليك - عندما تكبر - أن تعود إلى الأوغادين مقاتلاً، ومحررا». ومع ذلك، كان موقف صلاتو وخالي هلال مختلفا، وهو السماح لي بأن أعيش حياتي - بالتأكيد من خلال قطع الوعد بأن أبذل الجهد لجعل حياتي أيسر. وقدر تعلق الأمر بعثمان، لابد من تدريبي كجندي، وأن لا يتم إرسالي إلى المدرسة كأي صومالي عادي، لا. كان يؤكد أنه لو لم يمنح الآزانيون دعة المواطنة أو وضعية اللاجئ، مثلما حدث في حالات الخط الأمامي فلعلهم كانوا سيستخدمون روحهم القوية كقوة عظمى لن يتمكن النظام العنصري من مجاراتها. وأعترف أنني واجهت صعوبة في تصور نفسي بالمعنى الذي يذكره عثمان، مع أنني أدركت لاحقاً أنه كان حصيفاً في أمور معينة. ومع ذلك أخبرته صلاتو، ولأكثر من مرة أن يتوقف عن وعظي. قالت له يوماً، «بلا سياسة، علمه القراءة والكتابة فحسب». وتحدث الخال هلال مطولاً، وتكلم عن الكيفية التي كانت فيها القراءة والكتابة من الأمور السياسية مثل تصويتك، إن قدر لك أن تعيش في بلد تجري فيه انتخابات. «فكر بالعرب وهم يفرضون على لغتنا الأفريقية فكرهم الغريب، فكر بالقوميين الصوماليين الأوفياء وهم يمنحوننا نصاً غير اقتصادي وتصعب قراءته. إذن، ما هو الشيء الأكثر سياسة من الكتابة؟ أو، بالنسبة لتلك المسألة القراءة؟» قال ذلك وهو يلتفت إلى صلاتو التي بقيت صامتة كما يبدو لأنها أدركت أنه أساء فهمها.

وبينما كنت أتذكر كل ذلك، منحت أوراق هويتي مزيداً من التمحيص

Twitter: @ketab_n

وهي تفترض أهمية أكبر مما قاله عثمان معلمي، والخال هلال. لأنني يمكن أن أرى جازماً أنه أمام فراغ «القومية» هناك كلمة «صومالي» مطبوعة بحروف كبيرة وبأناقة. هل يعني ذلك أنني ما كان علي أن أعد نفسي لاجئاً بعد الآن؟

طرحت السؤال على خالي هلال. وبينما كان يبحث عن الأمور الصائبة ليقولها لي بدأت في هذه المناسبة تحديداً وبشيء من الجدية الملائمة، بدراسة الخارطة اللغوية للقارة بصيغتها الجديدة التي حدثها باحثو مركز الوكالة الأفريقية بلندن.

(٣)

قال الخال هلال، «الصومالي هو رجل أو امرأة أو طفل، لغته الأم هي الصومالية. هنا تكون اللغة الأم مهمة. مهمة للغاية وليس ما يكون عليه شكل المرء. أي أن الملامح لا علاقة لها بصومالية الصومالي أو لا. والحق أن بالإمكان تمييز الصوماليين عن أي شعب آخر بسهولة، ولكن قد يلقى المرء صعوبة يمكن التكهن بها إذا اراد أن يقول أن هذا أرتيري أو اثيوبي أو من السودان الشمالي وتميزه عن الصومالي ما لم يأخذ بنظر الاعتبار الاختلاف الثقافي. الصوماليون شعب متجانس، إنهم متجانسون ثقافياً في كلامهم ويتكلمون اللغة نفسها حيثما وجدوا. ولا يصح هذا الأمر على أي شعب يطلق على نفسه «أثيوبي» أو «سوداني» أو «أرتيري» أو «نيجيري» أو «سنغالي».

كان نهر من الأفكار يشق طريقه مثل نهري شيبللي وجوبا، في الخارطة التي أمامي، ويصب في دماغي. صوته يبعث في نفسي الهدوء وأنا أصغي إلى إرتفاعات وانخفاضات إلقائه الجميل لأفكاره.

واصل قائلاً، «الهوية الصومالية واحدة يشترك بها الصوماليون جميعا، بغض النظر عن عدد الحدود التي تفصل بينهم، بغض النظر عن العلم الذي

Twitter: @ketab_n

يرفرف في السماء التي فوقهم أو نوع اللغة البيروقراطية للبلاد. وهذا هو السبب وراء قولنا أن روح الصومالي نيزك يطير باتجاه تلك الهوية الوطنية المشتركة».

كان لدي سؤال. فقال، «نعم؟»

«لو تقدمت مصرا بطلب هل ستكون مخولة بالحصول على أوراق جنسية تجعلها صومالية قانوناً وإلى الأبد؟» قلت ذلك وانتظرت بلهفة لأنني عرفت بأني أصبت الهدف.

«إن كانت صوماليتها بجودة صوماليتك، فإني أشك عندئذ إن كان ثمة مهرج بيروقراطي يجرؤ على الوقوف في طريقها أو يجرؤ على إنكار ما منحها القانون. تذكر ذلك يا عسكر، لأننا لا نعرف أنه لا يوجد هناك اختلاف عرقي يفصل الصومالي عن الأثيوبي - والأخير بين فارزتين. ما قد تحتاجه هو شاهدان من الذكور ليقسما أنهما يعرفانها طوال حياتها، وأنها صومالية. . . وإلخ، ولا أكثر من ذلك. وكل ما عليهما فعله هو توقيع شهادة خطية، هذا هو كل ما في الأمر.»

كان لدي سؤال آخر. فقال الخال هلال «ما هو هذه المرة؟»

«كيف تصف الاختلافات الموجودة بين الصوماليين في الجمهورية الصومالية والصوماليين في كينيا أو في الأوغادين التي تديرها أثيوبيا؟» قلت ذلك وأنا أشعر من جديد بأني عبرت عن نفسي تعبيراً سيئاً.

أجاب، «الصوماليون في الصومال والصوماليون في كينيا كلهم لا أشخاص لأنهم يفتقدون إلى ما يجعل الذات أقوى وأكمل».

صمت. شيء ما جعلني لا ألقي سؤالاً، «لكن ما هو الـلا شخص» يا خالي؟» الآن، وبعد سنوات، أتمنى لو أنني أخبرته بأني لم أفهم الفكرة. فبعد سنوات وجدت من الملائم أن أسأله، «هل مصرا صومالية؟»، «هل أنا لاجئ؟» «هل أنا لا شخص؟»، «هل ترغب في أن تكون مصرا لا شخص - إذا جاءت إلى مقاديشو؟»

Twitter: @ketab_n

(٤)

كان معلمي عثمان يتصرف كما لو أنه شبه واع بالأمة الصومالية. كان يأتي إلى البيت يومياً، ويأخذ على نفسه تذكيري بأنه ما لم يرجع الأشخاص الذين على شاكلتي إلى الأوغادين للقتال من أجل تحريرها، سوف تبقى المنطقة خاضعة إستعماريا للحكم الأجنبي. قررت أن لا أذكر ذلك لصلاتو التي كان من المحتمل أن تطلب منه الرحيل، وأنا واثق من ذلك. كان أحد الأسباب هو أنني أحبه، والثاني لأنه كان يرغب بمشاطرتي المجلات الخليعة التي كان يستعيرها من أصدقاء قدموا من إيطاليا. ولا أدري إن كان عارفاً بالتناقضات المتأصلة فيما يقوم به - لكنني لم أكترث. كنت أظن أن الأمر مسلياً أن أبني نفقاً سرياً بين معلمي وبيني. وقد مكنتني هذه المعرفة السرية إلى حد ما من فرض ما أشاؤه من ضغوط عليه. فكلما امتنع عن أداء فروضي البيتية، وكلما شعرت بكسل شديد يدفعني لعدم الدراسة أقول له ذلك ونجد طريقة لنشغل بها نفسينا. ولعله كان يقول آنذاك، «عليك أن تحمل أمر دراستك على محمل الجد حتى تتمكن، حين تصبح رجلاً راشداً، من استعمال معرفتك في تحرير شعبك من سلاسل الاستعمار».

كنت لأسأل، «وهل هذا هو السبب وراء ضرورة أن أتعلم قراءة الصومالية وكتابتها، والإنجليزية أيضا؟»

«نعم».

وأتذكر بعد يومين أو أكثر أنني عرضت الأسئلة نفسها أو مشابهة لها عن التراث الشفاهي والمكتوب على الخال هلال. وكان يشرح ذلك قائلاً «لقد أثبت التاريخ أن كل من تسنده الميتافيزيقيا المدونة لتراث ما يفوز على المدى الطويل، بالقتال على القوة». وواصل حديثه عن الله المدعوم بالتكنولوجيا، مهما كان متخلفاً عن المرحلة، وكذلك عن الأرباب الذين لم يكونوا كذلك. «هذا يعني أن الشعب الناطق بالأمهرية، بسبب امتلاكه تراثاً مدوناً تمكن من نشر قوته على شعوب التراث الشفاهي كالصوماليين

Twitter: @ketab_n

والأروشا، بل حتى الأرومو الذين يشكلون أكبر مجتمع عرقي في أثيوبيا. كان الشعب الناطق بالأمهرية واقعاً تحت قبضة الاحتلال، في حقبة سابقة من تاريخه، على أيدي الشعب الناطق بالتيجرية - وهم شعب لهم أبجدية تسمى الجايز».

هذا يبدو معقولاً. بدا الأمر معقولاً لدي بالطريقة نفسها التي يبدو بها معقولاً لأم تواجه طفلها ليأكل حساءه الذي أمامه حتى يكبر ويصير رجلاً قوياً. وصار كل حرف سيفاً - من خلال لفظه، إجعله حاداً، من خلال رسمه، أنا أمنحه حياة خاصة به، كل ما علي فعله هو أن أقول «إقطع» وسيقطع عندئذ رأس العدو. لا عليك، أعلم أن هذه طريقة تفسير شخصية في تأويل الأشياء لكنها كانت تحرر خيالي من أية ضغوط. ووجدت أن ذلك الأمر لم يكن شيئاً يمكن أخذه بيسر.

ومع ذلك، كانت حياتي تتخذ منعطفاً يختلف عما افترضته لها. ولعل معلمي، الذي كان يوازن بين ما هو سام وما هو دوني، كان يضع أمام عينيه محتويات مجلة «البلاي بوي» ولعله كان أيضاً يفتح الكتاب المنهجي على الصفحة الملائمة. هكذا تعلمت جملتي الإنجليزية الأولى. بمقدوري سماعها اليوم، بمقدوري الإحساس بلساني وهو يتصارع مع أصواتها، بإمكاني الإحساس بتساؤلاتي عن منطق السؤال، عن أسباب ضرورة أن تكون الجملة الأولى في كتاب أكسفورد الأول للغة الإنجليزية هي «هذا قلم». والثانية «هذا كتاب».

كررت هاتين الجملتين مراراً وتكراراً حتى صرت أنام مغناطيسياً على الأصوات التي تطلقها كل كلمة وكان رأسي ينسج بساطاً أفك منه طلاسم الرسم السماوي. الذي منه ظهرت الكلمات الأولى لجبرائيل كبير الملائكة وهي تملى على الأمي، آنذاك، محمد، النبي لاحقاً - تقدس اسمه. هذا هو، أذكر الاية القرآنية، «إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ»، سادني أيضاً هدوء الذهن والصفاء لأتذكر آية أخرى من سورة «القلم»، وأعني بها تلك التي تقول: «والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة

Twitter: @ketab_n

ربك بمجنون». ثم ألقى خيالي بشبكته أبعد حيث كنت أصغر وكنت في كالافو مع مصرا.

وجدت تحت سقف من الأغصان في كالافو صبياً أصغر مني بكثير واسمه عسكر أيضاً، صبياً بحضن امرأة، والمرأة تطلب من الصبي أن يردد وراءها - (لم تكن مغطاة باحتشام وكان جسده المستحم للتو يحتك بجسدها)_ كانت تخبره أن يكرر وراءها الجملتين: «هذه السماء» و «هذه الأرض».

بعد سنوات، ثمة سؤال طرحته على الخال هلال.

«من أنا لأضع ذلك كله؟ أعجب إن كانت الطبيعة الرعوية عند الصوماليين ترى صلة حديثة المولد بين الطفل وأفلاكه من خلال دفعه إلى تعلم كلمتي «سماء» و «أرض» أو «ما هذا أو ذاك؟» اشك في كون البدوي يتفهم، في مستوى نفسي أعمق، المضامين المجازية لعبارتي «هذه الأرض» و «تلك السماء». هل يمكن تأويل ذلك ليعني «الله والقبر؟» أو هل تفضل «المطر والغذاء؟»، وفي العبارة الأخيرة أنت تحدد هوية، أو موقع، مصدر الحياة، إن جاز لنا التعبير».

كان الخال هلال صامتاً لا يبدي أية ملاحظة أخرى، وكنت أسمع في رأسي جواب الطفل «هذه الأرض»، مع أنني لم أشر إلى الأرض بل ألمس صدر مصرا المتبرعم، وكانت هي تضحك وتقرصه، عذراً تقرصني. وآنذاك - أو بعد فترة قصيرة - عدت مع هلال الذي كان يقول، «والآن ماذا عن «هذا قلم حبر» و«ذلك كتاب» وهما أول جملتين تفتتحان العالم الإنجليزي على طفل صومالي أو من شرق أفريقيا؟».

لم أكن متأكداً فيما إذا كان يرغب بسماع إجابة مني، لكنه لم يكن متوقعاً لها، على ما يبدو، ولهذا قلت ببساطة، «ماذا بخصوص الأمر؟»

«سؤال استكشافي. لنبدأ بواحد».

إنتظرت.

Twitter: @ketab_n

قال، «هل ينبغي علينا، بأي طريقة كانت، أن نبحث عن صلة بين (هذا كتاب) والأمر القرآني «إقرأ باسم ربك» الموجه إلى شعب كان حتى تلك اللحظة شعباً أمياً؟ بعبارة أخرى، ما الأفكار الكامنة خلف «قلم» و «كتاب»؟ أنا اشعر، بصراحة، أن كليهما توحي بفكرة «السلطة». فالعرب شرعنوا إمبراطوريتهم من خلال فرض «الكلمة التي كانت تقرأ» على البلدان التي فتحوها، وكان يدعم ذلك رب التكنولوجيا الأوربي، إلى حد كبير، من خلال سلطة الكلمة المكتوبة، سواء أكانت صادرة من الإنسان أم من الله».

كان صامتاً من جديد. ظننت أن عليّ أن أقدم إسهاماً ذكياً. ولهذا قلت، «هذا هو السبب وراء إشارة المسلمين إلى النصارى واليهود بلفظة «أهل الكتاب»، أليس كذلك؟».

«صحيح».

وجلس هنا ودوداً ومحبوباً - وبديناً. ظننت أنه كرتان مربوطتان معاً ببراغي: العليا، رأسه المستدير مثل كرة تدور حول محاورها وتتنقل، وتعود في كل مرة إلى النقطة الأساس، أما وسطه، جذعه، فكان عرش عاطفته. كان شدقاه ينتفخان مثل وسائد حين يضحك، وكان لصوته دوي ناري حيال ذلك لتضرم، داخل رأسي، الكثير من النيران، يحرق لهيب أفكارها الأرض التي تفصلني عنه.

كان يقول حين التفت إليه، «بمقدورك أن تأخذ الأقلام والكتب على أنها استعارات عن السلطة المادية والروحية. والأقوى بيننا هو ذلك الذي يصر على ان الأقلام تكتب أفكاره في شكل رسالة تمجيد للازدهار وأن الكتب تسجل له مآثره».

فكرت - لكنني لم أقل - أن من يعلم أحداً إما الكلمة المكتوبة أو الشفاهية، يظل بالنسبة للآخر، هو الأقوى فيما بيننا. ومن هنا يأتي تأثير مصرا وصلاتو وعثمان وعوضان والخال هلال في الأخير عليّ. وفجأة طرأت في بالي فكرة غريبة جداً، «ما الذي يحصل حين يغزو شعب لا تراث مدون لديه شعباً له تاريخ طويل من التراث المدون؟»

Twitter: @ketab_n

«القوطيون، شعب تيوتوني كان شعباً أمياً بمعنى أنه لم تكن له ثقافة مدونة دمروا روما وجنوبي بلاد الغال وأسبانيا. أنا متأكد أن ثمة الكثير مثل مقاتلي المغول».

وتساءلت، «وما هو رأي التاريخ؟ كيف ينظر التاريخ لمثل هذه الاجتياحات؟»

قال، «يتعامل التاريخ على نحو سيّيء مع الأباطرة الذين ينحدرون من شعب بدوي متفرق مقاتل - أفكر بجنكيز خان - الذي وصل إلى أسوار حواضر التعليم العلمي مثل بكين أو تبريز في إيران. جنكيز خان - ويعني اسمه الإمبراطور الكوني - ربما كان يسير على رأس جيش من الفرسان الأشداء، لكن التاريخ يصفه على أنه «بربري» ويتهمه بنهب مدن العلم وإحراق مكتبات ذات قيمة مهولة».

كنت قد أوشكت على أن أسأله سؤالاً آخر عندما علمت بدخول صلاتو في غرفة المعيشة التي كنا نجلس فيها. قالت شيئاً عن أن الغداء جاهز وتطلب من كلينا أن نرافقها إلى المائدة ونأكل كي تستطيع العودة إلى المدرسة حيث لديها اجتماع هناك. قلت لخالي هلال، «نحن نعرف ما الذي يفعله فاتحون لشعب له تراث مدون حين يحتلون أرضاً تعود إلى شعب له تراث شفاهي. نعرف أنهم يفرضون عليهم قانوناً يجعل من غير القانوني أن يفكروا بأنفسهم على أنهم بشر. وهكذا فعل الأوربيون. هل تتذكر شعباً غازياً، إن كان بدوياً أو لا، لم يفرض ثقافته ولغته الأجنبية على أولئك الذين تم غزوهم؟»

وقف على قدميه وراح يتأمل.

تأهبت لأتبعه ما أن يقرر الجلوس إلى المائدة.

«أفكر بحالة واحدة خاصة».

فسألته، «وما تلك؟».

«الفولانيون».

Twitter: @ketab_n

فقلت مقترباً، «من؟»

بقي صامتاً حتى اقتربنا من المائدة، حتى التقط كل واحد منا فوطة ورقية. ثبت فوطته تحت ذقنه السمين (كنت أبتسم كلما فعل ذلك!) وطويت أنا فوطتي ووضعتها في حضني (وأنا أفكر بالكتابات التي اعتدت أن أكتبها على فخذي وعلى كل مكان من جسمي حين كنت صغيراً؛ وأفكر بمصرا، التي علمتني الأمهرية سرا).

«الفولانيون من غرب أفريقيا هم الشعب الغازي الوحيد كما أعرف الذين تبنو لغة وثقافة الشعب الذي غزوه. ولم أعرف أبداً سبب ذلك».

كانت الصحون تمرر جيئة وذهاباً. وحزنت من فكرة أن الملايين منا قد تم غزوهم، وسيبقون كذلك إلى الأبد؛ الملايين منا الذين سيبقون أناساً تقليديين وشفاهيين كما هم. ورأيت مدناً مهجورة أحرقها القوطيون (لم أكن أعرف من هم القوطيون، لكنني وعدت نفسي أنني سأعرف ذلك). ورأيت في ذهني، الإمبراطور المغولي وهو يركب حصانه ويضرب بكعبيه على أضلاع الحصان ويشعل النار بكل حروف الألفباء. ورأيت كذلك جثثاً في العراء - جثث الرجال والنساء الموتى من أثر النابالم - ولعنت الروسيين والكوبيين والعدنيين. (أظن أن ذلك قد حدث بعد أن دحر الجنود الروسيون والكوبيون والعدنيون الجيش الصومالي الذي لم يساعده أحد.) ورأيت كتب التاريخ مفتوحة عند الصفحة التي تبدأ بالتعريف الموسوعي لمفهوم «الحضارة».

إن الميتافيزيقيا المدونة لشعب هي «حضارته».

قلت لنفسي، لذا فاقرأ، باسم «الحضارة». واكتب، أكتب تاريخك باسم «الحضارة» نفسها. «هذا قلم». «هذه ريشة». «ذلك قلم». السلطة!

مرة، ومنذ زمن بعيد، قلت لنفسي، «كانت» مصرا هي الكون لي. كانت طيبة وعطوفة، كانت رؤوما وقد أحببتها حباً جما، وعاملتها بلطف. ها هو ذلك الكون ينحل، وقد خانت مصرا. ما عساي أن أفعل؟ أنا الذي مازلت أحبها!

Twitter: @ketab_n

(٥)

قال خالي هلال في اليوم الذي علمنا فيه أن مصرا ستزورنا حتماً في اليوم التالي، «الحروب تغير اتجاه المرء، الحروب تجعله يفعل ما لا يغتفر. وعلى أية حال، نحن لا نعلم إن كانت هي من خان. أعني لسنا متأكدين إن كانت هي من وشى بالمقاتلين في سبيل الحرية، لا نملك الدليل».

دفنت عذابي الداخلي خلف صمتي الذي أتلفع به - يداي خلف ظهري، وجسدي منتصب، وذهني مستنفر، وأفكاري تحرك في داخلي أصداء حوارات كانت لي مع مصرا منذ سنوات، ومع عثمان الذي كان معلمي لمدة قبل ما يقارب التسع سنوات، ومع صلاتو - ومع نفسي. وعلى نحو ما، كنت أعرف أنني ساضطر لخيانة أحدهم. لابد لي من خيانة إما مصرا، التي كانت كالأم لي، أو وطني الأم. على أية حال، كان جزء مني قلقاً - قلقاً من أن لعنة قد تحل علي من إحداهما. ولم أستطع إلا أن أتذكر الأحلام التي كنت أرى فيها رجلاً عجوزاً له وجه فتاة وملامحها، أو حلم آخر يكون فيه الحالم شاباً يتخيل بأن له جسد امرأة تحيض فحاض.

سنوات طويلة قد مضت منذ أن رأيت مصرا آخر مرة؛ ومضت عدة شهور منذ أن اتهمت بخيانة معسكر المقاتلين في سبيل الحرية الذي فقد فيه ستمائة رجل حياتهم - أو هذا ما قيل. سنوات طويلة منذ أن شاهدت وتفرجت على المجلات الخليعة التي كانت لدى معلمي عثمان، ومنذ ذلك الحين كونت لي أصدقاء - واحدة منهم امرأة شابة في مثل سني. وصرت أعرف ما الذي كانت مصرا وعوضان يفعلانه في ظلمة الليل. وأقدر أيضا ما فعله خالي هلال من تضحيات كبيرة وكم كانت صلاتو امرأة «كريمة». ها أنا أقف عند مفترق الطرق. هل سأرحل عن صلاتو وخالي هلال لألتحق بمعسكر المقاتلين في سبيل الحرية في الأوغادين؟ هل أسجل نفسي طالباً في الجامعة؟ وما الذي سنفعله لمصرا حين تأتي لزيارتنا غداً؟

لم يكن ثم شيء واضح في ذهني. ففي لحظة أكون صغيراً مع مصرا،

Twitter: @ketab_n

وفي اللحظة التالية أسمح لبلادي أن تولد في أفكاري؛ ثم يؤمن لي خالي حياة جديدة، وكانت صلاتو تراقب كالشاهد على زفافي إلى «نفسي»؛ وأخيراً أخبروني بإفشاء مصرا بأسرار للعدو. كنت ضائعاً. كنت حزيناً جداً.
آه يا كارين، يا عزيزتي كارين - هل هذا صحيح؟
كنت متوعكاً في ذلك اليوم.

Twitter: @ketab_n

الفصل التاسع

(١)

في أعقاب الخسارة الوطنية الكبرى: والمدمرة شخصياً أيضا، كان في حالة يرثى لها. ذلك ما ترك طعماً مريعاً في فمه، شيء ما لا يستطيع لسانه (أي ذاكرته) تسميته بشكل ملائم. لقد أضحى واهناً يتجول متخشباً مثل روحه. ومرة أخرى امتنع عن الطعام، متذمراً من أنه كان يحس بطعم الدم في ريقه. تلاقت في جسده درجتان للحرارة: في لحظة، كان يقول أنه يشعر بالحرارة الساخنة، وفي اللحظة التالية يشعر بالبرد الشديد، لكأن «الثلج كان يسري في شراييني وأوردتي، وليس الدم الحي والدافئ». كانت عيناه مثل لطختين من الدم بسبب الأرق. كان خياله قد «سمع» إلى حد مفرط تقارير صاخبة عن نيران مدافع ورأى رجالاً ونساءً وأطفال يسقطون، ويموتون تحت قوة النار. ستمائة وثلاثة منهم!

حزن لأرواح الذين ماتوا غدرا. كانت الخسارة كبيرة، والرجفة في روحه محبطة، حتى أنه تصرف مثل رجل يراقب جزءاً من جسده يذوي. كانت حاله على ما يرام حين أبلغوه بالأنباء الحزينة - كان معافى ومنفعلاً للتفاصيل المرعبة التي عرضتها كارين. تذكر أنه كان مريضاً في الفراش حين أعيدت الأوغادين إلى أيدي الأثيوبيين بطلقة رحمة من قبل السوفييت. وتذكر تعليق أحدهم حينذاك، أن ما عقده الإمبرياليون البريطانيون لن يفله الصوماليون - السوفييت إمبرياليون أنفسهم ولن يسمحوا بحدوث ذلك.

Twitter: @ketab_n

ولكن ما عسى المرء أن يقول الآن؟ مصرا، يا عزيزتي مصرا لماذا تحتم عليك فعل ذلك؟

كان وحده مع كارين وأخبرته بالأمر. كان في غرفته مع خرائطها ومراياها والراديو وأشيائه الأخرى التي اقتناها أو أهديت له. كانت كارين تشرب الشاي. لقد هرمت قليلاً، وأمست بشرتها ناعمة مثل جلد قديم، ونبتت على ذقنها لحية مثل لحية «هو شي منه». وأعلمته بآخر أخبار قورح («إنه على ود تام مع الحاكم الذي عين حديثاً، فهو دائماً معه. مما لا ريب فيه أنه خائن. هذا هو شأنه دائما»)، أما عوضان («فهو رجل استثناء. إنه شخصية أسطورية في تاريخ المدينة. بيديه العاريتين، أمسك بثلاثة منهم وقتلهم. هكذا. بذات السهولة التي يقطع بها رجل قوي الذراعين رأس الدجاجة. يقولون أنه مؤمن بمصير شعبه - ولم يكن صومالياً، كان من الكوتو، هل تعرف ذلك؟ - يقولون أن قوته منحته الثقة بالنفس»)، أما شاهراويلو («لقد ماتت المسكينة، مخلفة وراءها بقعة دم لا أكثر. لقد حزت عنقها. لا أحد يعرف السبب. البعض يظنون أنها شعرت بالإهانة لخيانة قورح، ويقول آخرون لأن كل أبنائها قد قتلوا في المذبحة»)، وماذا عن مصرا، هل ثمة أخبار عن مصرا؟

قالت له، «لماذا تسأل؟ لماذا تزعج نفسك بها؟»

قال لنفسه، فعلاً، لماذا انتظر حتى الدقيقة الأخيرة ليسأل عنها. كان عليه أن يبدأ بها. لقد كانت بعد كل هذا، الأقرب إلى بداياته. قال، «لم لا؟ ماذا حصل لها؟»

تفحصته كارين وفكرت أن عسكر يبدو أكثر براءة الآن مما كان في صغره. فأولاً فقدت «نظرته» حدتها، وثانياً، ضاع أيضاً ذلك الشؤم الشيطاني الذي كان من المعتاد أن يضيء عينيه بمصابيح أشد سطوعاً من أية شمعة. قالت، «هذا يعني أنك لم تسمع؟»

والتمع ضوء للحظة ليس إلا - إنفجار للهيب في نظرته ذكرها بروحه

Twitter: @ketab_n

الشابة. كانت نظرة غامضة، عابرة. لم تعرف كارين ما الذي تفهمه منها. «أسمع ماذا؟ هل ماتت؟»

«كلا. بل أنها لم تمت».

أدرك أن ثمة أخبار سيئة قادمة. فلم يتكلم حتى صلّب نفسه حيالها. صلّب جسده وأمات روحه - حتى صار مستعداً لتقبل أي شيء. ثم، ومثل شخص ما يستمد الشجاعة من حتمية الموت ويقول، «ماذا تنتظر؟ اقتلني، أطلق النار عليّ، إفعل ذلك بسرعة». قال عسكر، «استمري، أخبريني بما هو أسوأ. ماذا تنتظرين؟»

قالت كارين، «عشقت مصرا جندياً أثيوبياً شاباً. ويقال أنها كانت تعيش معه. شاب وسيم وجريء، شبيه بالأمير الساحر الذي كانت تنتظره طوال حياتها».

لم يقلق لما سمع. وعموماً، كان حكيماً حتى أنه لم يهز كفيه ليقول، «وماذا في ذلك؟ من حق المرأة أن تغرم برجل ولا أرى أهمية لجنسيته. ثم ليس كل «الأثيوبيين» أعداء لكل «الصوماليين». الذي يهم هي القضية». وهنا عاد إليه الثبات الذي يبديه الإنسان الواثق من نفسه. رشف من الشاي (الذي لم تلمسه)، وصالب ساقيه، معداً جسده لرفاهية راحة غير متوقعة. قالت، «ولكن هذا ليس كل ما في الأمر».

فكر عسكر، أن الميتات الثانية هي الأكثر إيلاما حين تفكر بها. كان يشعر بالخدر روحاً وجسدا. كان يعرف بقية القصة. فلا حاجة لأن تزعج نفسها. لقد عشقت مصرا رجلاً من معسكر الأعداء وقد خانت. وكان هناك موتى. حدثت مذبحة. وهدمت البيوت إلى الأرض. سممت الآبار. وطُعن الرضع بالحراب حتى الموت، واغتصبت أمهاتهم ثم قتلن ومُثل بأجسادهن عضواً فعضواً بوحشية. وجمع الأطفال في حلقة، وأُلقيت عليهم محاضرة ثم أطلقت عليهم نيران الرشاشات. قال، «أبعديني عن تفاصيل الرعب. كلميني بالأرقام حسب».

Twitter: @ketab_n

فكرت أنه يتقدمها بمسافة طويلة. قالت «هذا يعني أنك سمعت». وأضافت «دعني أخبرك بها إن لمْ تسمع»، وانتظرت الرد منه.

«المشكلة أن»، وهنا اكتسب صوته هدوءاً غير اعتيادي من أثر اقترابه من هلال، «المذابح الشنيعة كلها واحدة حيثما حدثت في أي مكان في العالم. وثمة دائما في المركز منها خائن. لذلك أبعديني عن التفاصيل وحدثيني بالأرقام».

قرر أن يراقب وجهها بانتباه إلى أقل تردد في صوتها، وإلى أقل رعشة في النغمة التي تتحدث بها، حين قالت، «ستمائة وثلاثة».

لقد صدق أنها كانت تخبره بالحقيقة التي تعرفها، دون أن يعرف السبب. شيء ما أقنعه أنها كانت صادقة. ولكنه كان لديه سؤال، «لماذا ثلاثة؟ كيف دخل الرقم ثلاثة الصورة؟ لماذا لم يكن ستمائة وأربعة أو ثمانية أو تسعة؟»

ومرة أخرى، لم يكن ثمة تردد في صوتها. «لقد ذبح أولاد شاهراويلو الثلاثة فيما بعد».

ودون أن يُطلب منها، قدمت تفاصيل أخرى، لا عن المذبحة بل عن «الضابط الأثيوبي الشاب الجريء والوسيم الذي كان مكلفاً بالأمن». كان من قرية مصرا نفسها، وكان يناديها باسم غير مصرا الذي كنا نناديه به. «كلا».

كان قد صُدم بشدة. فتمتم، «ماذا؟ ما هذا؟»

«كان يناديها مصرات. إستمع إليه جيداً مصرات».

إندفع الدم إلى وجهه وعينيه بوضوح. حدق في كارين متسائلاً، مركزاً نظره على غضون جبهتها وجسر أنفها. رأى حرف «ت» مكتوب هناك وتذكر أنه كان من الصعب عليه تلفظ أو تمييز الحرف العربي «ت» عن «ث» حين كان طالباً في مدرسة عوضان القرآنية، وهي واقعة لم يشاركه فيها أحد. «هل أنت واثقة أن ثمة حرف «ت» فيها لأن مصرا هي الاسم العربي

Twitter: @ketab_n

لـ «مصر» ويفضله الصوماليون على الصيغة المشوهة «ماصار»، التي تعني بالصومالية «فوطة الرأس». وحين سألت مصرا عما يعني اسمها بلغتها، أتذكر قولها أنه يعني، «الأساس»، وأظنه، «أساس الأرض» أو ما شابه ذلك. فماذا يعني مصرات الآن؟» والتفت إلى كارين.

ظنت كارين أنه قد اضطرب للتغيرات في اسم مصرا أكثر مما هو مضطرب حول المذبحة التي سمع عنها. وجعلها ذلك تشعر بالانزعاج وأوشكت أن تسأله عنه إلا أنه قال، «ما الذي يمكن أن يعنيه ذلك التغيير في الاسم؟»

«لا يعني إلا شيئاً واحداً: الخيانة».

فقال، «لا أعني ذلك». ورأته مستاء جداً. «ليس بذلك المعنى، كلا. للأسماء معنى ما وبالنسبة لي، كانت هي الكون حين كنت صغيراً». وسكت. «ربما، لن اهتم للتغيرات في اسمها. أنا جد متيقن»، كان يكلم وجهه في المرآة، «أفكر بالأمر الآن، لقد أكد شخص يتكلم الأمهرية لخالي هلال أن مصرا بدون «ت» تعني (أساس الأرض). أو إن أعجبك (أساس الكون). أنا أفضل شخصياً «أساس الأرض». لكنني غير متأكد. عليك أن تسألي أحداً يتكلم تلك اللغة، فأنا لم أعد أعرفها».

إنه الآن متآلف مع نفسه. ذلك ما جعل كارين تتعجب. كما أنه لم يمنحها الفرصة لتخبره المزيد أو تسأله المزيد من الأسئلة. وقف على قدميه بطوله الفارع من فوقها، مادا يده ليصافحها، مشيراً إلى أن حديثهما قد انتهى. استعدت للمغادرة وصاحت لتعلمه بعنوانها من خلال إحدى بناتها، التي، كما تقول، كانت تعمل في دائرة البريد المركزي، قريباً من فندق جوبا. واستمرت تقول، بينما كانت تُتِمّ مراسيم التوديع بأخذها كلتا يديه في يديها «لابد أن تأتي لرؤيتنا». ود لو كانت لديه الإرادة ليخبرها أن صورة بيفن لاتزال معه، وأنه لا يزال يحتفظ بذكريات جميلة عن طيبتها معه.

كل ما استطاع قوله «بارك الله فيك». وقادها شخص آخر إلى الباب لم

Twitter: @ketab_n

يتأكد من هو. كان قد سقط مريضاً في الحال. كان وحيداً - سريعاً مثل نار في دغل. كانت درجة حرارته يزداد ارتفاعها، ولريقه طعم الدم وراح جسمه يتفصد عرقاً على الرغم من أنه كان يصر أنه يشعر بالبرد الشديد.

(٢)

لم تستقر فكرة في رأسه ليومين وثلاثة أيام. كان يمشي في نومه، ويطوف في الممرات المعتمة لماض لم يستطع معرفة نفسه فيه. كان يسلك مثل من يبحث عن نصفه المفقود في ممرات الليل المظلم. لا حديث يمكن أن يرفه عنه فيجعله يضطجع بهدوء وينام. كان مطعوناً إلى حد القتل وجد حزين من فكرة أن مصرا لم تعد تستحق ثقته وحبه. وللمرة الأولى وافق عسكر على أن يتحدث طويلاً عن تنبؤ مصرا من خلال الدم واللحم النِيء والماء.

قال هلال، «إنها بكلمات أخرى، ساحرة وكلبة وعاهرة وخائنة؟»

لم يقل عسكر شيئاً. وتدخلت صلاتو، «لم يقل هو ذلك».

إلتفت هلال إلى صلاتو، «ما الذي قاله إذن؟»

ولأن صلاتو لم تتكلم، تحول هلال إلى عسكر: «ما الذي قلته بالضبط يا عسكر؟ لأنك إن قلت أن مصرا ساحرة وعاهرة وخائنة، فأنت لم تأت بشيء جديد».

وتساءلت صلاتو، «ماذا تقصد؟»

تململ هلال في كرسيه، «النساء عاهرات والنساء ساحرات والنساء خائنات لدمهن، النساء يعشقن رجالاً من معسكر العدو - عبر التاريخ كله، يلوم الرجال النساء على المصائب التي يلقونها هم بأنفسهم على رؤوسهم. يقع اللوم على النساء في كل الأخطاء التي وقع بها الرجل منذ بدء الخليقة، وبضمن ذلك هبوطه من جنة النعيم. يقال أن «المرأة» قد خانت «الرجل» في أول فرصة لها. خلال التاريخ يا عسكر».

Twitter: @ketab_n

قالت صلاتو، «دعه وشأنه، أرجوك».

فقال عسكر لصلاتو، «كلا، كلا، أرجوك».

ومضى هلال محولاً نظره من عسكر إلى صلاتو، «ليس لديك دليل، ولم تطلبي دليلاً. أن الرجال دائماً ما يفعلون ذلك. لقد أدانوا بغير حق ولم يُسألوا عن دليل. فما تقولين إزاء ذلك؟»

جلس عسكر صامتاً، يحدق في حجره وكأن منطقه الذي تحطم قد سقط هناك. هل بإمكانه جمع أشلائه المبعثرة في مجمع يديه ثم يجيب؟ لقد بدا، عموماً، أنه ما التقط قطعة صغيرة حتى اكتشف أنه لا يرى إلا شيئاً صغيراً جداً من وجه (مصرا)، عين (كأن عينه كانت مرآة) ولا شيء آخر. طفا، محلقاً بين الأرض والسماء. آوى إلى أرض لا بشر فيها، وبقي معلقاً بين حالات عديدة مجهولة من الواقع واللاواقع؛ موزعاً بين ذوات غير واضحة التحديد. يحلم، (هل كان؟) نائماً، (هل كان؟) أم كان يصغي إلى حديث مسجل بينه وبين الخال هلال؟

ران صمت يشبه الصمت الذي يحصل حين يطفأ الراديو فجأة. كان هنالك هلال، أجل؛ صلاتو كانت هناك، أيضا؛ ولم يكن الراديو الكبير في غرفة المعيشة مفتوحاً. إذن؟

ثمة صوت (في أغلب الاحتمالات هو صوت هلال) كان يروي قصة:

«رجل وامرأة وكلبة. لا يحب الجيران الرجل وهو لا يحبهم أيضا. إنهم يشكون، ولكن ينقصهم الدليل، أنه زوج غيور. المرأة جميلة جداً، لكنها هادئة بطريقة غير مدعية، بسيطة في ذوقها وتحب صراحتها. والكلبة؟ الكلبة راعية ألمانية، كبيرة، وجميلة، وتكلف سيدها الكثير من المال لتغذيتها، على الرغم من أن السيد لم يكن مهتماً للكلفة. كان يقدم للكلبة الكبدة في الصباح واللحم عند الغداء والعشاء. كانت بوابة البيت مغلقة ليلاً ونهاراً ولا تفتح إلا حين يدخل أحد أو يخرج. وفي أغلب الأيام تفتح مرتين: حين يذهب الزوج في الصباح وحين يعود في المساء.

Twitter: @ketab_n

وفي أحد الأيام، يأتي رجل غريب. نعم يسير في تلك الالتفافات عند الظهيرة. تنبح الكلبة وتكشر عن أنيابها، وتزمجر، لكن الرجل اجتازها دونما تردد أو توقف للحظة واحدة. له يدان صناعيتان - لأن يديه قد قطعتا، هكذا يقول الناس، في إيران، لأنه، سرق مالاً من أحد آيات الله الصغار، هكذا يقول الناس أيضاً، (من أين يستقون الأخبار لا يعلم ذلك إلا الله). وحين يعود الرجل في المساء، يبقى في البيت وكذلك الغريب، وكذلك المرأة والكلبة. يبقى الغريب والزوجة والكلبة في الداخل. أما الرجل، كالعادة، فلا يعود حتى يحل المساء. الآن ماذا يعمل الرجل؟ لا أحد يعلم. هل يعمل لدى الحكومة، هل هو مستخدم في عمل خاص؟ لا أحد يعلم. لكن الناس لا يقولون أنهم لا يعلمون. بل يختلقون القصص حين لا يعلمون.

من هو هذا الغريب؟ إنه الأخ الصغير للرجل. يقول الناس أنه كان شريراً، يقتحم البيوت ويسطو على البنوك. ويقول الناس أيضاً أن المنزل الذي يسكن فيه الرجل وزوجته هو بإسمه، لأنه اشترى البيت من الأموال التي كسبها بطرقه الدنيئة. ولكن في هذه الأيام أمسى الغريب مقدساً مثل محراب. لن تراه دون مسبحته (إنه يمسك أحد أطراف المسبحة بين أصابع قدمه بينما يتعلق الطرف الآخر، مثل الساعة اليدوية، على الندبة التي شفيت من بقية ذراعه)، ولا ترى شفتيه ساكتتين من ترديد الأدعية.

مثلاً، يا عسكر، في هذه الحكاية، ثمة حقائق وأنصاف حقائق. الزوج رجل غيور جداً - هذه حقيقة. ولكن الزوجة عفيفة ولم تتقبل المغازلة من أي رجل. كانت تحب زوجها الشرعي.

ومن الحقيقة أيضاً، مثالاً على ذلك، أن الكلبة راعية ألمانية، من أضخم من هم من فصيلتها وهي جميلة أيضا. ولكنها ليست شرسة على الإطلاق. صحيح أنها تكشر أنيابها وتزمجر، ولذلك تبدو عدوانية لكنها كان جبانة جداً وخجولة. عيناها رقيقتان، ويتلاشى غضبها ما أن يبتسم الغريب ويناديها «برودر» وتعني بالألمانية «أخي». لماذا سميت بهذا الاسم؟ لا أحد

Twitter: @ketab_n

يدري. يقول الناس أن سيدها الصومالي قد ورثها عن سيد بولندي قد اسماها بهذا الاسم. ولكن من المؤكد أن خبيراً بولندياً في الأمم المتحدة يعرف من الألمانية ما يكفي ليعرف أن برودر هي أخ، وما كان ليسمي كلبة أنثى بهذا الاسم؟

الغريب؟ صحيح أنه من أقارب الرجل. وهو في الحقيقة إبنه البكر الوحيد وليس أخاه الأصغر. وشيء كثير أن يتوقع المرء «أخوين» في القصة ذاتها، أليس كذلك؟ «أخوان» اثنان هما ليسا أخوين ولكنهما أيضاً غير - أخوين. وأين بترت يداه؟ في إيران. هذا صحيح جداً. ولكن ليس لأنه سرق أحد آيات الله الصغار، كلا. بل كان يعمل في مصنع، وفي لحظة إهمال بترت يداه. نعم هو الذي بإسمه المنزل. وثانية ليس لأنه اشتراه. بل لأن الرجل قد سجله بإسمه، هذا هو كل ما في الأمر.

لا أحد يزور هؤلاء الناس. فلديهم كلبة شرسة، ورجل غيور، وامرأة خائنة، وغريب بترت يداه في إيران. أيستمعون إليك لو حاولت أن تبين لهم الحقيقة؟ هل يستمعون إليك لو حاولت تحدي أوهامهم؟ كلا بالطبع. لاحظ، أرجوك، أن أهواء الصحافة الغربية تغذي الأوهام التي لدى الشعوب الاستعمارية والاستعمارية الجديدة، مثلما تضلل قليلي المعلومات في أوربا وأميريكا الشمالية. ولاحظ أيضاً، لأن السيد الصومالي الجديد لم يكن يعرف معنى الكلمة الألمانية «برودر»، لذلك لم نعرف لماذا لم يخطر بباله، أو ببال الآخرين، أن يتساءل لماذا سميت كلبة ألمانية من فصيلة الراعي أنثى بهذا الاسم. هل كان السيد البولندي يعلم أن سيده يلعب لعبة فرويدية مع نفسه أو مع لاوعي الكلبة، من خلال تسميتها «برودر»؟

الآن، على سبيل المثال، قد تسبب رصاصة غير مستخرجة الموت للإنسان. لكنك بحاجة إلى أكثر من الكزاز وتصلب عضلات الفك كي يحدث الموت. الأطباء مثل المجتمعات التي ينتمون إليها، يشخصون مرضاهم ويخرجون بنتائج مبنية على أساس (أؤكد لك هنا) أهوائهم (التي «تعلموها»). كل ما أحاول قوله هو، على نحو مرتبك، خلال كل هذا

Twitter: @ketab_n

الوقت، أنك بحاجة إلى ما هو أكثر من الدليل العلمي كي تتخلص من المرأة التي كنت تناديها في السنوات الماضية من حياتك «أمي». فكر يا عسكر».

كان مرة يسمع الصوت ومرة أخرى لا يستطيع. وكان نفسه بطيئاً ومنخفضاً وكان يضطجع على الفراش، يفكر ويفكر ويفكر، يتذكر ويتذكر ويتذكر. وكانت نتيجة تفكيره الصامت، وتأملاته الهادئة، واستشاراته الاستطرادية مع هلال وصلاتو: أن قرر أن طيف مصرا قد مات موتاً روحياً في عسكر. ما الفائدة التي ترجى من سؤاله لها، هل خنت؟ هل أنت خائنة؟ وما هو اسمك الحقيقي، أتوسل إليك؟

وكان الصوت في أذنيه، يردد ما اتفق عليه صلاتو وهلال من آراء. وشخص ما كان يقول أن مصرا بمقاديشو، وأنها هنا بالفعل، تبحث عنه - تبحث عن عسكر، «يا عسكري، يا بني».

سأله أحد الأشخاص، «ما الذي تفعله إذا لقيتها؟»

فأجاب عسكر، «لا أدري».

كان شعاع الشمس يتكسر في الغرفة إلى ذرات صغيرة، وبينما كان هو يفكر في الذي سوف يفعله لو حدث ولاقاها ثانية، درس الظاهرة في صمت متفكر. أشعة الشمس المتشظية إلى ذرات، هي ذواته الموزعة المتشظية.

«لماذا صار عليك أن تفعلي كل هذا بي يا مصرا؟ لماذا؟ لماذا؟»

وسمع أصوات الفجر وشعر بالبرد وشعر بالحرارة وتكور في وضع الجنين، ليرى نفسه صغيراً مرة أخرى، مرة أخرى في كالافو. ثم وفجأة، تلاشى كل هذا وعاد إلى مقاديشو ليكون في فراشه وكانت صلاتو تناديه بإسمه.

(٣)

كان يدرك أن مصرا تتضاءل كلما كبرت في السن، أما هو فيكبر كلما

Twitter: @ketab_n

ازداد عمره. وحدث نفسه أن صوتها قد انخفض، وخفت البريق الذي في عينيها قليلاً أيضا. ولكنه لم يستطع التوقف عن التساؤل إن كان «نصفها الآخر» لايزال يختبئ في داخلها ولسوف يعود للظهور على نحو ما وتكون له الغلبة في النهاية، مثلما تتكلم أصوات شخص ما في جسد آخر، حين يكون تحت تأثير مستحضر الأرواح. كانت ممثلة بلا إضافاتها، كانت مهرجة بلا أصباغ. رآها تبدأ - كانت مباغتة مثل فواقة سريعة. لم يعرف السبب. تحرك حوله، بخطى مقاسة، وإشارات مقتصدة - ابتعد عنها. كان يكفي أنهما تعانقا، كان هذا أقصى ما يرغب فيه. شعر بشيء يسري في جسده حين تعانقا. حتى أن حضور الخال هلال وصلاتو لم يجعل الأمر سهلا. لا بل جعله أسوأ. ربما كان يكون أكثر صراحة معها لو كانا وحدهما في غرفة بمقاديشو بعد سنين من الفراق لا يعلم إلا الله مداها؛ ربما كان قد كلمها بانفتاح لماذا منحه تلاقيهما الجسدي شعوراً بالانكماش. وحين تعانقا، هل قال شيئاً؟ أم هل قالت هي شيئا؟ ما الذي قاله؟ هل رحب بها؟ نقل بصره من صلاتو إلى خاله هلال ثم إلى مصرا، وكانت قبيحة كالخطيئة، قميئة وبعيدة. قرر أنه سوف يسأل صلاتو عن الأشياء التي قيلت فيما بينهما حين تلامسا - ربما يتعلم شيئاً عن نفسه بهذه الطريقة.

قال لمصرا، «منذ متى وأنت هنا؟»

أعادت ترتيب أسمالها التي كانت نظيفة من الغبار، على الرغم من أنها جاءت من طريق طويل، وعلى الرغم من أن الطرق بين مقاديشو وكالافو تتنفس بغبار السفر طوال الطريق. بحث حوله عن علامات، كان يأمل أن تشير إلى أنها قد جلبت عفشها معها. هل تكون حاجياتها هنا، في غرفة المعيشة، لو كانت قد جلبتها معها؟

كان صوتها أكثر خفوتاً مما يتذكر. «أين؟ هنا؟»

إسترق نظرة هادئة باتجاه الخال هلال. كان عسكر يحدث نفسه أنه قد أخطأ بشكل محزن من خلال تصوره أن خاله يذكره بمصرا في المقام

Twitter: @ketab_n

الأول. وفي المقام الثاني، ثمة بون شاسع بين صوتيهما - واحد غني ومريح، والآخر واهن كأنه ارتدى أرخص الأسمال.

قال أخيراً، «نعم».

إنتظر ليرى فيما إذا كان «نصفها المفقود» يقوم ببعض الفائدة على نحو ما. لماذا تضاءلت إلى نصف حجمها الذي عرفه وكان متيقناً أن شيئاً غريباً قد حصل. للحظة أو نحوها لم يستطع الوثوق بذاكرته، فتساءل فيما إذا كانت المرأة التي في غرفة معيشة خاله وصلاتو مدعية. لم يكن يعرف ما الذي كان في تفكيرها إزاءه والاستقبال البارد الذي قابلها به، غير أن فخرها به كان واضحاً في عينيها ومهما حاولت، لم تستطع إلا أن تبينه أمام الجميع بلا استثناء.

ران صمت طويل.

وتذكر الحلم الذي كان «هو» فيه في داخل امرأة بقيت لا إسم لها في الحلم وكان يحاول كل ما في وسعه أن يلد نفسه. وبعد ذلك قُذف، كان في بركة دم سبح فيها واغتسل فيها لكن الدم أعماه؛ إرتدى وجهه قناعاً من الدم؛ وامتلأ المكان بزواحف من الحشرات والأفاعي، ومثل أعمى كان ماداً يديه أمامه، قدماه منبسطتان، وراحتاه مفتوحتان لتتحسّسا وتمسكا بالأشياء ويطلق عليها الأسماء كلما واجهها في الظلام. وخلال كل هذا الوقت كان يصعد، داخل امرأة أخرى، وكان يطوف شمالاً، منحرفاً قليلاً نحو الشرق، أي نحو الشمس، نحو المحيط، وقطع الزوايا، واتخذ طرقاً مختصرة وهو يزحف نحو التجويف الذي سمع منه صوتاً، صوتاً بشرياً - هو صوته! وتأوه، ساعياً بكل قوته كي لا يغدو كفن نفسه. ثم جاءت الرغبة في أن يولد كاملاً، الرغبة في أن يندفع إلى الأمام و «يكون» - اتخذت هذه الرغبة حياتها الخاصة لبعض الوقت وعاشت وجودها الخاص المنفرد. وكان يصيح ويصرخ ويرفس أضلاع المرأة التي كانت تحتجزه في داخلها. وعند ذاك سمع صوت امرأة أخرى تناديه باسمه، إمرأة كانت تقول، «أين أنت يا عسكر؟ استيقظ يا عسكر. مصرا هنا». لكنه لم يستيقظ لأنه اعتقد أن حلمه

Twitter: @ketab_n

كان يحلم بحلم. فكررت المرأة، «أين أنت يا عسكر. مصرا هنا». المرأة التي نادته باسمه - هي صلاتو (كان قد رآها مباشرة حين فتح عينيه، وفي الحقيقة كان قد عرفها حتى قبل ذلك، إذ كان قد عرف صوتها)؛ المرأة الزائرة والتي من المحتمل أن تكون في غرفة المعيشة - هي مصرا! أيمكن أن يكون ذلك هو السبب الذي جعل كل شيء يوحي بالضيق، لماذا كان ثمة شيء ما في الهواء حسبه شراً ورديئاً؟

قالت مصرا التي تتحدث الآن، «قضيت ثلاثة أيام في حمر».

فسألها، «وكيف وصلت إلى هنا؟»

وانتبه إلى أن لا هلال ولا صلاتو قد قالا شيئاً. من المؤكد أنهما غير مستريحين وربما فضلا تركهما وحدهما معاً إن تأكد لهما أنه لا يمانع. ومصرا؟ كانت توضح أن شخصاً ما كان يعرف شخصاً يعرف أقارب هلال - وهكذا تتبعتهم حتى اهتدت إليهم في الأخير.

«أنت هنا منذ ساعتين، أليس كذلك؟»

أومأت برأسها. وأدرك ببصيرته النافذة أن وجودها هنا في الوقت الذي كان فيه نائماً يفسر السبب الذي جعله مستاءاً ويشعر بالكرب. ومن الجلي، أنها هي أيضاً كانت في روحية هابطة. سيتحدث معها على انفراد ويعرف. إن تكن بحاجة لمساعدة، فهو على يقين أن صلاتو والخال هلال سوف يساعدانها.

قال، «وأين تسكنين؟ أو بالأحرى مع من؟»

قاوم النظر إلى جهة الخال هلال. ولكنه حين فعل، اكتشف أن وجهه كان مرهقاً وقلقا. وفكر عسكر، لن يمر وقت طويل حتى يأخذ هو المبادرة في الحديث، وكان متيقناً أن صلاتو ستهب لمساعدته. سيتحدث الإثنان إليها، يسألانها أية أسئلة يرغبانها. ولأن مصرا لم تكن تعرفهما من قبل، ستشعر بالراحة معهما. وتحت أي ظرف، لم يكن يعرف كيفية عرض أسئلة محرجة لامرأة كانت في يوم ما مثل أمه.

Twitter: @ketab_n

إنسحب عسكر في اللحظة التي شعر فيها أن الخال هلال وصلاتو كانا يستعدان لتخليصه - أي ليحلا محله. فاعتذر اعتذاراً أعرج. قال لها، «مرحباً بك مصرا»، واستأذن للانصراف.

(٤)

فقد صوتها «وزنه» بينما تحول صوته إلى صوت رجل؛ أما جسمها فقد تضاءل ونحف وانكمش إلى نصف ما كان عليه، بينما ازداد هو طولاً وعرضاً وأمسى أكثر وسامة؛ كما أنه كان يستعد لمغادرة بيت خاله هلال وصلاتو القوي البنيان لأنه قد يحارب من أجل تحرير الأوغادين بينما هي غادرت الأوغادين، متخفية في شخصية أخرى وجاءت إلى مقاديشو التي لم تعتد أبداً على رياحها الساحلية، مقاديشو التي كانت فيها لاجئة لكنها تخشى الكشف عن نفسها، لأنها كما أفصحت لهلال وصلاتو عندما كان عسكر غير موجود، «لأنني متأكدة أن أحداً من كالافو سيتعرف علي. وأرتاب مما قد يحدث لي».

تحدثت إليهما بنزاهة شديدة.

كان صوتها يبدو قاحلاً وجسمها ضئيلاً حين كانت تبكي في كل مرة تذكر فيها كلمة «خائنة» - إذ هكذا كانوا يصفونها. إنها ليست من الأعداء. صحيح أنها تتكلم لغة العدو؛ وصحيح أنها تكلمت مع أحد الجنود. لكنهما لم يتبادلا مثل تلك المعلومات الحيوية. لقد تحدثا إن كان ثمة أحد تعرفه يبيع الحليب للجنود. وهي تقر بأنها ذهبت لتشتري لهم الحليب. وقد عللت ذلك بما يلي: كان الناس المدنيون من الأوغادين بحاجة للمال، لا للحليب الذي يتوفر بكثرة عند البعض. فيما يتعلق الأمر بها كانت تعمل خيراً من أجل «شعبها».

سكتت، وبدت متضايقة من قصتها وقدرها.

قالت، «المشكلة هي من هم «شعبي»؟ بالنسبة لي شعبي هو شعب

Twitter: @ketab_n

عسكر، شعب زوجي السابق، هذا هو الشعب الذي أنتمي إليه كلياً. أولئك الذين يبحثون عن خائن ويجدونه فيّ، يستندون في ذلك على أنني لم أولد واحدة منهم، وعليه فلابد أن أكون الخائنة. ثم أن من السهل التشكيك بالأجنبي بين جماعة بدل التشكيك بأخ أو ابن عم. لكنني أقسم بحياة عسكر أنني لم أفش سراً عن تحركات مقاتلي الحرية أو معسكرهم الموقت».

فكرت صلاتو (وقالت ذلك لعسكر فيما بعد) أن مصرا تمثل شخصية مأساوية وأنها - أي صلاتو - قد بكت من أجلها من أعماق قلبها. وفكر هلال (وقال ذلك لعسكر فيما بعد) أن مصرا مثل جذع شجرة تراه من بعيد فتتخيله شخصا. أما أنت فكانت لك أفكارك الخاصة ولكنك اخترت ألا يشاركك بها أحد.

«كما تعرفون، غادر عسكر عندما كان الصوماليون يجتاحون الأوغادين وكان الجيش الأثيوبي المحتل في تشرذم تام. وخلال سنة دخل الروس الحرب وعكسوا الموقف، ليحول الجيش الأثيوبي إلى منتصر بين ليلة وضحاها. وكان من الصعب تقبل ذلك. أعني حين تكون منتصراً طوال سنة، لا تتوقع أن يسلب منك كل ما ربحته خلال عطلة أسبوع. ونتيجة لذلك، أحس الصوماليون في كل مكان بالمرارة الكبيرة. وأنا مؤمنة بأن الكثيرين كانوا مستعدين لعمل أي شيء يجنبهم الموت. وأنا متأكدة أن أحد هؤلاء قد باع المعلومات للأثيوبيين». قالت ذلك بحزن وهي تهز رأسها.

وبعد صمت، قال هلال، «كم من المقاتلين حوصروا وقتلوا يمكنك أن تقولي؟»

تكلمت بوضوح مقنع بعد أن فكرت، طبعاً، بذلك من قبل، «يتراوح العدد بين خمسمائة وستمائة قتيل وحوالي خمسين واحداً أُخذوا أسرى، ثم عُذبوا وأُعدموا من بعد ذلك لأنهم رفضوا التكلم والخيانة ولم يفشوا بسر المواقع الأخرى لمقاتلي الحرية في كل الأوغادين».

Twitter: @ketab_n

ثم وبعد صمت آخر، سألتها صلاتو، «بعد أن اتهموك بالخيانة ما الذي فعلوه معك بالضبط؟»

فكرت مصرا لوقت طويل. تمثل مصرا لصلاتو الآن الرضيع الذي خرج زاحفاً من مرأى البالغين ليدخل في غرفة أخرى، في مكان في المنزل نفسه ورغبت في معرفة ما الذي تفكر فيه مصرا، أية أفكار تنوي كبحها وأي منها تريد البوح به. «لقد أضرموا النار في البيت الذي أسكن فيه».

قال هلال، «ولكنك لم تكوني فيه حينذاك؟»

«بلى».

فقالت صلاتو، «عذراً - هل هذا كل شيء؟»

وخانها صوتها. وغاص هلال وصلاتو في الصمت. كانا في هيئة المتآمرين اللذين ينصبان فخاً لخصم. لكنهما كانا ودودين، حتى في صمتهما، وركزا نظراتهما عليها، ينتظران أن تقول شيئاً، تخبرهما بشيء ما.

قالت، «لقد اغتصبت».

وكان ذلك ثقيلاً على التحمل. حتى أن أي أحد منهما لم يعرف، للوهلة الأولى، ماذا يقول أو ماذا ينطق من عبارات الرعب. ثم نظرا إلى بعضهما البعض ليتواصلا الإحساس بالعذاب الداخلي. ذهبت صلاتو وركعت إلى جانبها بهدوء خاشع، دون أن تقول شيئاً أو أن تفعل شيئاً - لكنها كانت تعتذر. مدت ذراعيها إلى مصرا، كأنها كانت تقدم نذراً أو شيئاً ما، وقالت لها، «من اغتصبك؟»

قالت كأنها تسرد واقعة حقيقية، «رتب أحدهم إثني عشر شاباً لاغتصابي. تبعني رجلان إلى البيت في إحدى الأمسيات، قالوا لي أن عبدالإله عم عسكر ينتظرني في مكان ما. لم أكن قد رأيته منذ سنوات وكنت مسرورة لأن أراه مرة أخرى، لأنني لم أكن متيقنة إن كان قد نجا من الحرب. حين دخلت الكوخ الذي قالوا أنه موجود فيه، هجم عليّ في الظلمة عدد من الرجال الأقوياء واغتصبوني».

Twitter: @ketab_n

قالت صلاتو، وقد افترقت يداها وكانتا من الواضح خاليتين من الهدية أو النذر الذي ربما كان فيهما، «آمل أنك قد رويت الحادثة لأحد ما من أهل بيتك، أليس كذلك؟»

كان من الصعب تلقي الأمر حين أخبرتهم به. «لقد أشاع هؤلاء الشبان قصة ملفقة (وكل من كان يعتقد بأنني خائنة من السهل عليه أن يصدقها) وهي أن القردة قد اغتصبتني. قالوا، الحمد لله أنهم كانوا هناك، هؤلاء الشبان، هؤلاء الشجعان، وإلا لكانت الأسود قد افترستني. قال أحد الشعراء الذي كان من بينهم، لقد شمت القردة الحيوان الذي فيها وذهبت نحوه، لقد شمت القردة الهوية الخائنة التي تحت الجلد البشري وهجمت عليه مرة بعد أخرى. الحمد لله، أننا كنا حاضرين لننقذ جسدها، لأنها، كونها خائنة، فقد باعت روحها».

ولم تستطع لا صلاتو ولا هلال أن يفكرا بشيء ليقولاه. أما بالنسبة لها فقد كانت جد متعبة، وقد أقرت بذلك حين سألوها. هل تحب أن تضطجع في غرفة الضيوف؟ قالت، «بلى».

(٥)

لم تكن لدى عسكر أية رحمة. قال حين سمع القصص المأساوية التي حلت بمصرا، أنه لم يتأثر مطلقاً. كان يتهمها بأنها تعرض على العالم الندوب الوحشية لحرب شعواء - هذا هو كل ما في الأمر. ألم يروا بأعينهم، رجالاً ونساء بأعضاء مبتورة؟ ألم يشعروا بالاشمئزاز من أن أحد الشحاذين الذي عرفوه منذ سنين يظهر فجأة في زاوية الشارع وقد عرض ركبته التي وضعت في ساق خشبية، مدعياً أنه فقد ساقه وزوجته وابنه في الحرب؟ واستمر يقول، «إننا لا نطلب منها أن تلعب دور البطولة في مهزلة مأساوية، كلا لن نفعل ذلك. إننا نطلب منها، إن كنا نريد أن نطلب منها شيئاً، أن تبرهن لنا أنها لم تفش سراً خطيراً، فلتبرهن».

Twitter: @ketab_n

سألته صلاتو، «هل بإمكانك أن تبرهن أنها هي من فعل ذلك؟»

فكر للحظة أو للحظتين. وارتدى وجهه تعابير جامدة، كمن تعصب عيناه قبل أن يشنق. من الواضح أنه كان يتألم. أشاح بنظره عن صلاتو والصحون التي أمامه وركز على زاوية بعيدة كان يقف فيها هلال وهو يثخن المرق بملعقتين من دقيق الذرة. (كانت مصرا محتارة حين علمت أن هلالاً هو الذي يطبخ وجبات الطعام، ويقضي معظم وقته في البيت بينما تخرج صلاتو وتعود بسلة المشتريات. لقد شعرت بالحيرة لأنها لم تر بيتاً من قبل الرجل فيه يقوم بوظيفة المرأة والمرأة إلى حد ما تقوم بوظيفة الرجل.)

كان عسكر يوجه سؤاله إلى صلاتو مثلما كان يوجهه إلى هلال، «هل تتذكر أنني سألتك مرة إن بالإمكان القول أن الناس يقعون في خطأ جسيم؟ كنا نتحدث إن كان الصوماليون في كل مكان يمكن أن يوصفوا بأنهم قد «أخطؤوا خطأ جسيماً» في موقفهم الوطني. هل تتذكر ماذا قلت، هل تتذكر؟»

«أعتقد أنني قلت أن من غير الممكن القول أن الناس قد أخطؤوا خطأً جسيماً، وأننا يمكننا أن نتحدى وجهة نظر شخص أو جماعة صغيرة في الصح والغلط، إلا الأمة».

ولأنه بقي صامتاً فقد تردد في الغرفة صدى الحكمة التي استذكرت تواً، وعاش الثلاثة، للحظات متباينة، في خانات متباينة من الذاكرة. وفهمت صلاتو من ذلك أن ليس لأحد أن يتحدى حكم اتهام مصرا بالخيانة من قبل أهالي بلدة كالافو. أما هلال فكان له رأي مختلف، رغم أنه لم تكن لديه الرغبة في الإفصاح عنه في ذلك الحين. من المؤكد أنه كان يؤمن أن الناس من الممكن أن يُخطؤوا على نحو محزن بحق أنفسهم، وبحق موقفهم من الأفكار التي تخصهم. ليس ذلك فحسب، فلربما لا يعلمون كم هم مضللون، وقد لا يدركون أبداً أنهم على خطأ. فكر بالشعب الأميريكي؛ فكر كم كان الناس في الاتحاد السوفيتي مضللين. أما عسكر؟ فقد كان منشرحاً لما حققه، ومثل لاعب شطرنج متوسط المستوى ينتظر

Twitter: @ketab_n

الحركة التي يقوم بها خصمه كي يقوم بحركته التالية.

صلاتو:

«الذي لا أستطيع فهمه يا عسكر هو كيف تسمح لنفسك، أنت الذكي والحساس، أن تكون جاحداً لامرأة كانت مرة مثل أمك؟ أجل جاحداً جداً وقليل الاحترام».

كانت الضربة أشد مما تحسب لها لذلك أسقطته أرضا. لم يتوقع أن تقوم بتلك الحركة اللامرئية، تلك التي أجبرته على أن يعيد النظر إلى نفسه، ويلاحظ ما حوله - ويرى مصرا على أنها ضحية، أولاً لشعبه وثانياً له. شعر كمن سقط في بئر عميق وأذناه مغمورتان بالماء لذلك لم يكن بمقدوره سماع أي شيء، ولا حتى نفسه. كان صامتاً على نحو مربك. حدقت فيه صلاتو مثلما يحدق المصارعون إلى خصومهم الذين يلوذون في زاوية الحلبة ليلتقطوا أنفاسهم التي تقطعت في الجولة السابقة. ولأنه لم يقل شيئاً، قالت صلاتو، «هل تعلم أنها ستمكث معنا؟»

إنسحبت ظلال شمس ما بعد الظهيرة على وجهه، وكان هلال الذي التحق بهما يحمل المرق واللحم في يده اليسرى والسلطة في يده اليمنى، لم يكن يستطيع أن يقرر إن كان عسكر يبتسم أم لا. وحين وضع الأشياء على المائدة قال لعسكر، «نحن لا نفهم كيف يمكن أن تكون هكذا بلا إحساس، لا رحمة لديك إزاء امرأة كانت يوماً أماً لك. نحن نتساءل إن كنت ستتخلى عنا يوم تحل علينا مصيبة من مصائب الدنيا الكثيرة!»

جلس صامتاً يغمر وجهه الخجل. قالت صلاتو:

«إنها تقول أنها لم تجرؤ على اللجوء إلى المخيمات. ليس لأنها تخشى انتقام أحد ما من كالافو قد يتعرف عليها فحسب، بل أيضاً لأنها دخلت البلاد متخفية، حاملة اسم شخص آخر وسجلت كذلك في نقطة الحدود. وسيكون لموضوع الأوراق مخاطر كبيرة».

قدم هلال صحن الطعام لصلاتو وكذلك لعسكر واستغل لحظة

Twitter: @ketab_n

الصمت ليقول، «لقد عرضت لتسجيلها بكفالتي. وفي الحقيقة سوف أسجلها ضمن عائلتنا على أنها قريبة لنا. وهذا يعني أنها ستمكث معنا، وتكون واحدة منا، فرداً من عائلتنا».

استمرت صلاتو في كلامها، بينما كانت صحون السلطة الصغيرة تقدم، «إنها متيقنة من أنها مريضة وتخمن أنها ستموت في أقرب وقت. وهذا لا يقلقنا الآن. إننا نعتقد أن منحها الحب والرعاية التي هي بحاجة إليها سيجعلها تشفى. سوف نأخذها إلى أحد أبناء عمومتي الذي هو أحد أمهر الجراحين في هذا البلد ليهتم بما تعانيه. كل ما تعانيه. فهي اليوم وقبل أن تذهب إلى النوم بدت مكتئبة من ألم في ثديها الأيسر».

أصبحت نظرة عسكر جد قاسية، وقد أقلقت كل من صلاتو وهلال، وحين تمعنا فيها فهما القصد منها. من الواضح أن مصرا، بهدوء الحشرة، قد زحفت لتدخل فيما بينهم. سكتوا للحظة. ثم اشتبك صوتا هلال وصلاتو بارتباك، متخلّيين عن كرسييهما لها، دون أن يعلما أن ثمة كرسياً فارغاً إلى جانب عسكر. وحين اقتربت، ويبدو عليها أنها قد استراحت قليلاً، قدم لها كل من هلال وصلاتو جزءاً من حصته من اللحم. أما عسكر فقد دفع صحنه نحو الكرسي الفارغ وقال، «يمكنك أن تأخذي حصتي ما دمت لا أريد منها شيئاً على أية حال».

وخرج قبل أن يتكلم معه أحد.

(٦)

قال الطبيب أنه لا يستطيع أن يقرر ما الذي يؤلمها إلا بعد أن تخضع لفحص طبي متكامل. لكنه قال لصلاتو أنه يشك بأن الورم الذي في صدرها الأيسر خبيث ولابد من إجراء عملية استئصال للثدي.

لم يخبرها أحد بذلك. ولذلك فقد كان ثمة جو من الإحساس بالضيق ما إن عادوا إلى المنزل. كشفت صلاتو السر الجديد لعسكر، (تحدثت إليه

Twitter: @ketab_n

بالإيطالية التي لا تفهمها مصرا) مما عقد الأمور أكثر. بدا عليه أنه لم يكن مهتماً بالأخبار السيئة. وهذا ما أزعج هلال وصلاتو. وكي تخفف صلاتو التوتر سألت مصرا، «هل ثمة أي شيء كنت تتوقين لرؤيته، مقاديشو مثلاً؟ شيء ما كنت تودين مشاهدته قبل أن.. أر.. تموتي كما لابد أن نموت كلنا حين تأتي ساعتنا؟ هل ثمة شيء ببالك يا مصرا؟»

لاحظت صلاتو نظرة هلال الشديدة التي ظلت هكذا على الرغم من مناشدتها الهادئة. أما عسكر فلم يعد غير مهتم لما كان يحدث. لأنه هو الذي تدخل حين لم تتمكن، مصرا بسبب انشغالها بموضوع الموت ومقلقاته، أن تتحدث عن أي رغبة غير التي تعتمل في قلبها - هي الرغبة في أن تحيا. وربما تذكر عسكر أيضاً قاعدة بيتهم في كالافو - وهي أن لا يتحدث أحد عن الموت. ربما يمكنه أن يغفر لصلاتو في أن تفعل ذلك - ولكن عليه أن يرتب الأشياء على نحو صحيح وسريع أيضا. وخاطب مصرا مندهشاً من نفسه لكنه أسعد صلاتو وهلال أكثر: «كانت دائماً لديك الرغبة في أن تشاهدي البحر. لا؟ كانت دائماً لديك الرغبة في مشاهدة المحيط».

فقالت متحفظة قليلاً، «هذا صحيح».

«إذن سنذهب كلنا الأربعة، إلى الجزيرة، أليس كذلك؟» قالت صلاتو ذلك لعسكر، وهي تقصد أنها متأكدة من ذهابها مع مصرا وهلال، فهل سيذهب هو أيضاً؟

وقبل أن يقول «هيا بنا»، كانت التحضيرات الضرورية في طريقها لأن تكتمل - دخل هلال المطبخ ليقطع الخبز والجبن لغداء خارج البيت واختفت صلاتو في غرفة النوم لتجلب المناشف، وثياب السباحة وما إليها. وعادت بعد قليل، لتذكر عسكر أن يجلب معه منشفتين واحدة له والأخرى لمصرا. فقال في شبه صراخ، «ولكنها لا تعرف السباحة».

فأسكتته وقالت بعد برهة، «لا يهم. إجلب لها شيئاً، فليس الأمر مهماً. ودعنا نعجل لنذهب إلى الجزيرة ونعود قبل الظلام».

ساروا في طرقهم المتشعبة ثم التقوا في غرفة المعيشة. كان هلال

Twitter: @ketab_n

يحمل حقيبة في يده وقد عرفوا ما الذي فيها. ومصرا؟ كانت تقف إزاء الجدار البعيد كأنها جزء منه، أو كأنها كانت سجادة لفت وعلقت على الحائط. كانت تراهم مجموعة ثلاثية، ورأت نفسها منعزلة عنهم: كانت عليلة، وهم أصحاء؛ هم صوماليون وهي ليست كذلك. ولم تتحرك من الزاوية التي كانت فيها إلا بعد قدم إليها عسكر.

قال، «هل أنت بخير؟»

أومأت برأسها. كان عسكر يرى أن عينيها كانت تنظر إلى يديه. فكر مع نفسه، مم كانت تخاف؟ بم كانت تشك؟ كان أطول منها بكثير وأقوى بنية - كان عالمها، هكذا قال لنفسه. مثلما كانت عالمه عندما كان صغيراً جدا. مد لها يداً ودودة. لم تأخذها أول الأمر. نظر من أعلى كتفيه ورأى هلالاً وصلاتو يراقبانهما بتوتر، دون أن يقولا أي شيء كي لا يزعجانهما. «هيا»، قال وهذه المرة مد لها خنصره فحسب كأنه يمده لطفل، وأخذته.

سارا بضع خطوات، هي الطفل وهو البالغ. سألها، واعياً إلى أنه كان يخاطبها مثل طفل؛ واعياً إلى أن ثمة خيطَ رقةٍ في صوته، «تريدين فعلا رؤية المحيط، أليس كذلك؟».

قالت، «نعم».

قال، «سأعلمك السباحة لو رغبت».

فأومأت برأسها.

وعاد ليخاطبها مثل طفل، «أثمة أي شيء ترغبين مشاهدته بشغف حين نكون عند البحر؟ أي شيء آخر كنت تودين رؤيته؟»

كانا واقفين أمام هلال وصلاتو. وانتبها إلى الكيفية التي تكلما بها، وكيف رد كل منهما على الآخر. ها هما يمثلان أمام الجمهور، وعليهما أن يكونا حذرين. ونتيجة لذلك سرى في صوتيهما وعي بالعالم الخارجي، عالم صلاتو وهلال، وعي بماضيهما كليهما، وعي بـ«الآخر» الذي في كل واحد منهما.

Twitter: @ketab_n

قالت، «أتوق إلى رؤية سمك القرش».

فكر هلال، أي طلب مستحيل هذا. ليتني أحققه. ليتني أستطيع أخذها إلى حوض أسماك كبير - لو كان هناك واحد في مقاديشو. وفكرت صلاتو، ولكن لماذا سمك القرش؟ أحب خيال هذه المرأة، إنه واسع، وشامل واستثنائي، إنه أكبر من العالم الذي هي فيه وليست جزءاً متمما. لماذا القرش؟ لأنها غير مقتنعة بالقليل الذي عرض عليها وتريد المزيد، إنها تعتقد أنها تستحق الكثير ولسوف تفعل ما بوسعها لتنال هذا المزيد. أي خيال! أما عسكر فقد قادته أفكاره إلى مكان بعيد عن منطقة العقل، إلى منطقة هو فيها فتى صغير يسأل إن كان من الممكن لطفل أن يحيض؟ أو إن كان من الممكن أن يقابل «الموت» وجهاً لوجه ويبقى حيا؟ لقد رأى في طلبها شوقاً ورغبة في ماض سحيق.

قالت صلاتو بعد صمت طويل، «لا يرى المرء قرشاً كل يوم في هذه الأنحاء. ولكننا يمكن أن نذهب خلف مجزرة حمر، التي بنيت حديثاً، وهناك ثمة احتمال أن نرى قرشاً. والحقيقة أن ثمة حكاية تروى عن امرأة كانت تسبح بينما كانت تحيض بشدة وهذا ما جلب انتباه سمكة القرش إليها التي جعلت منها لقمة - هذه هي الحكاية».

صمت. حين نظر عسكر إلى مصرا، وجد أنها تقف بهدوء في زاوية أخرى، متكدرة. كانت مثل سجادة ملفوفة وقد شدت بحبل من طرفيها، ووضعت متكئة على الجدار. حدقت أمامها، ترتعش قليلاً، لربما من فكرة أنها قد تكون طعاماً، كالمرأة الحائض (أو بالأحرى مثل حيوان الأضحية؟) لأسماك القرش الجائعة خلف مجزرة حمر؟ لم تقل شيئاً. أخذت خنصر عسكر الذي مده إليها، وقد وجدته ودودا.

قال لها وإصبعه آمن في قبضتها، «هيا بنا نذهب؟»

فقال هلال، «هيا».

وكانوا في السيارة في أقل من دقيقتين. وفكر عسكر، سوف أعلم مصرا السباحة. وفكر هلال، أنا مسرور أنها بدأت تثق بعسكر من جديد

Twitter: @ketab_n

وأنا مسرور أن عسكر راح يغمرها بحنانه الدافئ، الذي ستكتشف فيه من جديد ذاتيهما القديمتين فيكونان سعيدان معا مرة أخرى. وفكرت صلاتو، وأنت تسافر بعيداً عن مسكنك فإن الكون ينكمش. هل تتوقع مصرا أن رؤيتها للقرش سوف تذكرها بكون أكبر، عالم أكثر عدوانية، عالم يكون فيه الدم ليس قوة للحياة، بل قوة للموت والخراب الذاتي؟

ساقت صلاتو السيارة. جلس هلال إلى جانبها. كانت مصرا وعسكر قد جلسا في الخلف، متقاربين جسدياً وأصابعهما مشدودة ببعضها البعض. شاهدت صلاتو في المرآة الخلفية، أنهما منشغلان ببعضهما ولم يكونا بحاجة إلى التعرف على العالم الخارجي. وحين انفردت بهلال عند الشاطئ، أفصحت بما ظنت أنها رأته لهلال. وكان سعيداً بذلك.

Twitter: @ketab_n

الجزء الثالث

من ذا الذي يخلصني من جسد هذا الموت؟

أهل روما ٧: ٢٤

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الفصل العاشر

(١)

ها أنت تقضي وقتاً في منزلك بعد أن حلت فيه مصرا أيضاً. لقد دخلتَ بهدوء مثل متسلل، تستحم، تغير ثيابك بأخرى نظيفة لتخرج ثانية، وتقول، أحياناً، أين ستكون (في منزل ريو، ندرس الجغرافيا سوية - لكون ريو فتاة في مثل سنك - جارة وزميلة)، وفي أحيان أخرى، لا تزعج نفسك في الإشارة فيما إذا كنت ستعود إلى البيت لتناول الطعام. شيء واحد كان واضحاً - كان هلال وصلاتو في مأزق أخلاقي. وحين يصل الأمر للاختيار، كانا بالطبع يفضلان حضورك على حضور مصرا. كذلك كانا يظنان أن من المجحف استبعادها. الذي كانا يفعلانه هو الصلاة، سوية ومنفردين لغرض الوصول إلى عتبة التفاهم. وإلا، كما فكر هلال، فعليهما التدبير لمواجهة لطيفة بينكما. ومع مثل هذه الإمكانيات، أُسقط أسم كارين. التقطته مصرا كأن صلاتو قد رمته في الوحل، ونظفته بطارف ثوبها المغسول تواً. كل ما قالته، أسوأ عدو في العالم هو الذي كان لك أعز الناس وأوفى الأصدقاء طيلة نصف حياتك. ومنذ ذلك الحين، لم يجرؤ أحد على تلويث الجو بإعادة ذكر أسم كارين. ولم يجد بعد ذلك الفرصة لسؤالها على هويتها المستورة، باسمها الذي ينتهي بالحرف (ت) والذي يعني شيئاً مثل «أساس الأرض» ولغرض تخفيف حدة التوتر في الغرفة، داعبك أحدهم. لكن مصرا بقيت خارج منطقتك التي تمتلكها، وتشعر كأن من المحرم عليها الدخول فيها.

Twitter: @ketab_n

ومن أجل أن تثيرك صلاتو (أم هل كان ذلك من أجل مداعبتك؟) قالت في تلك الأمسية الخاصة، : «كأنك لست لنا»، ونظرت إلى هلال ومصرا، كان ذلك بوسع جملة إعتراضية، كأنك مغادر إلى ميدان الحرب. مثل هذا الشخص يتخلص من كل أثقاله، ولا يبق غير بندقية، وحزام ذخيرة أو ربما حزامين، وربما مادة قديمة مثل المنظار إن توفر، ومن يدري، ربما مسدس. آمل أن لا تستاء من قولي هذا، لكنك تبدو لي مثل شاب عثر على حب جديد - ريو أولا أدري ما اسمها - التي، كما أسمع، تنوي أن تأخذها معك إلى جبهة الحرب، الله يعلم بأية صفة.

بدأت بالدفاع عن نفسك بثقة مستجدة، هل تقولين يا صلاتو أنني الجبان المثالي الذي أخبر كل صغير وكبير في قريته أنه يستعد لمعركة وذهب إلى الغابة، وعاد بعد ذلك مثخناً بالكدمات حتى أنه لم يقو على السير. وحين سأله أهالي القرية لماذا تحمل كل هذه الضربات بدلاً عن خصمك، قال الجبان، «أريد أن يعرف الجميع أنني أنا الذي بإمكانه أن يقطع الكثير من الأشجار ويتحمل الكثير من العصي، يمكنني أن أطرح أرضاً أي عدد من الخصوم! هل تقولين أنني مثل هذا الجبان المثالي يا صلاتو؟»

بدا على هلال أنه كان مرتاحاً من صحتك الذهنية المعافاة. كان مسروراً لأن حماسك قد عاد للتوقد ثانية بالمحاجحة ذاتها من قبل وأنك عدت إلى ذاتك السابقة مرة أخرى. فعلق: «لم أسمع بها تروى بهذا الألق. أليست هذه قصة عقال شداد؟».

عند ذاك نهضت صلاتو من مقعدها وأوقدت الضوء، وسألت مصرا هلالاً سراً، إن كان حقاً ينوي الالتحاق بجبهة الحرب مع هذه التي تسمى، ريو. وحين أرادت مصرا التعليق، رفع هلال يده -! ران صمت. أخذت صلاتو كرسيها. ونهضت أنت من كرسيك. كانت مصرا قد نهضت نصف واقفة، كأنها كانت تتبعك أينما حللت. وراقبكم هلال جميعكم وأنتم تتصرفون بتوتر بينما هو في قلق أكيد.

Twitter: @ketab_n

قالت صلاتو وهي تشك بأنك توشك على الخروج من البيت، «ألم يفت موعد ذهابك إلى تمارين الرماية؟»

وعدت لتنظر إلى المصباح، مثل من يتوقع من المصباح أن يقول شيئا. قلت لنفسك ثمة شيء مزعج في كيفية اهتمام صلاتو على نحو متسلط بتحركاتك، لتتطفل على شؤونك، تقرأ ما كنت تكتبه وتسألك كلما سنحت لها الفرصة. لم تكن تريدك أن تغادر إلى جبهة الحرب، ذلك شيء جلي. ولكن كذلك كان هلال. نظرت بصمت إلى المصباح الكهربائي، الذي انفجر بغتة! وسقط على الأرض على بعد بوصتين منك، ليجعل نصف غرفتك تغط في ظلام. وقفت في مكانك للحظة، قبل أن تنحني لتلتقطه. هززته برفق، ثم بقوة وقربته من أذنك وأصغيت أليه. فتيقنت من نهايته.

قال هلال «تمنحنا المصابيح ساعات من النور ثم تنفجر وتموت».

نظرت مصرا منه إليك، ثم منك إلى صلاتو ثم عادت إليك، كأنها كانت تعرف على نحو ما، إنك لن تدع ذلك يمر دون تعليق. قلت، «على أية حال، فإن الإنسان ليس لديه نظام محدد من الساعات والأيام والأشهر والسنوات ليعيشها. فلماذا يحدث هذا برأيك؟» ولم تكن تحدد توجيه السؤال لأحد.

كان هلال مبتهجاً جداً. كنت جيداً، كان دماغك يعمل، كنت تفكر ولم تكن قانطاً صامتاً متراجعاً. كنت ممتعاً، كما من قبل. «أخبرنا لماذا؟»

«النواقص أو الاكتمالات... أو إن أحببت... الغياب أو الحضور... أو... النواقص أو الاكتمالات في نظام الأشياء. الرجل. المرأة. الرب. أيه؟»

من الواضح إن هلالاً كان منشرحاً لأنك أعدت الكرة إلى ملعبه. في ملعبه ثمة نور! في ملعبك ظلام. كنت تعرف ما عليه قوله - أو هكذا اعتقدت. ولكن لم تكن لديه أية فكرة إلى أين يمكن أن تقفز في المرة التالية. قال «ذلك يعتمد؟»

Twitter: @ketab_n

«إن كان الإنسان يؤمن بالله أم لا؟»

أومأ برأسه. أشرت كأنك تود الخروج.

قالت صلاتو «إلى أين أنت ذاهب يا عسكر؟»

فقال هلال لصلاتو: «بالله عليك يا صلاتو!»

لكنها تجاهلت تعليقه. قالت لعسكر، «أنا أسأل لأن الجيران لديهم حفلة زار هذه الليلة وأتذكر أنك قلت لي أنك تود حضورها. هل ترغب في البقاء لتناول الغداء ثم نذهب فيما بعد مع أي أحد يجيء؟» كان كلامها في منتهى اللطف حتى أنك لم تستطع رفضه.

أومأت برأسك في النصف المظلم من الغرفة ولم تكن متأكداً إن كان أحد قد رأى جوابك. ولكن لا يهم. فخلال ساعة كنت تعرف أن المطبخ سيستقبلكم جميعاً، ولسوف تجلسكم المائدة، وسوف تطعمكم الملاعق والشوكات (ما لم يأكل هلال بإصبعه) وستكون مصرا متضايقة، وهي تجلس إلى المائدة مرتبكة، وتسقط السكين من يدها بين الحين والآخر ثم تضعها في اليد الخطأ، وتسقط شوكتها على الأرض. وسيقول هلال «كل هذا لا معنى له. تناولي الأكل بأصابعك كما أفعل أنا».

وستقول صلاتو «أفضل طريقة لأكل الدجاج هي بالأصابع» على الرغم من أنها قد تستعمل السكينة والشوكة. شيء ما كان يحدث لصلاتو. وكان عسكر غير سعيد به.

قال هلال «دعونا نذهب ونطبخ»

(٢)

حين تقطع صلاتو البصل تنسى مبدأً أساسياً كان هلال قد علمها إياه - هو أن تقطع البصلة نصفين وتجعلها تغطس في الماء لدقيقتين. وعندها لن تذوق دموعاً بكبر البصل الفرنسي، ولن تعطس، وتكون عيونها كالبصل فتقولشاكية «آه، ما الذي يجب أن افعله الآن؟».

Twitter: @ketab_n

أعطاها هلال منديلاً لتمسح دموعها. وحين كانت تغادر المطبخ قال، لا ليسمعك بل ليُسمع مصرا، التي كانت تقف عند الحوض تحدق في اللحم الجامد وهو يذوب، «حين يعيش شخصان لعقد من السنين، لا ينويان السماع لنصائح بعضهما البعض. حذرتها مرة بعد مرة، ربما مليون مرة».

ولكن ما الذي كان يدور في ذهنه وهو يحدق في مصرا؟ هل كان يفكر بها بسوء؟ لم يكن شيئاً مما قاله. بل الطريقة التي كان ينظر إليها بينما تختلس النظر إلى اللحم الجامد وهو يذوب في حوض المطبخ. كانت المشكلة أنك كنت مخطئاً. وبدا أن أهواءك لا تثير أفكاراً مشوهة. وفي الحقيقة كان يقول بلطف «وأنت يا مصرا، ما الذي تودين فعله؟»

لم تكن تدري ما الذي تقوله.

قالت: «أقترح أن تتبلي اللحم، لقد فعلت ذلك أمس على نحو ممتاز، كان طعمه مدهشا» وعلى أية حال سكت، في وسط الفكرة، مثل رجل يكتشف إنه يرسب ماسة أرفع ثمناً من الحديد الخام الذي كان يستخرجه طوال هذا الوقت. «لماذا لا أترككما أنتما الاثنين معاً؟ سألحق بصلاتو وأساعدها في تنقية الرز. أليس كذلك؟»

ولم تتكلما لوقت طويل. ثم اشتركتما في ملء الفراغ بحديث لا خلاف فيه، خالياً من أي جوهر حقيقي. لقد تحدثت كما لو أنها قد أحبت المطبخ الذي كنتما

فيه. لمست الغسالة التي كانت تنتصب إلى جانب الثلاجة، واحدة بزر أحمر مفتوح، والأخرى بلا زر ومغطاة. لم تذكر اسم كارين ولا قورح ولا عوضان. وليس ثمة أية إشارة منها إلى الملازم الذي كانت على صداقة به. كنت تقول شيئاً رائعاً وعادياً مثل «حين أرى امرأة تحمل خشب وقود على رأسها، وعلى ظهرها طفل وأمامها، ضامة مشترياتها اليومية إلى صدرها، فإن قلبي ينزف تعاطفاً مع هذه الشهيدة».

Twitter: @ketab_n

وفجأة بدوت مرتاحاً - مثل زوج كان يرحب بضيف غير متوقع، وصل في اللحظة التي كانت فيها زوجته تود أن تسأله سؤالاً محرجاً - فقد وصل عثمان، معلمك اللاحق. عرفتهما ببعضهما البعض. وأعربا عن استغرابهما لأن كل واحد منهما كان يشير إلى أنه لم يتخيل صورة الآخر بهذا الشكل.

قالت مصرا بود: «ربما كان عسكر قد ضللك».

فرد عثمان: «كلا، كلا، أنا الذي أخطأت في تركيب صورك التي من الواضح أنها لا تضاهي الواقع. كل ذلك خطئي ويتصافحان ثانية».

فقالت مصرا وهي لا تزال تتحدث بأسلوبها الودود: «من المؤكد إنه شوه صورتي».

«لقد بالغ في مدحي. هكذا يفعل دائماً»

فقالت مصرا: «على العكس من ذلك»

«لقد ذمني؟»

أومأت مصرا برأسها.

بقي عثمان مؤدباً على نحو ساحر، وتبادل بعض عبارات المجاملة مع مصرا. ثم سلمك كتاباً عن مبادئ تصليح السيارة. فتحت الكتاب بفرح واضح ورأيت طريقاً عاماً للإشارات التقنية لم تكن تعرف كيفية قراءته، ثم ألقيت نظرة على شرح المفردات الذي يعرض ملاحظات توضيحية عن ميكانيكية المحرك. «حين تفهم ما يقول هذا الكتاب، فأنت في طريقك لأن تكون مصلحاً فعالاً للسيارات المغتنمة من العدو».

كنت تعرف أن الأمور ليست بتلك السهولة. لكنك كنت مسروراً لقدومه. لقد حقن وصوله دماً جديداً في الجميع وكان ثمة الكثير من الحركة البهيجة. كنتم جميعاً في المطبخ، تدورون حول أنفسكم. ثم عرض هلال بعد ذلك أن ينهي الطبخ بينما كنت تتكلم إلى عثمان.

وسقط نظرك على مصرا صدفة. كانت تضغط باطن ذراعها على

Twitter: @ketab_n

صدرها ـ الحركة التي تقوم بها المرضعات عندما تكون صدورهن مليئة بالحليب. وخمنت، وكنت على حق، أن ثدييها كانا يؤلمانها. وأيضاً حيث رأت نظرات هلال وصلاتو وعثمان تتجه نحوها كفت عن تلك الحركة وهنا حدث شيء مشابه للتحولات التي تسببها الزوابع الثي تثير الغبار والتراب وغيرها، لتترك كل شيء، بعد دقيقة، بيد الجاذبية، لتترك لها إعادة توازن العناصر الذي فقدته. اقتربت منها. وشممتها.

صحيح. لقد نزلت دورتها في اللحظة التي نظرت إليها.

(٣)

قالت صلاتو: «إن ذهبت؟»، ونظرت باتجاهك.

كنتم الخمسة عند المائدة، ومصرا بينكم. فكرت إما أن عادات جسد مصرا قد خضعت لتغيرات عجيبة أو أن معلوماتي غير صحيحة. رغم أن ذلك لم يكن شيئاً مهماً بالنسبة إليك في تلك اللحظة. كنت تصغي بانتباه إلى نقطة يعرض لها عثمان، الذي أمسى خبيراً في إدارة الخلافات، بعد أن تعلم المهنة من هلال. كان جوهر ما يود قوله غير واضح حتى بالنسبة له، بإمكانك أن ترى ذلك، ولكنه يمس موضوعاً كنت مهتماً به، وهو بالتحديد العلاقة بين الأدب «الرفيع» و«المخطوطات». كان قد استشهد بمثالين قال: على الرغم من أن الأمهرية لغة كتابة منذ قرون، تقريباً، فليس ثمة شخصيات أدبية «استثنائية»، أما اللغة الصومالية، التي لم يكن لها حروف كتابة حتى تشرين الأول (١٩٧٢)، فلها شعراء «استثنائيون» وخطباء موهوبون ومحترفو كتابة من الطراز الرفيع. كانت حجته، أن المسألة ليست مسألة أدب شفاهي إزاء أدب مكتوب، كلا. إنها اللغة (الصومالية على سبيل المثال) ذات الأدب الغني على نحو ظاهر، مقابل لغة أخرى. (الأمهرية) التي بقيت فقيرة بشعرائها وكتاب نثرها.

توضحت فكرة عثمان أكثر في الصمت الوجيز بين اللحظة التي سكت

Twitter: @ketab_n

عن الكلام فيها واللحظة التي التقط فيها هلال خيوطها السائبة، مضيفاً كرتين من خيوطه القطنية لينسجها في ضفيرة استنتاجات، بلحمها وسداها.

إحتج عثمان: «كلا، كلا، كلا، لم تدرك ما أعنيه».

فقال هلال: «بل أدركت أدركت».

«كلا لم تفعل».

قالت صلاتو: «أنت تقول الشيء ذاته يا عثمان».

كان هلال يقول: «ولكن هذا الذي يطرحه عثمان خطير. فأنت لا تعرف بما فيه الكفاية عن الأدب الأثيوبي لتقارنه على نحو عادل بالأدب الصومالي. مثلاً»

«أرجوك كف عن هذه الأمثلة، إستمع إلي»

تواصلت المرأتان سراً (كانت مصرا تعاني من ألم الدورة الشهرية وقررت صلاتو أن تكون معها) فتركتا الرجال يقررون أفضل طريقة في حكم العالم. خلال هذا الوقت كان هلال غارقاً في زحمة أفكاره. فصعد عالياً في تفكيره الحلزوني إلى سلم ملتو، واصلاً إلى ذرى هائلة ليبرر انتهاكه لنظريات تأريخية وأدبية، في داخل وخارج القرن الأفريقي. وحين يحط عند نقطة ما كان يسكت. كان متكئاً على سياج متداع، يداه مفتوحتان في هيأة أقواس، وقد علق على النشاطات السياسية والأدبية للسيد محمد عبد الحسن أعظم شعراء الشعب الصومالي المحاربين حتى اليوم ومنيلك، معاصره، معمار الإمبراطور الأثيوبي. ولكن عيني هلال ضاقتا فجأة وبدا عليه الإعياء، كأن السلالم التي تقوده إلى القمة من تسلقه سوف تنهار لو حاول ارتقاءها. سكت ثانية، وهذه المرة كان أشبه بالسائر الذي توقف. تطلع ورأى أن صلاتو قد عادت وحدها. «ما الذي يحصل لمصرا؟»

قالت صلاتو: «إنها امرأة».

فترة صمت أطول، وكان يتحرك حول تفكيره الحلزوني، صاعداً مرة، وهابطاً أخرى، واصفاً بوضوح الهجاء الشعري الذي انغمس فيه سيد مع

Twitter: @ketab_n

عدد من منتقديه بضمنهم شاعر إنجليزي لم نسمع به دخل في النقائض الشعرية بمساهمة «ذات عروق كالذراع الرومانسية الممتدة للضحية التي لا بد أنها تملقت من قبل أن يوجه إليها الضربة الأخيرة. مثلاً».

وهنا هبت جوقة التذمرات. «إنتظر، إنتظر»

سمعت رقع طبول. فكرت بحفلة الزار. أومأت صلاتو برأسها تجاهك وقالت: «إنها ترتاح لبعض الوقت، لكنها تقول أنها ستأتي معك».

كان عثمان يقول: «دعني آتيك بمثل، لم تستعمر أثيوبيا أبداً. وإن لغتها الوطنية، على الرغم من أن الأقلية هم الذين يتكلمون بها، لها حروف كتابة منذ أمد بعيد قبل المسيح. ومع ذاك، كيف حدث إن هذا البلد الذي ضل مستقلاً خلال كل حقب التأريخ الموثق، أثيوبيا هذه التي مجموع سكانها عشرة أضعاف الصومال، أثيوبيا هذه، لم تنتج شاعراً واحداً، في القديم أو الحديث مها كان في الشعر المكتوب أو الشفاهي، شاعراً أثيوبياً عبقرياً واحداً، من الممكن أن يقارن بمئات الشعراء الصوماليين الكبار الذين كانت الصومال ميداناً لهم؟»

«لا تكن مركزي العرق. هذا كل ما أريد قوله. بالطبع أن كون ليبيريا مستقلة منذ مائة سنة لا يجعلها في كفة واحدة مع أثيوبيا. لا يمكن لأحد أن يفسر مثل هذه الأشياء. كيف، مثلاً، يحدث أن ثلثي الشعراء الصوماليين الكبار يأتون من الأوغادين وهود؟»

صمت. كان صوت غناء سيد حفل الزار يعلو في قلب مقاديشو، بلغة هي من المؤكد غير صومالية ـ هذه الواقعة وحدها استحقت مجموعة من الدراسات وأعمال البحث. ينشد سادة أو سيدات هذه الحفلات بلغة تفهمها الأرواح ـ تلك اللغة ليست صومالية. إنها اللغة البورانية. تماماً كما يحصل في احتفالات الفودو في هاييتي التي تلقى الأناشيد فيها بلغة اليوروبو وليس بلغة أهل الجزيرة، الكريول.

قالت لك مصرا: «هيا بنا نذهب».

Twitter: @ketab_n

(٤)

أدخلوك في غرفة كبيرة وكان ثمة الكثير من الناس وهنالك الكثير من الذهاب والإياب، مع سيل من الرجال والنساء يدخلون ويخرجون. كانت زوجة الجار مريضة منذ زمن. وتبعاً إلى الوصفة السحرية، فالمرأة مسكونة بالأرواح، ولسوف يتركونها، إن ضُحي لها بكبش أبيض الذيل، لابد أن يلطخ سائر جسمها بدمه، وعليها أن تخضع نفسها مخلصة لشعائر التعازيم بالرقص والغناء لثلاثة أيام كاملة. كان الجار، حمرياً، ثرياً ويحب زوجته، التي كانت أصغر زوجاته. ولم يكن يعبأ بالتكاليف. فوافق على أن يدفع للكاهن الطبيب مبلغاً طيباً وربما أشترى له تذكرة ذهاب وإياب إلى مكة. كما أن الرجل رفض أن يحلل أو يعلق على التناقضات الفلسفية والدينية التي تتعلق بنشاطاته. كان زميلاً لصلاتو، فهو من هذا المنحى رجل عارف، كما إنه ينتمي لعائلة حمرية موسرة.

ولأنك أنت ومصرا كنتما مدعوين، فقد ذهبتما وشاهدتما الرقص مثلما قد تشاهدان أي عرض مسرحي. لا أكثر. لكنكما لم تفهما اللغة التي يغنون بها، لم تتمكنا من حل شفرة الإنشاد. من المؤكد أن اللغة ليست صومالية. هل تفهمها مصرا؟ كنت مندهشاً من تمكنها من الاستيعاب. رقصت المرأة العليلة ورقصت ورقصت، وتحدى الكاهن ـ الطبيب الأرواح، طالباً منها أن تسمي نفسها ـ أو على الأقل تعرف بنفسها، أو تقول فيما إذا كانت أنساً أو جناً ـ فرقصت ورقصت ورقصت.

تساءلت مصرا: «ما اسم المرأة؟»

كان صوته، عالياً، حتى أنه تجاوز قرع الطبول وقال: «وليمة شيخ»

بعد أن نَفِذَ صبر الكاهن الطبيب أشار إلى قارعي الطبول بأن يقرعوا على نحو خفيف وبطيء وأخذ بيد المرأة، ثم أمسك بها من كتفها وراح يهزها وهو يصيح «أخبرينا من أنت. هل أنت من الأنس أم من الجان؟ وماذا تريدين؟»

Twitter: @ketab_n

ورقصت المرأة ورقصت ورقصت. تساءل الكاهن الطبيب «والآن من أنتِ؟ ليس لدينا الكثير من الوقت ولا الصبر. لسوف نخلصك من الأرواح الشريرة التي فيك. فمن أنت؟»

وتوقفت المرأة عن الرقص فجأة. وسكتت الطبول.

وبدأت المرأة ـ العليلة بالكلام، كأنها أنهكت، لكن صوتها كان خافتاً ولم يسمع منها غير جزء من الجملة. ليست غير «أنا. . . أنا» التي هي من الواضح قد سمعت من قبل الجميع، مما ولد الكثير من المتعة والأمل في قلوب وعقول الجماهير. ركز الكاهن ـ الطبيب بكثافة على جبهة المريضة كأن قواه سوف تحضر في خلايا ذهنها وذلك ما سوف يساعده، في النهاية في حل اللغز السحري لأي جن أو أنس من الممكن أن يكون عنيداً في المقاومة لمدة ثمانية وأربعين ساعة. والآن أشار إلى قارعي الطبول بأن يستأنفوا قرعهم ففعلوا. وحين ألتفّ المزيد من الراقصين حول المرأة العليلة، ترك الكاهن ـ الطبيب الأرض ليعود إلى عرشه إلى يسار ما كان مرة غرفة معيشة الزوجة. لكنه نهض ثانية في الحال كأنه كان جالساً على أشواك، وتحرك باتجاه مريضته وكان يقول: «سوف أعاقبك بقسوة إن لم تخبرينا من أنت»، وكان يهز جسدها كأنها شجرة فاكهة، ولسوف تتساقط ثمارها صغيرة كالجن أو كبيرة كعيون البشر ولسوف يلتقطها ويجعلها هدية لزوج العليلة الذي كان جالساً في زاوية أخرى، في الجهة اليمنى من الغرفة.

لم تكن متأكداً «من» كان الكاهن ـ الطبيب يخاطب، لم تكن تعلم «من» سيعاقب بقسوة ـ المرأة على أنها بشر أم الروح التي في المرأة. كنت تعرف على أية حال، اسم المرأة وأملت أن الكاهن ـ الطبيب كان يعرف أسمها البشري أيضاً، أو حتى إن كان لا يعرف، فالزوج حاضر هنا ليذكره به، أو ربما يقوم بذلك أحد الجيران. ولكن بعد ذاك، ما كان قد صعقك كثيراً أنه راح الآن يجلدها وكان يكرر ذلك بصخب، مرة بعد أخرى الجملة «أخبري الناس المجتمعين باسمك وعنوانك، وإن أمكن مهنتك. هل أنت

Twitter: @ketab_n

رجل، هل أنت امرأة أم أنت طفل؟ هل أنت من الأنس أم من الجن؟»

توقفت عن الرقص وسقط رأسها على حنكها ـ كما تفعل رؤوس الدمى حين تنحل نوابضها أو تنفلت. توقف قرع الطبول. وأصغى الجميع.

كرر الكاهن الطبيب: «إسمك وجنسك ومهنتك وعنوانك؟»

فقالت المرأة أخيراً «أنا ديكو أمين»

فقال الكاهن ـ الطبيب، «وأين تسكنين؟»

ران صمت خلال ذلك الوقت ردد الحاضرون، بمختلف الصور، وذكر اسم العليلة. فقال أحد الناس لاعناً «ديكو» وتمنى آخر لها الجحيم، في الدنيا والآخرة، لكن الكثيرين انتظروا قبل أن يلفظوا حكمهم. «أين تسكنين؟»

تذكرت حفلة الزار «الكوديس» في كالافو، تلك التي قالت فيها كارين اسماً غير أسمها واستعارت هوية رجل. المنغيز والكوديس! وفكرت بالزار المصري وما يسمى في مقاديشو بالبيب والبوران. سألت نفسك، ولكن من نحن؟ هل نحن الجن الذي يسكن داخل «نا» من وقت لآخر؟ أم نحن دائماً البشر الذين ندعيهم؟ أية أجزاء منا بشر وأي منها جن؟ راحت المرأة تصيح الآن، «أسكن في حي مدينة حمر» كررت ذلك ثلاث مرات.

إنتظر الكاهن ـ الطبيب ذلك ليتعمق في السؤال. فقال «وكم لديك من أطفال؟»

«لا أطفال لدي». همهم جمهور الحاضرين بشيء ما لبعضهم البعض.

كرر السؤال بصوت أعلى وتوقع من المريضة أن تكرر جوابها بصوت أعلى أيضاً. «قلت، لا أطفال عندي» (وصاح أحد ما «عين شريرة».)

«ما اسم زوجك، أسمه الكامل من فضلك؟»

أجابت المرأة «أنا أرملة. مات زوجي في حرب الأوغادين»

وكرر الساحر «وليس لديك أطفال؟»

فقالت المرأة. العليلة، «هذا صحيح»

Twitter: @ketab_n

يمكنك أن تعرف من صوته أنه كان منشرحاً لأن مريضته ذكرت أسم شخص ما. وأنها ادعت أنها شخص آخر له أسم وعنوان، وأنه أقنع الحضور جميعهم بخبرته. «من فضلك أخبري الجمع هنا لماذا اخترت الإقامة في وليمة شيخ؟ هل تعرفينها؟ هل قابلتها يوماً؟ هل أنت حاسدة لها، ولأطفالها وسبيل حياتها؟»

«يمكنك أن تقول أنني كنت أعرف وليمة شيخ عندما كنا نلعب لعبة البيت والعائلة حين كنا بناتاً صغاراً وأنت محق حين تفترض أنني حسدتها على زواجها، وعلى ثرائها وأطفالها وحسن حظها. زواجي سيّيء وزواجها سعيد، تركت الدراسة مبكراً أما فهي فقد أنهت دراستها وأفلحت فيها».

طرح المزيد والمزيد من الأسئلة على المرأة ـ العليلة حتى بدا من الواضح أن امرأة أخرى «كانت تتكلم من خلالها؟» امرأة أخرى، بإسم وعنوان مختلفين، إمرأة أخرى تداخل صوتها الطيب في آخر شرير؟ سألت نفسك، وانغمر خيالك بأن ذلك كان من الممكن. هل يمكن لمصنرا أن تختفي فيك؟ هل يمكن أن يسكن شخص «آخر»؟

وفكرت أن لعالم الغياب مجهولاته، وفقدت الاهتمام بالأشياء الدنيوية التي كان يتفوه بها الكاهن ـ الطبيب أو بالأفعال الشريرة التي يصفها الجمهور عقاباً للمرأة التي «حلت» بسبب الغيرة، في امرأة «أخرى».

هل تذكر؟

(٥)

كان ثمة طوفان.

وطفوت. طفوت ثقيلاً مثل جثة، نائماً حتى نهاية العالم. طفوت شرقاً، نحو البحر. تتذكر أن شخصاً ما كان يقول أنه لن يكون هناك بعث أو نشور من أي نوع. لقد فقد الكثير من الناس حياتهم وممتلكاتهم في الطوفان، ثم أتفق الجميع بعدم أهمية ذلك، فهذه نهاية العالم وأن الطوفان

Twitter: @ketab_n

علامة على بداية نهاية العالم. وحين سألتك المرأة التي كانت تطفو إلى جانبك لعدة الأيام عما تفعل، أجبت بأنك أتيت لتدفن نفسك في الماء. قلت بأنك ستنفخ على النار لتطفئها، ولسوف تتلاشى في الظلام الدامس الذي يحيطك. كنت قد تنبأت أن مطراً مدراراً لطوفانات متعاقبة سيهطل من السماوات، مطبقاً الأرض بالسماء، ماسحاً من ذاكرة كل شخص كل الأحلام التي حلم بها، ولن يكون هناك ماض ولا حاضر ولا مستقبل. ثم ألتفت إلى المرأة التي سألتك من قبل عن وجودك هناك فسألتها عن سبب وجودها هناك أيضاً. قالت «أنا وزوجي نعمل في بناء القبور في قاع البحر» نظرت إلى المرأة متمعناً. وأسميتها بإسم.

قذفك الطوفان، كأنك عشبة مقتلعة على ضفة نهر، أخضر من كثرة النباتات الخضراء ـ النباتات الخضراء التي لم تستطع متابعة رسالتها الفوضوية. هناك، التقيت برجل عجوز، الذي ذكرك كثيراً، بعوضان، ولكنه إلى حد ما، كان يشبه معلمك الشاب، عثمان. إدلهمت السماء فجأة وكل ما يمكن أن تراه هو شعر الرجل الأبيض الأشيب والفضي. ثم وضع الرجل يده في جيبه وأعطاك سكيناً. لم تجرؤ على أن تسأل الرجل ما الذي يفترض بك أن تفعله بالسكين، لكنك قلت، مفاجئاً حتى نفسك، «ولكن لماذا الطوفان؟» فقال الرجل ذو الرأس الأبيض، «الطوفانات نتيجة انتشار الشر» هل تتذكر الآن، أم هل اخترت، كما العادة، أن تتذكر الأشياء الحسنة فحسب، مقرراً نسيان الأشياء الرديئة؟

مهما يكن!

كنت محاطاً بالظلام. كنت محاطاً بماء يتعاظم. وفي داخل الماء، أرقت المزيد من الماء، هو ماؤك كأنك تريد المشاركة بمساهمتك مهما كانت ضئيلة. وهناك أشرق قمر بهي وصغير في السماء، كان جميلاً كوجه فتاة عذراء. كان الماء أخضر كفضة المرآة وبمقدورك أن ترى ظلك على المويجات الصغيرة التي كانت تختلقها حركاتك. كانت عيناك حمراوان كالدم، ولكنك لم تكن تعلم لأنك لا تستطيع رؤية نفسك. كنت وحيداً،

Twitter: @ketab_n

لكنك لم تفكر بها ولم تشعر بالوحدة مطلقاً. كنت تغطس بين الحين والآخر وتصل إلى قعر عمق، عمق البحر، وما أن تخرج لتتنفس من الهواء النقي، حتى شعرت كأنك شخص آخر مختلف تماماً. متعب من السباحة وحدك، ذهبت لتجلس إلى جانب كثيب الرمل قرب البحر.

ها قد أنتشر الضياء ـ وطلع الفجر.

كان ثمة صبي، في العاشرة تقريباً. مشغولاً على نحو متأمل في تنظيف جمجمة. كان ينجز عمله بتفان كامل ـ يمكنك معرفة ذلك من الطريقة التي كان يتنفس بها، ويمكنك أن ترى التركيز الذي يعلو وجهه، يمكنك، أن تحس، دون أن تلمسه، بالتوتر الذي في جسده. كانت الجمجمة لإنسان. ولكنك لا تستطيع أن تقرر، حتى حين أخذتها بين يديك، أن كانت تعود لصغير أو لكبير ثقيل البنية رجلاً أو امرأة. يمكنك أن تحدد، دون أن تخاطر بأي شيء، أنها كانت هناك منذ سنين. من خلال شيء واحد، فقد بدأت النباتات تنبت فيها. وثمة شيء آخر، لقد تغير لونها عند عظم الفك الذي تحول إلى أقرب للون البني.

راقبت المشهد بصمت مبجل.

غطسها الصبي بأكملها في الماء، مزيلاً حبات الرمل التي كانت مستقرة هناك. هزها بشيء من القوة ليفرغها من الحياة. ونظر إليها، ماسكاً إياها بعيداً عن نفسه، باندهاش واضح (أو باستمتاع!) حين تحركت الحشرات، مذعورة مسرعة، وهي تجري متناثرة هنا وهناك ـ مثل حشد جمهور السينما وهم يركضون مضطربين هابطين السلالم لأن النار قد شبت بالستارة. حين أقتنع أنه قد أفرغها من الحياة بكافة أشكالها، غطسها ثانية في الماء ليغسلها مرة بعد مرة بالصابون حتى عادت بيضاء كزبد البحر الذي يرغو عند قدميه. يمكنك أن تقرأ الحرف (M) من أينما وقفت، محفوراً على الجمجمة بالأزرق. وأكملت الحروف المفقودة لذلك الاسم ـ مثلما فعلت من قبل وأسميت الوجه الذي رأيته.

هل تتذكر أي شيء من ذلك؟

Twitter: @ketab_n

لا تتذكر؟ أي إرهاق!

سألت الصبي لماذا كان يغسل الجمجمة. غسلها بالماء وشرب منها كأنه كان يجيبك. حدقت فيه باستغراب تام.

قال: «ثمة حياة في الموت، وموت في الحياة»

لم يكن قوله غير أصيل فحسب، ولكنك في الحقيقة لم تسأله عن أي شيء ـ ولربما جعلك ذلك تنظر إليه بنوع من العدائية. ثم وضح لك، «تعود هذه الجمجمة إلى رجل اغتصب ابنته. مات في أرذل العمر، رجلاً محتقراً، دونما أصدقاء، رجلاً غريباً عن مجتمعه. كان لعدة سنوات يرى أحلاماً يرتدي فيها وجه فتاة صغيرة. مات في طوفان عاصف».

إعترف على الأقل بأنك تتذكر هذا.

لا تتذكر؟

أجرؤ على القول أن ذاكرتك انتقائية جداً!

(٦)

سبحت عبر بوابة المطهر اغتسلت من شكوكك في مياه اليقين. كنت مقتصداً في التعليقات ولكن، ما دام خالك قد اقترح عليك، فقد وافقت على زيارة المستشفى الذي كانت تخضع فيه مصرا لعملية استئصال الثدي. (كانت حالتها الذهنية قد وصلت إلى حد أنها لم تستطع أن تقرر كيف كانت تشعر) قالت نصف ضاحكة، «ربما سأكون أشبه بالرجل»، جلست إلى جانبها وأمسكت بيدها ـ لم تكد تعرف ماذا تقول. لا حاجة إلى القول أن أحاديثك مليئة بفترات صمت، وفراغات غير مملوءة، ونقاط غير مكتملة، وتشبث أو إطلاق لحروف صحيحة معينة قبل أن تلفظ حروف العلة التي تسبقها بوضوح ودقة.

تذكرت أنك، وقبل أن تدخل إلى ردهتها الخاصة، رأيت في ممر المستشفى صبياً، في الخامسة من العمر، دخل دورة مياه النساء مصحوباً

Twitter: @ketab_n

بأمه. وتذكرت أنك فكرت أن العمر يحسب له حسابه في مسألة الجنس. كنت تدرك أن النساء في دورة مياه النساء في المستشفى، لا يبالين أن يكون هناك ذكر بينهن ما دام صغيراً ولم يع الأمر بعد. ولم تكن مصرا تهتم بشأنك، عندما كنت فتى صغيراً. وها أنت ترى الآن كم هي واعية لذاتها، متحفظة على نحو دقيق وحذرة في سلوكها، ومدركة كأنثى ترى الرجل الذي فيك. لو كنت صادقاً مع نفسك، لكنت قد طلبت منها أن تريك كم أستأصل الطبيب من ثديها ـ وكنت تفعل ذلك. وكنت ستعرف أنها لن تستطيع أن تخبرك فيما إذا كان الثدي الأيمن أو الأيسر هو الذي أكل فيه مبضع الجراح. هل من المطلوب منها أن تعرضه كما يفعل أولئك العائدون من حرب الأوغادين ويعرضون بقايا الساق المقطوعة، والجبهة المسلوخة أو الأنف المكسور؟ هل يتحتم عليها أن ترمي باللوم على الحرب مثلما لام الجميع الحرب لأي مكروه أو مصيبة حدثت له أو لها؟

قلت بينما كانت يدك ترتاح قرب ركبتها، وكيف تسير أحوالك؟

تحدثت عما يقلقها، إنها تعتقد أن الممرضة التي تأتي أليها لها قرابة بشخص من كالافو وهي لذلك جد قلقة من أن الممرضة قد تفشي أمرها أو تسمم لها الطعام أو قد تخلط على نحو خاطيء، بتعمد (على الرغم من أنه قد يبدو ببراءة) كل أدويتها لتميتها من الخليط السام. ولكن كيف كانت متيقنة من أن الممرضة تعرف ماضيها؟ «بسبب الطريقة التي تسأل فيها الأسئلة عن كالافو، دون أن أذكر أبداً اسم تلك المدينة الملعونة، دون أن أقول أبداً أنني جئت من ذلك المكان التعس». كان ذلك هو الذي جعلها تفكر أن تلك المرأة التي تحدثت معها الممرضة بود كانت قريبة أحد المرضى الذكور في الردهة المجاورة، ذلك الرجل الذي جاء من الحرب في الأوغادين «دونما رجولة، لأن قنبلة استأصلت خصيتيه. ما الفائدة التي يجنيها رجل من عضو دون خصيتين؟» تساءلت وهي تركز في صوتها على الكلمتين «عضو» و «خصيتين».

هل عليّ أن أقول أن الممرضة كانت تعلم أنها من كالافو لأن خالي

Twitter: @ketab_n

هلال هو الذي ملأ الاستمارة وقد قيل له أنه، في نهاية الأمر، قد يقنع السلطات في المشفى ليحصل على حسم لكون المريضة جاءت من كالافو؟ هكذا فكرت مع نفسك.

سألته، «هل تعتقد أنني مصابة برهاب السلطة؟»

قلت، «كلا، بالطبع».

سألتك إن كنت ستساعدها لو كانت بحاجة ماسة إليك؟ هل ستساعدها في مراقبة حركات الناس لو أمسى ذلك ضرورياً جداً؟ هل ستسفك دمك من أجل إنقاذها؟ هل كنت ستقتل من يتآمرون لقتلها؟ كنت ستفعل بالتأكيد. ما كنت ستقودهم إلى المحكمة أو شيء من هذا، بل ستأخذ السكين التي كانوا سيستعملونها لقتلها من أجل أن تنتقم؟ لكنك حبست أنفاسك كي تبطئ من وتيرة الحديث وتساءلت عن أهمية أخذ قاتليها إلى المحكمة أو قتلهم بنفسك وبالسلاح ذاته كما استعملوه؟ وفكرت هي أن كل المحاكم في الصومال تقريباً ستطلق سراح المشكوك بهم، الذين قتلوا امرأة هي ليست صومالية حتى كما أن من الصعب جداً التصديق ببراءتها أو حتى تصور تلك البراءة.

وبدأت تقول ببطء متعمد، «كوني صادقة، كوني صادقة وأخبريني بما يجب أن أعرفه لو تحتم عليّ أن أنتقم. هل فعلتها أم لا؟ كوني صادقة».

تململت في فراشها، وحررت يدها من يدك. بمقدورك أن تشعر أنها قد تحولت إلى تلك الحالة غير المعروفة من الإبتسام والبكاء. رفعت رأسها كي لا يقطر أنفها، وكي لا تسقط الدموع التي ملأت عينيها. بقيت ساكنة لكنها متوترة، كما يفعل المرء، حين ينوي أن يطلق عاصفة من العطاس وهو في صحبة محترمة ولا يملك منديلاً نظيفا.

قالت حين تمكنت من الكلام، «أن أفكر أنك تشك بخيانتي... كنت أظن أنني غير قادرة على فعل هذا الشيء الشرير حتى قال أحد ما أنني فعلته».

Twitter: @ketab_n

لم تقل شيئاً.

«أن أفكر أنك تشك بخيانتي..». ثم انجرت دموعها، مهتزة قليلاً. أمسكت يدها بقوة بين يديك، لأنك شعرت بالرعشة في جسمها، شعرت بالعذاب في روحها المتألمة.

قلت بعد سكوت، «من ذاك الذي اتهمك بالخيانة؟»

أقسمت، «ذلك الإنسان الأشد تعاسة وشرا».

«ما اسمه؟»

كنت ترى كم كانت متألمة حين قالت، «ذلك الإنسان المليء بالخطايا».

«إسمه؟»

وفكرت أنها أمالت رأسها إلى الأمام كي لا يؤلمها صدرها بشدة. عاد جسدها ليهتز بقوة هذه المرة، مثل هزة أرضية. كلاكما كنتما في الغرفة، في مكان في كالافو، وكنت أنت من يتخذ مقاييس جسدك المتألم، فضاءك الجسدي، دليلاً في تعاملك مع الآخرين، لأنك أنت من كان يتألم.

قالت، «لقد وثقت به، كم وثقت به».

قلت، كمن سوف يقتل، «إسمه؟»

فقالت في الأخير، «عوضان».

وحدث قطع كهربائي مباغت. أضحت الغرفة حارة وخانقة، ولم تستطع التفكير بشيء تقوله. وكذلك هي.

(٧)

بعد أسبوع، حين كانت لا تزال في المشفى أريت خالك هلال وصلاتو أول لوحة كاملة لك، لأنك كنت مقتنعاً بها. في اللوحة، ثمة رجل في الستين من العمر، يأتزرُ بمئزر، ويضع في حضنه دجاجة. كانت ملامح الرجل تحيل بوضوح إلى أصله - إنه عدني. خلفه، ثمة بستان جوافة ويقف

Twitter: @ketab_n

بضعة أولاد صغار تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة، دونما هدف حوله. من الواضح أن الأولاد كانوا واقفين في انتظار شيء ما. لكنهم جميعاً كانوا يتطلعون - البعض إلى السماء الزرقاء المسالمة والساحرة، بينما يتطلع الآخرون إلى التل الذي تقف على نقطته الشمالية العالية سارية يرفرف عليها علم أبيض.

إلى يسار الرجل ذي الملامح العدنية الحادة، ثمة امرأة احتلت أكثر من ربع اللوحة. تقسم جسد المرأة إلى أربعة مربعات وفي كل مربع، رتب الفنان وضع صورة ملائمة. في واحد منها فارس سقط إلى الأرض وركب جواده الريح، نحو الشرق؛ وفي المربع الآخر، رجل في رداء كهنوتي يعد النقود ويعيد عدها حتى يتأكد منها؛ وفي المربع الثالث، ثمة طفل في مهد البراءة تتحلل نظرته إلى دموع - ولكن يمكن للمرء أن يرى إلى أين تتجه نظرته - إلى المرأة الضخمة؛ وفي المربع البعيد، الذي هو الرابع، كبر الطفل وهو مضطجع على صدره ويتعلم الرماية بالبندقية. عيناه مثبتتان على التل الذي ينتصب أعلى منه.

إلى الشرق من المرأة، هنالك المحيط. وعند شواطئه، حشد محتفل، يردد عالياً شعارات النصر. كل إنسان هنا ينظر إلى السماء. كان النهار بارقاً بالضياء ولكن ثمة نجمة منعزلة لم يظهر منها سوى ثلاثة نتوءات من نتوءاتها الخمسة. هل كان كل واحد من ذلك الحشد المحتفل يتساءل لماذا لم تكن كل النتوءات موجودة، ولماذا بترت ومن قبل من؟

في الشرق البعيد ولكن من ناحية الشمال، ثمة شاب ينتصب في ألق هادئ. إنه كبير الآن. يعلق بندقية على كتفه. إلى جانبه ترى امرأة مريضة. وإلى يسارها ثمة دم. إلى يمينها، ثمة سكين ملطخة بدم متخثر.

(٨)

بعد أيام قليلة فعلت شيئاً لم يفعل من قبل. جلبت فتاة إلى بيتك

Twitter: @ketab_n

وأخذتها إلى غرفتك. كان اسم الفتاة ريو. كانت زميلتك في المدرسة. كنت في الأغلب تذهب إلى بيتها. لكنك اليوم أتيت إلى بيتك لأن بيت والدها مزدحم بالناس الداخلين والخارجين، لأن شيئاً ما كان يحدث ولم يتوجب عليها أن تحضره. كانت ريو تصغرك بعام لكنك تحبها كثيراً لأنها من النادر أن تكثر من الأسئلة وكنتما رفيقين مع بعضكما البعض. كانت تساعدك في الإنجليزية التي كانت تتحدث بها كالناطقين بها من أهل البلد. لقد ولدت في بريطانيا حيث أكمل والدها تعليمه العالي هناك. كانت ضعيفة في الرياضيات والفيزياء وكنت ترسم لها الخرائط حين يطلب منكم مدرس الجغرافيا واجباً بيتياً في ذلك.

كانت ريو مندهشة وفرحة لترى مجموعة خرائطك وكتبك. وهي تحسدك أيضاً على الفضاء الذي لديك في المنزل - فلك غرفة بكاملها. كانت تعرف ذلك من قبل، لكنها اعترفت أنها لم تصدق ذلك. كانت تشك أنك افتعلت كل تلك الأشياء كباقي الأولاد الذين قابلتهم في المدرسة أو في أماكن أخرى ممن يخترعون القصص ويروونها لبنات المدينة سريعات التأثر. كنت بالطبع صادقاً معها. وكما كان متوقعاً، حدثتها أنك على وشك الرحيل إلى جبهة الحرب لو دعيت. وكان تعليقها، «ولكن، أليست الحرب خطرة. لقد رأيت أفلاماً يقتل فيها الناس. أنت لن تموت أليس كذلك؟» كانت عذبة ولديها نظرة بريئة ويكتسي وجهها بابتسامة كأنها أبدية. كان ثمة شيء فيها ما يشبه العبادة حين تنظر إليك، وتصغي بخشوع للموضوع الذي كنت قد ناقشت فيه إما هلال أو صلاتو. كان وجهها يذكرك بفتاة رأيتها في الحلم في اليم الذي عبرت فيه حدود الأمر الواقع في فير فير. كانت هي من النوع الذي تثق فيه، من النوع الذي يمكن أن ترافقها زوجة لك فيما لو ذهبت في مهمة تخريب أو كان لديك عمل تؤديه. لقد تركت معها الكتيبات التي تعلمت منها كيفية تفكيك المسدس أو تشغيل السيارة دون مفتاح التشغيل. ومرة تركت عندها عددين من مجلة «بلاي بوي». إحتفظت بهما لعدة أيام دون أن تفتحهما. وحين عرضت عليها لوحاتك اعترفت أنها لم

Twitter: @ketab_n

تفهم مضامينها، ولكن تخيلت أنها ستحبها لو فهمتها. قالت، «أنت موهوب بالتأكيد». وكنت مسروراً لذلك.

ثم أخبرتها عن مصرا. قالت، «يا للمسكينة. أنا آسفة بشأنها، أنا حقاً آسفة».

قلت «أنها في المشفى وربما أزورها اليوم». لكنك لم تعلن عن سبب رقودها في المشفى، ولم تسألك هي. وقلت، «هل تحبين زيارتها معي؟»

قالت، «لا أحب المشافي كثيراً، ولكن إن أحببت سآتي معك».

Twitter: @ketab_n

الفصل الحادي عشر

(١)

كنت آكل شريحة من السماء بشهية كبيرة وكانت لذيذة جداً. كانت زرقاء - مثلما تكون شريحة اللحم المطبوخة جيداً بنية اللون - وهي متكومة أمامي أكداساً، مع نجمة تعلو كأنها نوع من الغطاء الجليدي، نجمة قد أكلت منها بعض الأجزاء. لم أكن سعيداً إلى حد أنني لم أستطع معرفة عدد الرؤوس التي كانت للنجمة في مكانها الأول وكم عددها الآن. كنت أعرف أنني من الممكن أن أتناول الغيوم حلوى لو أردت. وكنت أعرف أيضاً أنني كنت جالساً على سجادة ماء في هيأة زجاجة، ولهذا كنت أجلس غير مستقر، أتأرجح بين الفينة والأخرى، كلما غيرت موضعي أو أكلت لقمة.

لم أكن وحدي في القاعة. أستطيع أن أقول ذلك من غمغمة الأصوات التي كانت مثل مهاد لتفكيري الصامت. فمثلاً، من بين الأصوات التي يمكنني معرفتها هي أصوات خالي هلال وصلاتو وعوضان ومعلمي عثمان - إلا صوت مصرا. كان هنالك أيضاً عدد من نظرائي والبعض منهم استطال أطول مني، البعض منهم أنحف مني والبعض الآخر أبدن. لكن تجاربهم لا تقارن بتجاربي، كما أن نموهم العقلي ليس بغنى وتنوع عقلي. لم أكن أعرف ما الذي أقوله لهم. كانت أحاديثهم مع بعضهم البعض تضعهم في جغرافيا الطفولة التي لا تعني لهم خرائطها وتضاريسها إلا القليل. لقد لاحظت أن ليس لديهم أي تساؤل روحي يسألونه، وأن حياتهم تتركز على

Twitter: @ketab_n

المكتسبات المادية ومن الذي يملك هذا أو ذاك وكم هو ثمن هذه الأشياء. إلا أنا!

كانت القاعة مضاءة جداً وكان بإمكاني أن أرى وأتعرف على كل وجه كنت أعرفه. ومن الطبيعي أن أبحث عن مصرا - على الأقل لأسألها كيف كانت، لأعتذر لها على تأخري في زيارتها. ظننت أنني رأيتها من قبل، عندما لم أكن ابحث عنها تحديدا. ذهبت إلى البقعة ذاتها. وكان ثمة شيء غريب - فقد أحسست بالغباء حين أدركت أنني كنت أكلم ثوب مصرا وهي لم تكن هناك. لا أستطيع أن أتذكر ماذا قلت. ها أنا أحدق في ظل الثوب وكنت حانقاً من نفسي. ثم سمعت الجلبة التي أثارها جمع من المراهقين الذين وصلوا للتو. ولأنني لا أستطيع منع ثرثرتهم المزعجة، خرجت من القاعة.

عندما كنت خارج القاعة، فكرت مع نفسي أن الأشياء لابد أن تختلف منذ الآن. لا تستطيع أن تأكل السماء كما تأكل اللحم، أو تتناول الغيوم على أنها حلوى وتتوقع أن يدور الكون على محوره، ليضيء الأيام بعواصفه الرعدية، يملؤها بضياء شموسه الساطعة، معتماً الليل بساعاته الحالكة. لقد اكتشفت، أن على الرغم من أن هنالك مئات الآلاف من الرجال والنساء يشتركون في الوجبة التي تقدم فيها شرائح السماء أولاً، ثم تقدم الغيوم حلوى، ليس لدينا لغة مشتركة لنتبادل من خلالها الأفكار أو حتى نتواصل في شكوكنا ومخاوفنا من هذا الواقع الجديد - الواقع الذي كان فيه الله غائباً؛ ولربما تناوله أحدهم على أنه وجبة له. فكرت، أي كفر هذا، وتوقفت عن التفكير تماماً. ماذا؟ أكلت شريحة من السماء أولاً، هل قلت ذلك؟ لابد أنك مجنون، شخص ما تعهد بالقول. كيف أمكنك ذلك؟ وتقول أنك تناولت الرب العظيم بشهية؟ أيها الكافر الأحمق. أغرب عن وجهي قبل أن أنهيك. قلت لنفسي، من المؤكد أن أحداً ما سيغضب من هذه التلفظات الكافرة.

وقفت إلى جانب النافذة المفتوحة. ضربت الستارة وجهي ودغدغته.

Twitter: @ketab_n

ثم شعرت بسقوط قطرة من الماء على جبهتي. لمست الموضع بسبابتي الجافة. وسقطت ثانية وثالثة. كان طعمها مالحاً. هل كان ذلك يعني أنني كنت قرب مجمع كبير للماء؟ مشيت نحو الجهة التي أشم منها رائحة المحيط. مشيت عبر حقل ذرة هندية ناضجة. كنت أقتطف في سيري. كنت أقتطف أحسنها شكلاً، إقتطفت الذرة الناضجة ورميتها جانباً. كنت أدوس على كل شيء في طريقي. ومضيت أتخبط كالأعمى، يداي ممدودتان أمامي كأنني أجمع أو أتسلم الصدقات. كان عقلي يميل إلى الوصول إلى المحيط الذي كانت رائحته تغدو أقل حدة كلما اقتربت منه. وفي النهاية، شعرت بحبات الرمل في نعلي. رغم أنني لم استطع معرفة سبب عدم شمي لرائحة المحيط في النسيم الذي كان يهب.

وها هو، قدماي فيه، راحتاي المتكورتان تأتي بمائه المالح لآخذ رشفة منه، وأتذوقه وأشعر بالألفة معه. ها هو لأسبح فيه ويحضنني - كبير كالرحم، دافئ كالحياة، ومريح كالصديق.

وها (هي) ذي أيضا، أعني مصرا. تقف عند المياه الضحلة وتأتي إليها الأسماك، تمر من بين ساقيها وبين منحنى مرفقيها؛ أسماك صغيرة وكبيرة، وفي بعض الأحيان حتى قرش، وديع كالحمل. لم ترني. كانت مشغولة بإطعام الأسماك من دمها، الذي يفيض بسبب حيضها. كانت مشغولة بالمريض من بين الأسماك، تطعمها بأمومة.

كنت أعشقها تماما.

لم أكن أستوعب كيف أن أي أحد يمكن أن يتهمها بالخيانة.

ثم نظرت إلى السماء. وقررت أننا لم نكن لنستطيع أكلها كلها. كل شيء كان مطمئنا. وتمنيت لو أنني سمكة - وفكرت مع نفسي، أما كانت لتطعمني؟ لقد أطعمتني، واهتمت بي، وأحبتني، وربتني على مجموعة أفكار كلها من ذاتها هي. كيف لي أن أتورط في الشك في أنها فعلت أمراً مشيناً، كيف لي؟

كانت تقول وهي ترعى سمكة صغيرة مريضة، «لقد جاؤوا إلى ردهتي

Twitter: @ketab_n

في الليلة الماضية وقالوا مهددين أنهم سوف يقتلونني - أولئك الناس من كالافو. وهذا ما أرعبني».

قلت، «أشك في أنهم سيفعلون ذلك، لن يجرؤوا».

قالت، «إن يحدث ذلك وأكون ميتة ولا وجود لي أرجو منك أن تلاحظ ما سأقوله لك الآن - إنني لم أخن. أنا بريئة من تلك الجريمة. أنت الوحيد الذي أهتم لأمره كثيراً ولذلك أريدك أن تعرف الحقيقة. أما البقية من الناس فليذهبوا حيثما شاؤوا أو يصدقوا ما يشاؤون. لا أحفل بذلك».

لبس البحر رداءه الأزرق. ليس في السماء ثغرة. كانت ثمة غيوم في السماء. وكان القمر منعكساً في الماء. وكذلك كان ظلنا - ظلي وظل مصرا - حين تعانقنا.

كلا، لا أتذكر أي شيء آخر.

لا أتذكر أي فيضان!

ولا أستعيد أي شيء آخر!

(٢)

استيقظت في اليوم التالي وطعم الدم في فمي. الغريب في الأمر على الرغم من أنني دورت لساني في قاع فمي وأعلاه لم أجد للدم أثرا. هل شربت الدم حين كنت نائما؟ نظفت أسناني بالفرشاة عدة مرات. وكان ريقي صافياً كالعنبر. ولم أشعر بأي ألم في فمي. أعترف بأنه سبب لي بعض القلق. ولم أستطع تذكر اليوم الذي «خضت» فيه. ولكن ما هو السبب يا ترى؟

كنت محتاراً بين أن أشرك بسري خالي هلال وصلاتو أم أحتفظ بكل ذلك لنفسي، مادمت لم أخبر به مصرا في المرة الأولى الذي حدث هذا في كالافو. قررت أن أشغل نفسي كي أملأ رأسي بأفكار أهم وبدأت أعيد رسم خريطتي للقرن الأفريقي. (في خريطتي، كانت الالأوغادين دائماً جزء من

Twitter: @ketab_n

الصومال.) ولم أكد أنهي المسودة الأولى حتى سمعت طرقاً على الباب وأجبت، «أدخل أرجوك. الباب مفتوح». دخل خالي هلال وهو يحمل بيده القوية كوب شاي جلبه لي.

حياني، «صباح الخير».

قلت، «صباح الخير»، وشكرته على الشاي.

نظر خالي إلى الخارطة لوقت طويل جداً، نافذاً بنظره من خلال تركيزه الشديد. تساءلت إن كان يفعل ذلك لأنه لاحظ أن خارطتي ليس لها اسم عام، بل ليس غير تصنيفات دقيقة، منها أنني لم أكتب «الالأوغادين» بل كتبت «الصومال الغربي» فحسب، وعليه، فبمعنى ما، أنت تجعل الالأوغادين يفقد هويته الخاصة، من أجل أن تحصل على هوية من نوع عام. كنت مستغرباً من أن خياله قد قاده إلى اتجاه يختلف كثيراً جداً عما أردت. قال، «أخبرني يا عسكر، هل تجد الحقيقة في الخرائط التي ترسمها؟»

أصبح ذهني مثل ورق النشاف الذي غطى به شخص ما كتابات لا قيمة لها، ولكنه أخذني إلى لا مكان، ولم يرسم خريطة لأي شيء، ولم يشر إلى أي طريق لأتبعه. كررت السؤال على نفسي كي أكون متأكداً، «هل أجد الحقيقة في الخرائط التي أرسمها؟» وانتظرت أن يجف الحبر على الذهن الناشف، وأن أكون قادراً على رؤية صورة أوضح، أستطيع بنفسي أن أصنع منها معنى أفضل. كل ما أمكنني رؤيته هو عمود غبار قد أثارته الشمس قرب النافذة. بقيت صامتا.

وضح خالي هلال فكرته أكثر، «هل تنحت من روحك الحقيقة المبتدعة للخرائط التي ترسمها؟ أم أن الحقيقة اليومية تضاهي، بالنسبة لك، الواقع الذي ترسمه والخرائط التي يرسمها الآخرون؟»

صرت الآن أمشي في دروب أفكاري بحذر. كنت رجلاً عجوزاً يحول بقدميه (يكاد يكون أعمى - لديه قصر نظر وبعد نظر - لربما تسأل كيف يكون ذلك؟ ولكن هكذا كان!) على السلم الخطر والزلق لبناية ملعونة

Twitter: @ketab_n

وقديمة مثله. كنت متأكداً أن كل شيء سوف يتداعى على رأسي قريباً. وبثقة من استعداد امتلاك هوية ضائعة: رحت أقول، «أحدد الحقيقة أحياناً في الخرائط التي أرسمها. وحين أحدد (هذه) الحقيقة، أضع لها علامة، وأحفظها كأنني أقتسمها معك أنت وصلاتو. إني آمل، كما يفعل الحالمون، أن الحلم الذي حلمت به سوف يضاهي الواقع الحلمي - ومعنى ذلك، الحقيقة المبتدعة لخيال المرء. إن الخرائط لا تخلق شيئاً. إنها تستنسخ واقعاً معطى، إنها تخطط الدروب التي مشيها الحالم، إنها تحدد حقيقة نظرية».

إما لم يقتنع برد فعلي على سؤاله أو أنه لم يفهم. بعد أن سمح لي بأخذ رشفة من الشاي الذي جلبه لي، قال، «السؤال هو، هل تتغير (الحقيقة)؟»

«أو هل نحن؟ هل نحن، رجال ونساء وأطفال، نتغير؟ أو هل تتغير الحقيقة؟»

فقال وهو يقترب، «لكن الأفضل، من هو الأكثر أو ما هو: الحقيقة أم مكتشفها؟ أنت تنظر إلى خارطة المستعمرات البريطانية في أفريقيا، قل، الخارطة التي تنافس أجزاءها الوردية في الحجم والخيال الأجزاء الخضر التي تمثل الأجزاء التي تحت الاستعمار الفرنسي. قارن الآن الموقف اليوم مع ماضيها الشاحب وقد يظن أحد ما أن ثمة الكثير من التغيرات قد حدثت وأن أسماء العديد من البلدان قد تغيرت لتلائم الرغبات الوطنية للناس في تلك المناطق. ولكن هل خضعت الحقيقة الأكثر أساسية لتغير؟ أو هل خضعنا نحن للتغير؟»

والتقطت عند ذاك أطلساً قديماً: الصومال الإيطالي والصومال البريطاني والصومال الفرنسي ومنطقة الحدود الشمالية (التي كانت حينذاك محمية، تدار منفصلة عن بقية كينيا) والأوغادين الكبرى. وأتذكر أنني رأيت خارطة رسمها رسام خرائط ألماني عندما كان بلده يغزو بلدان أوربا واحداً بعد الآخر. وقد قارنت هذه «الحقيقة المؤقتة» لخارطة ألمانيا التي أعيد

Twitter: @ketab_n

رسمها مع تجديد رسم خارطة الصومال بوضع الأوغادين جزءاً مكملاً للجمهورية حين استعادتها لبضعة أشهر. لقد قارنتها بوصفها «حقائق»، وليس بوصفها نقاطاً متناظرة للتفكير. إذ من وجهة نظري، ثمة خلاف جوهري - فلم يكن لدى الألمان مشروعية «حقيقية» في تشكيل المناطق وإعادة رسم الخرائط لها لأنهم اكتسحوا هذه المناطق وأخضعوا سكانها لنظامهم الاستبدادي، لكنني آمنت أن الصومال لها المشروعية «الحقيقية» في الالأوغادين، وفي عالم عادل، ليس من حقهم أن يجتاحوها ثانية.

سألني خالي إن كنت قد سمعت باسم آرنو بيترز، وإدوارد كريمر؟

قلت له نعم.

وهل كنت تعرف أن إدوارد كريمر، الذي رسم خارطة ١٥٦٧، قد أدخل العديد من التشوهات، وعليه فقد غير فكرتنا عن العالم وحجمه، هل تعلم ذلك؟ أفريقيا في خارطة كريمر أصغر من غرينلاند. تلك الخرائط التي تحمل الأهواء الأوربية، هي الخرائط التي استخدمناها في مدارسنا عندما كنت صغيراً، وأخشى أن أقول، أنها لاتزال تطبع سنة بعد سنة وتستخدم في المدارس في أفريقيا. خارطة آرنو بيتر، التي رسمت بعد أربعمائة سنة، هي أكثر دقة في رسم القارات: وتكون فيها أوربا أصغر وأفريقيا أكبر.

وضع إصبعه على الخارطة وتتبع نتوءات القارة الأفريقية من رأس غوردافوي في جزيرة الصومال نزولاً إلى الرأس المغتصب في الجنوب صعوداً إلى الشمال الأفريقي الذي شكل مرة جزءاً من قيم عالم البحر المتوسط. فكرت مع نفسي، «الحقيقة» أن أفريقيا كانت لها مكانة ضئيلة أو لا مكانة لها في الأفكار الخرائطية القديمة لعالم مصغر. وما الذي كان يفعله؟ كان يحدق في الخارطة ثم يحدق في. وقد رأيت في نظرته تكافؤ أضداد من النوع الذي أجد صعوبة في تفسيره. كان يضع إصبعه على جزيرة الصومال - إصبعه العظمية الواهنة المنهكة.

ثم تحدث طويلاً ومنحني معلومات أكثر غنى، موجهاً كلامه إلى نتوءات ميركاتور لخارطة العالم والصورة التي طبعها رسامو الخرائط في

Twitter: @ketab_n

عقول بلايين الذاهبين إلى المدارس في كل مكان في العالم. وأضاف، «ثمة حقيقة في الخرائط. الأوغادين، كونها صومالية، هذه حقيقة. لكن بالنسبة لرسام الخرائط الأثيوبي، الأوغادين، كونها صومالية، هذه ليست حقيقة».

صمت. تركزت نظرتي على كوب الشاي، الذي رسمت حافته بحليب دسم أشد بياضاً، مما يدل، لكلينا، على أنه غير صالح للشرب. وحين أخذه معه توقف مثل من تذكر حينذاك السبب الذي جاء به. فمسح جبهته وقال أخيراً، «كنت أنوي أن أسألك إن كنت تريد أن تأتي معي لأنني سأزور مصرا. فهل تأتي؟»

فكرت لدقيقة أو اثنتين. ثم قلت، «امنحني خمسة دقائق».

فقال، «لك عشرة».

(٣)

ترقد السماء في مشيمة رحم البحر، كأنها ولدت للتو بعد المخاض. جلسنا أنا وخالي في السيارة بينما كانت ماسحتا المطر تتحركان يميناً ويساراً، واحدة منهما سريعة، بينما الأخرى بطيئة ونصف مكسورة، والمطر ينسكب بغزارة شديدة. لم يمكنني معرفة سبب وجودنا في ذلك المكان، ليس ثمة سبب يمكنني أن أقدمه يبين اختيار خالي هلال للذهاب في ذلك الاتجاه. أيمكن أن يكون لأننا كلانا منزعجين من خبر اختفاء مصرا من سريرها في المشفى؟ ربما تكون كلمة «اختفاء» ليست الكلمة الملائمة. ربما تكون كلمة «اختطفت» هي الكلمة الصحيحة. ولكن لابد لك أن تعرف شيئاً كي تعبر عن ذلك جيداً، لابد أن يكون لديك دليل كي تصف الأشياء جيداً أو تعرف ما الذي تفعله، أو، من أجل ذلك، تقرر فيما إذا تفكر مرتاباً من شخص ما، أو مجموعة أشخاص. فمثلاً، هل من الممكن أنها اختطفت من قبل الناس الذين ظنت بهم السوء، لأنها كانت متيقنة أنهم كانوا يتهمونها بالخيانة؟

Twitter: @ketab_n

«ولكن ما الذي يجب على المرء أن يفعله؟» كان يقول لنفسه بين الحين والآخر، عندما كنا حزينين صامتين لوقت طويل. كانت نظرته باتجاهي من الممكن قراءتها مثل صفحات استغاثة ولم يكن من الصعب معرفة ما تحتويه. كانت تُقرأ، «مادمت قد عرفتها منذ زمن طويل أفضل مني، أخبرني أرجوك ما الذي أفعله». بكلمات أخرى، كان يريدني أن أكون دليله في هذه المسألة.

ولكن لم يمض وقت طويل حتى ظهر أنني لم أكن أعرف بأي اسم دخلت البلد ولم أهتم بسؤالها بمن كانت تتصل بمقاديشو. عند ذاك فحسب يبدأ المرء بالندم؛ ليقول ما كان يجب عليه أن يفعله في المقام الأول؛ كيف كان يجب علي أن أكون أكثر عطفاً وأكثر إحساساً؛ أكثر فهماً؛ وأن خالي كان يجب أن يكون أكثر حرصاً في التحقق، بمعنى ما، يكون أشد في تعامله بشأنها حتى لو احتاج إلى أن يكون بيروقراطي التفكير. وصلاتو؟ كنا أنا وخالي ضائعين بدونها. وأدركت أنه كان بالتأكيد غير سعيد لأنها لم تكن معه لتقترح عليه ما يتحتم عليه فعله لاحقا. رحنا ندور طويلاً بحثاً عنها. ذهبنا إلى بيتنا ثلاث مرات على الأقل. ذهبنا إلى المدرسة التي كانت تعمل فيها وقال لنا المدير أنها ذهبت للتسوق. لكننا لم نكن نعرف ما الذي كانت تريد شراءه لذلك لم نعرف إلى سوق نذهب للبحث عنها. وفي الحقيقة، فقد طلب مني خالي أن أدقق النظر علني أجدها إن كانت تمشي بين الناس في هذا الاتجاه أو ذاك. وكنت أدقق النظر بحثاً لا عن «صلاتو» بل مصرا. رغم أن الأمور قد تتيسر كثيراً حين نجد صلاتو. كم كنا أنا وخالي بحاجة إليها!

قالوا في المشفى أن ثلاثة رجال قد جاؤوا و «أخذوها»، وكانت حجتهم أنها «هي» التي كانت تريد الخروج «معهم». وحين سألت الممرضةُ مصرا أجابت بالإيجاب. إستفهم منهم الخال هلال، إن كانت تحت التهديد، أو أنها قد عُذبت، هل بدا عليها أنها كانت مرعوبة؟ وتساءلت الممرضة عن السبب الذي يجعلها كذلك. وقالت محتجة لماذا يظهر

Twitter: @ketab_n

الخوف على امرأة تترك المشفى برغبتها؟ بالطبع لا. قالت الممرضة، «رأيتها امرأة مستعدة على جناح السرعة للغطس في البحر». «كان الرجال الثلاثة يحملون مناشف، أو ما يشبه المناشف، وكانوا يرتدون ثياباً خفيفة ويخاطبونها بود ويداعبونها، وكانت هي تداعبهم أيضا». (تمنيت أن أسأل الممرضة عن اللغة التي كانت تتكلم بها مصرا مع الرجال، لكنني فكرت على نحو أفضل بالأمر، وخمنت أن ذلك سيكون لا معنى له بالنسبة لها.) متى تركت أرض المشفى وكيف؟ لم يكن أحد يعرف بأي وسيلة ذهبت - ربما بسيارة أجرة، أو بسيارة خاصة. كان الوقت المسجل لدى الممرضة المناوبة دقيقاً بالثانية - الساعة الثامنة وخمس وثلاثون دقيقة صباحاً. قبل أن يقوم طبيب الردهة بجولاته.

قال خالي، «ما الذي يجب علينا فعله؟»

كنا لانزال في السيارة والمطر ينهمر مدراراً بشكل لم أر مثله منذ سنوات. كنت أعتقد أنه لم يكن ينظر نحوي، بل نحو البحر حين سألني سؤاله واندهشت متسائلاً عن السبب!

قلت، «إفرض أنها اختطفت؟»

إنتبه فجأة إلى شيء واحد - وهو أن لاشيء يمكننا فعله - وبدا عليه الكدر الشديد. «حسن، في مثل هذه الحالة، علينا أن نراجع إستراتيجيتنا، أليس كذلك؟ علينا أن نبحث في أفضل السبل لإنقاذ حياتها. هذا هو الأهم. أن ننقذ حياتها».

قلت، «كيف؟»

شعر بالراحة لأن المطر قد خفت وطأته. أطفأ ضوضاء الماسحات وتنهد عالياً. طرق على واجهة السيارة، محدقاً بعيداً عني، بتركيز صامت. «يمكننا الذهاب إلى الأمن الوطني ونطلب منهم التدخل. لدي بعض الأصدقاء هناك. يمكنني أن أخبرهم بالحقيقة كلها، أخبرهم أنها قضية حياة أو موت. في الوقت ذاته، نبحث حولنا، لنرى إن كان ثمة من يعرف أي

Twitter: @ketab_n

أحد من كالافو من المحتمل أن يعرف المختطفين».

أوشكت أن أقول شيئاً معارضاً، لكنني، فجأة، أحسست بطعم للدم في فمي ثانية. مسحت بلساني أسناني الأمامية، من تحتها ومن فوقها أيضاً وذقت ريقي، الذي كان في ذهني أبيض، مثلما يكون البصاق عموما. ودون أن أفكر بالعواقب، وضعت راحة يدي أمامي وبصقت فيهما، كي أرى أن ريقي لم يتأثر بالطعم الذي في فمي. تحير خالي. إرتاب من حالي في الوهلة الأولى. بصقت مرة أخرى. وارتحت كثيراً حين رأيت أنه لم يكن أحمر كالدم.

قال أخيراً، حين أدرك أنني كررت العملية عدة مرات، «ما الذي تفعله؟ هل أنت بخير؟»

قلت «لا أدري».

كان لساني في ذلك الوقت مشغولاً بالعمل في فمي وتذوق اللعاب الذي أنتجه فعل المسح. قلت له، «ثمة طعم في فمي».

«دم؟»

«أجل دم».

سألني قلقاً، «ثمة في ريقك طعم الدم؟»

بدت عليه الحيرة في بحثه عن ترابط بين الطعم في فمي واختفاء مصرا. راح يتأمل لوقت طويل. كان مشحوناً بالتعبير، في لحظة كان مبتهجاً من اكتشاف العلاقة في رأسه؛ وفي اللحظة التالية، كان متكدراً لأنه لم يتمكن من دفع فكرته إلى مدى أبعد. قال، «أهذه هي المرة الأولى؟»

ولم تُتَح لي الفرصة كي أجيبه. مسكني من ذقني وقال لي «إفتح فمك ودعني أرى»، وكان يتنفس بثقل في وجهي مما ضايقني. قال، «حرك لسانك دائرياً»، وفعلت كما طلب مني. فأشار، «إن ريقك أبيض». وقال متحدياً، «إن ريقك أبيض، فكيف تتذوق فيه طعم الدم؟»

Twitter: @ketab_n

أحسست بالعجز في صوت خالي، لكنني بقيت صامتاً. ما جعلني حزيناً هو أنني لم أستطع أن أشرح له كيفية عمل جسدي، وأنني لا أستطيع أن أكشف له عن سبب هذه الحوادث اللامنطقية التي تحدث لي. هل يمكنني أن أزعم أنني أعرف مصرا أكثر من أي أحد آخر في حين أجهل ما بجسدي، حين لا أستطيع تحديد ما الذي يجعلني أتذوق، في لعابي الأبيض، إحمرار الدم؟ كنت حزيناً لأنني غير قادر على أن أقول، «ها أنا ذا وهذا جسدي. دعني أشرح لك كيف يعمل، ولماذا يتصرف هكذا». أو أنني قللت من قيمة جسدي؟ هل كان ينفصل عني، ويتخذ قراراته المستقلة؟ هل كان جسدي يكون حكومته المستقلة، هل كان يعمل وحده، مستقلاً عن دماغي، عن (روحي)؟ هل كان لابد لنا من أن نذهب إلى وسيط، طبيب، محلل نفسي، ليحدد لماذا كنت أتذوق الدم في لعابي في ذلك اليوم، بكالافو، قبل سنوات طويلة مضت، في الوقت نفسه الذي قفزت فيه فرحاً لأن مصرا قد قرأت لي مستقبلي وتنبأت به. هل كان مستقبلي (في) الدم؟ هل سأقتل؟ هل سأنتقم لمقاتلي كالافو الذين استشهدوا ومن أجل ذلك «أشرب» دم من أقتله؟

رمى خالي هلال بظهره إلى الوراء مستسلماً. قال، «ماذا نفعل؟»

إقترحت، «دعنا نعود إلى صلاتو».

وعند ذكر أسمها، بدا عليه أنه قد شحن بالحياة. كان كمن وجد الطريق الصحيح للثقة بالنفس. شغل محرك السيارة، لكنه ارتبك، ولم يوفق بين العازل ومبدل السرعة لذلك قفزت السيارة وسكت المحرك. ثم لم تشتغل السيارة لأن المكربن طفح بالوقود. فاضطررنا إلى الخروج في الأخير من السيارة. قال، «دعنا نركب سيارة أجرة ونذهب إلى صلاتو. ستأتي وتأخذ السيارة بنفسها».

مشينا بعيداً عن السيارة بصمت مقهور. سرنا وقتاً طويلاً ولم نستطع العثور على سيارة أجرة. فكانت لنا فرصة طيبة للحديث والتفكير.

Twitter: @ketab_n

(٤)

قلت لخالي هلال أنني بدل أن أفكر باختفاء مصرا، صرت مسكوناً بـ «أجساد» - أجساد بشرية، أعني بذلك جسدي، جسد مصرا وما إلى ذلك. واعترفت أنني قد أجد رابطاً خفياً بين الأجساد واختفاء مصرا. وهذا ما منح هلال فرصة ذهبية للتحدث عن فرويد ويونغ وليفي ستراوش وماركس وفريزر، الرجال الذين، كما قال، «قد شطروا العالم الفكري فيما بينهم، تاركين لنا المجال كي نسهم به». وأعتقد أنه استشهد بمقاطع لكل واحد من هؤلاء. وأحسبه ضم إليهم شخصيات أخرى من القرن العشرين - شعراء مثل إليوت ونيرودا، و «شاعرات جسد» مثل سيلفيا بلاث وآن سكستون، و «روائيو جسد» مثل توني موريسون وغونتر غراس. ولوقت طويل، كما بدا لي، راح يأتيني بتماثيل حتى دخلنا إلى القناة التي تؤدي إلى وعيي الباطن. لا أعلم بالتحديد أين تركته، لكنني تركته في زاوية معتمة من «وعيي الباطن»، يبحث عن دليل للتحليل النفسي. وكأن هذا سوف يضيء جانباً كان مظلماً، ذكر أسماء أوتو رانك، ووليم رايش ووليم جيمس وأدلر أيضا.

وقلت له بشأن فكرة القراءة والمعرفة المستفيضة لكل ما كتبه أولئك «الرجال» عن علاقة الإنسان بجسده وعقله ووعيه الباطن أو لاوعيه، «كلا، شكراً. الملايين من الناس يعيشون بسعادة، مؤمنين أن المعرفة الزائدة لن تنفعهم، بل هي بالأحرى تقف عائقاً في طريق إمتاع أنفسهم».

قال، «كلام لا معنى له».

«أفهم أن من اهتماماتك الفكرية والمادية الترويج لهذه الأسماء، لأنك تدرس علو النفس في الجامعة وتعلم طلبتك ما توصل إليه أولئك المفكرون، هذا صحيح - ولكن. . . !»

«مثلاً».

لا أتذكر ما الذي قاله بعد ذلك. أتذكر أسئلتي فحسب - الاستفسارات التي أصبحت جزءاً مني كما تكون التجاعيد جزءاً لا يتجزأ من وجه

Twitter: @ketab_n

الإنسان. يبدو لي، حين أعيد النظر إلى تلك المحادثة، أن هلالاً كأنه كانت له مصاعب في السمع، فهو يجيب على أسئلة لم أطرحها عليه. وفكرت أنني يجب ألا أسمح له بذلك. فقلت من بين أشياء أخرى، أنا سؤال على نفسي - وأن جسدي سأل السؤال الأول. هل كان قد أُنقذ من جثة أمي؟ ما الفائدة من الجسد؟ أن يعبد الرب؟ أن يمارس الجنس ويكون له أطفال؟ هل عرف أحد عن رجل بأنه حاض؟ ما ذلك الذي في «عقل» قضيب الرجل مما يجعله «ينتصب» لرؤية جسد المرأة العاري؟ ماذا في تلمس نهدي المرأة أو فخذيها؟

قال هلال، «إنه الجنس أولاً وآخرا». ما الذي كان يقصده؟

«لا تكتمل قصة دون الجنس، ولا قصة تعد جيدة السرد مالم يجرِ الجنس في عروقها كما يجري الدم في عروق الكائن الحي. إن لم يكن الجنس حاضراً، فإن غيابه يشير إلى محرمات، إلا إذا كانت الرموز والبواعث والاستعارات التي تبني الحكاية، هي ذاتها تريد أن تسرد القصة بذلك الأسلوب الخفي. مثال ذلك، «رسالة الحصان والبغل» للمعري. الأكثر من ذلك، لا يمكن لأي عائلة أن تكون سعيدة بلا جنس. وجنس الطفل - ولداً أو بنتاً. الجنس بوصفه شرفاً. الجنس الرائع والجنس البغيض. إنه الجنس، أولا وأخيرا. الدين ينظم الجنس. من هنا يشمئز المجتمع ويعاقب على الجنس الإباحي. إقتصاديات المجتمعات غير الصناعية تعد المواشي والنساء من ضمن الممتلكات المنقولة، الممتلكات التي تتناقلها الأيدي. والجنس يكلف المال.. كي تتزوج تدفع مهراً، تدفع عدداً من رؤوس الماشية عوضاً عماذا؟ عن اليد؟ كلا. عوضاً عن الجنس. بقيت أسأل نفسي إن كان العدني في قصتك، ذاك الذي يغتصب الدجاج والأولاد الصغار، بكل بساطة، نتناً أم بهيميا؟»

«لم أفهم».

قال، «الجنس بين الحيوانات العليا والدنيا (أي بين الإنسان والبهائم) محرم لدى كل المجتمعات. لن أتناول سياسة التمييز العنصري في جنوب

Twitter: @ketab_n

أفريقيا التي تنكر أساسا إنسانية الأفريقي. رغم ذاك ثمة عنصر فوقي ودوني في العلاقات الجنسية. فللسيد مدخل إلى خادمته وعبدته - قورح ومصرا حالة ماثلة - المعلم وتلميذته - عوضان ومصرا. ولكن حين يسافد العدني دجاجته، فإنه يفعل شيئاً أكثر من كسر المحرم. ذلك لأن هذا يختلف أساساً عن المحرم الذي يكسره حين يضاجع أولاداً صغاراً غير راضين. ينتمي الأولاد إلى صنف الحيوانات العليا ويشمئز المجتمع من الجنس بين كائنين ينتميان إلى صنف الحيوانات العليا. إن الجنس بين الرجال (الذين يعدون، في كل المجتمعات التقليدية ذات الهيمنة الذكورية، أعلى مرتبة من النساء) والنساء شيء طبيعي. لكن الجنس بين مصرا ومغتصبيها، الذين انتحلوا بأنفسهم هوية القرود - هو جنس بين الحيوانات العليا والدنيا».

بحث بنظره في المنطقة عن سيارة أجرة. لم تكن هناك أية سيارة. إستمر في حديثه، «مثلاً، في كل تلك العلاقات، تشغل المرأة المرتبة الأدنى. في الفراش هي التي تكون تحت، التي ينفذ فيها فعل الحب. إنه الجنس، في الأول والآخر. الله ذكر. كل الأنبياء ذكور. وليس من المصادفة أن النبي محمد عمل عند المرأة، التي تزوجها في الأخير وأخضعها. من الملاحظ أنه كان «أمياً»، وتشير الكلمة العربية إلى أنه كان في الوقت نفسه لا يعرف القراءة والكتابة وأنه من قوم أمه. يمكنك أن تستنتج أية استنتاجات فرويدية تريد. إنه الجنس، أولاً وأخيراً وتحت أي ظرف.»

ومرة أخرى دخل في متعة «مثلاً»، متحدثاً عن الأولاد الذين يرفضون الاستحمام مع أقرانهم بسبب الحلمات التي تنمو لديهم كبيرة على نحو واضح أكثر من الأولاد الآخرين. هؤلاء الأولاد تتملكهم أجسادهم، ويتساءلون فيما إذا كانوا إناثا تحت الجلد. النساء اللائي تنمو لهن ذقون أو شوارب في حياتهن المبكرة يملن إلى القلق من ذلك أيضا. لكن حين تلعب فتاة مع الأولاد وتتمتع (بنوع من البذاءة) وتشترك معهم بحماقة ما، فإن والديها هما اللذان يقلقان.

Twitter: @ketab_n

فجأة، وفي الوقت الذي كنت أوشك على الاندهاش من السبب الذي كان يجعله يتكلم بتوتر واستمرارية، سكت عن الكلام. ظننت أنه، أيضاً، قلق من اختفاء مصرا ولهذا كان يتكلم دون توقف. لكنه أثار استغرابي. إذ عرفت من البريق الذي في عينيه، أنه كان يفكر بشيء ما مضحك أو حكيم.

قال، «هل تعرف لماذا يزعجني الجنس، ولماذا أفكر فيه كثيراً؟»

قلت له لا أعرف.

ضحك. ثم قال، «لأنك تأتي (تقذف) عندما تكون غير مستعد للرواح» وضحك على دعابته. تبعت كلامه قبل ضحكته الأولى. كم أنا أحمق، هكذا قلت لنفسي حين فهمت دعابته. لكنني لم أستطع أن أضحك من أعماقي، لأنه كان قد انتقل إلى ميدان أبعد، واقتطف ثماراً من أشجار أقدم من الشجرة التي زرعتها مصرا يوم ولادتي. كيف لي أن أعرف أنه اقتطف ثماراً طيبة؟ لأنه كان يتذوق «أفكاره» مثل فلاح صب ربع باوند من السكر في كأس شاي، وكل ما يريده حلاوة الماء الساخن البني، وليس ما يحتويه من نيكوتين. كان على أية حال، يتحدث ببطء، متحركاً باسترخاء في فضاء أفكاره الواسع، على الرغم من أنه بدا مستريباً جداً، مثل طفل ولد على مؤخرته وكان متأكداً أن شخصاً ما سيقوم بشيء مشاكس لدى رؤيته.

وكانت إشارته في الختام، «الحقيقة هي الجسد».

حدقت فيه متسائلاً. لم أفهمه.

قال، «أنظر إلى رجل يتبع امرأة، مثلاً».

«نعم؟»

«يسخن الدم فيه، يرتفع شيؤه، يفقد رشده، ويكون تركيزه على أي ظاهرة في الحياة يساوي صفراً. راقبه يتسلل معها إلى الفراش، تجسس عليه وهو يغازلها، إستمع إليه وهو يروي لها الأكاذيب، أعني ضحيته - ماذا لدينا هنا؟ جسد يتحكم بالعقل - أكاد أقول الإنسان. يمنع الدين أن نخضع ال'تفكير' للشهوة. لماذا؟ لأن الإنسان حين يمارس الحب لا يفكر بالله، أو

Twitter: @ketab_n

على الأقل أنا لا أفكر. أنظر إلى العشاق معاً، أنظر إلى الطريقة التي يركزون فيها على طلبات بعضهم البعض، كل منهما يعرض جسده للآخر ضحية. العالم غير موجود بالنسبة لهم. ولا الله، ليس إلا هم».

إبتسم ابتسامة عريضة. لاحت لنا سيارة أجرة. إنتظر. لوحت لها. لم يحالفنا الحظ. كان الجو ساخناً ومغبرا. وقفنا تحت ظل شجرة. كنا ظامئين وجائعين. بيد أنه مضى يتكلم - خائفاً من الصمت، كما ظننت، ليبقي ذهني وذهنه مشغولين بالأفكار فلا يفكر أحد منا باختفاء مصرا.

«جنس خير. جنس شرير. الزنا علم معقد في الإسلام. وكي تثبته لابد أن تقسم أن إبرة لا بعيراً، بل إبرة، ليس لها المجال الكافي بين جسدي المرأة والرجل وأن عضوه قد دخل فيها. ليس كافياً أن يكون الرجل والمرأة عاريين أو أنهما معاً، في خلوة، في غرفة، كلا. ليس من الإسلام أبداً جلد الإنسان بالسوط اعتمادا على الشكوك. لذا؟»

وفي هذه المرة، نظر إليّ كأنني كنت آية الله الأخير، أجلد الزاني ستين جلدة وأرجم الزانية. ما الذي تعنيه، على أية حال، كلمة «لذا» التي أنهت الكلام بنغمة منخفضة؟ ربما كان يشير إلى نقطة، هي بالتحديد - أنني لم أملك الدليل أن مصرا قد مارست الجنس مع كل من عمي قورح أو عوضان؟ ولم يكن لدى كارين أي دليل أيضا؟ وبعد أن سمحت له بالوقت الكافي ليرضي كبرياءه، آثرت العودة إلى موضوع «الأجساد»، متيقناً من أننا سنبقي مصرا خارجه. قلت، «إن ما يؤلمني بخصوص الجسد الإنساني، أنك لا تأتي إلى محل وتقول للبائع،'أنظر، لا أحب قدمي، وأريد إبدالها. ما هو أرخص ما لديك؟ فأنت لا تفعل ذلك لأنك لا تستطيعه».

وسقط في الفخ. قال، «ولكنك تستطيع. فالناس في البلدان الصناعية بدؤوا يطلبون من العلم هذه المطالب».

فسألته لأدفعه أكثر، «تقصد، أن تستبدل العضو الذي لم تعد ترغب فيه بواحد بلاستيكي؟»

Twitter: @ketab_n

«يمكنك أن تقلل من شحومك، يمكنك أن تزيل كرشك، وتغير أنفك، يمكنك أن تفعل أشياء كثيرة. يمكنك أن تغير أغلب الأعضاء».

«والثمن؟»

«أنت تعرف بالطبع!»

فحاججته، «إن ثمن تبديل عضو أغلى من تبديل الكل. الجزء أغلى من الكل».

فضحك، «كم دفعت لقاء جسدك؟»

الكل؟ الجزء؟ عثر خالي عند ذاك على القناة التي اكتشف في زواياها المظلمة الممرات المؤدية إلى عقلي الباطن - وقادتنا القناة في الأخير إلى مصرا. ألم أقل أن جزءاً مني قد مات حين علمت أن مصرا قد خانت ثقتنا؟ أخيراً، التقينا بسيارة أجرة عرف سائقها خالي. فأخذنا إلى البيت.

سألتنا صلاتو، «أين السيارة؟»

فأخبرتها بما حدث.

«رجال لا فائدة ترجى منكم»، قالت ذلك وقفزت في سيارة الأجرة ذاتها كي تجلب السيارة. كانت تقول لسائق سيارة الأجرة، «فاض المكربن، هل تتخيل؟ ويغلقانها لذلك السبب ويتركانها. رجال لا نفع فيهم».

خرج بخار وغبار ودخان من حلقات بستن سيارة الأجرة.

(٥)

حين عادت صلاتو، كنت في غرفتي، مشغولاً برسم (كما قالت) فضاء في فضاء خارج عن فضاء، ولكنني كنت، في ذلك الوقت، في مزاج للمقاطعة - وهذا ما فعلته. تطلعت نحوي. فتساءلت عن السبب وعرفت، مفاجأة أسرتني، أن ريو وصلاتو قد التقتا وأنها تنقل عنها التحية لي. «وأين التقيتما؟»

«رأيتها خارجة من منزلنا».

Twitter: @ketab_n

قلت، «ولكن لم لم تطلبي منها الانتظار؟»

«ربما لم ترد أن تزعجك».

كان ثمة سياق منتظم - زرتها وجاءت لزيارتي مرة واحدة. «هل سمعت عن اختفاء مصرا وجاءت لتعرف أية أخبار لدينا عنها؟» تطوعت صلاتو للكلام، «لقد تحدثنا قليلاً، عنك بالطبع».

«نعم؟»

«قالت، مثلا، أنها اكتشفت شيئاً أنيقاً، شيئاً...آه...كيف قالت...شهماً في نظرتك - رقيقاً وحلواً ومؤدباً ولكن شهماً».

قلت، «كان ذلك من لطفها».

قالت، «أخبرتها بشأن مصرا».

«ماذا تقصدين؟ هل تعرفين أشياء أكثر مما نعرفها؟»

هزت رأسها. قالت، «كلا، قصدت كيف أنها حاضت حين التقت بنظرتك لأول مرة حين لم يكن يعلم إلا الله كم ساعة كان عمرك. وقد اتفقت معها أنك تجعل النساء يفقدن السيطرة على أنفسهن، إنك تنزع أسلحتهن بنظرتك». ثم سكتت فجأة مثل من لم يكن متأكداً إن كان سيستمر أم لا.

«تقول ريو أنها تشعر أنها بنت صغيرة تتقرب إلى ولد غير مهتم بها مطلقا».

وكان علي أن أفكر بسرعة البرق أن أجعلها تغير الموضوع، أو على الأقل تتخلى عنه. قلت، مقلداً صوت هلال، «إنه الجنس، أولاً وأخيرا».

فقالت معتذرة، بعد برهة، «آسفة لإزعاجك».

وتماماً مثل ضيف مهذب قد يضع في باله إن كان أحد غيره يتناول قطعة اللحم التي لاتزال في الصحن...قلت شيئاً مهذباً، «لا، أنت لا تزعجينني».

فتحت الباب كأنها كانت تريد الخروج فدخلت عند ذاك رائحة الثوم

Twitter: @ketab_n

إلى الغرفة. كانت نكهة الطعام قوية، فذهبنا معاً لننضمّ إليه في المطبخ.

وأخبرتنا صلاتو ونحن على المائدة عن زميل لها قال مرة، بحضور العديد من زملائه، أنه ينوي الانتحار. وحدد لهم تاريخ اليوم والدقيقة التي سينتحر فيها. كان ذلك الشاب قد عشق فتاة ولم تكن تحبه. ودع كل زملائه وطلب منهم أن يصلوا على روحه. «هل تخمنون ما الذي حصل بعد شهر ويوم؟»

«إنتحرت الفتاة؟»

فهزت صلاتو رأسها، كلا.

«عاد إلى بيته حياً».

«بالضبط».

بقي هلال صامتاً. لذلك قلت، «جبان».

«لابد لك أن تسمع لماذا انتحر».

كانت مساهمة هلال قوله، «لماذا؟»

قال الفتى، وهو يلمس جسده كله، أننا رأينا حين نظرنا إليه «جسد ليس إلا». كان جسده معنا هنا، كما قال، أما روحه فلا. واعتدنا أن نغرق بالصمت حين ينظم إلينا. وعموماً، أصبح من الواضح أن ثمة شيء ما في ما كان قد قاله من قبل - لقد تغير الفتى تغيّرات حاسمة. فلم يبد عليه أنه شحب ونحل جسمه ونشف دمه وانحنى ظهره ولا عزيمة لديه فحسب، ولكن كان ثمة دليل متجسد على أنه قد تغير. حتى أنه في النهاية تهرأ كالثياب التي عليه. لقد تهرأ عقله وجسده سوية. إنه لايزال حياً، معافى. وقد رأيته في الحقيقة اليوم، يعود من المشفى. «هل تعلمان ما كان يفعل؟ كان يحدث الشوارع عن جنونه».

رطبت شفتي وشعرت بالقلق. لماذا روت لنا هذه القصة؟ وفكرت، لابد من سبب، متذكراً الحديث الذي دار بيننا أنا وهلال في ذلك اليوم. ثم وفي الوقت ذاته، رأيت شوكتي تسقط وعليها عصير أحمر - من البنجر.

Twitter: @ketab_n

أدركت صلاتو ذلك كله وقالت، «قد تتساءلان لماذا أخبركما بهذه القصة المرعبة؟»

أومأنا برأسينا.

«لقد قالت لي مصرا، وهي تعبر عن ندمها (ولا أدري لماذا اختارت أن تسرني أنا وليس عسكر أو أنت يا هلال، لربما لأني امرأة ولستما كذلك، من يدري!) عموماً..».

قال هلال، «ما الذي قالته؟» وكان قلقاً.

«لقد أخبرتني أنها قد عاشت مع رجل، بكالافو»،أثيوبي «، وأرجو أن تنتبها للأقواس. كان ضابطاً وسيماً، كما وصفته كارين بالضبط. وقد جاء في الأصل من القرية التي ولدت فيها مصرا. كان الاثنان يشتركان في البداية ذاتها - لقد كان هو 'الفتى' الذي يبحث عنه النبيل الأمهري، كان نتيجة زواج متعة بين النبيل وأم الولد. وكما يحدث عادة،في الأفلام الهندية، لم يتعرفا على بداية كل منهما إلا بعد أن يقعا في الحب ويعيشا سوية لما يقارب العامين. تقول مصرا" أنها قد أخفت عنه جذورها وأخبرته منذ البداية عن قرية أخرى. كان يصغرها بعدة أعوام، كان شاباً من أديس أبابا، درس في أفضل مدارس تلك المدينة المتحضرة - ولهذا كان مهتماً بنقطة بدايته. القصة أكثر تعقيداً من هذا بكثير..." فأخذت راحة من الكلام وراحت تنظر إليهما.

قال هلال، «من الطبيعي أن يكون سفاح القربى شائكاً ومعقدا».

«كما ترى يا عسكر، أن أشياء عديدة حدثت لها بعد رحيلك. الشيء الإيجابي أن عادتها الشهرية لم تعد تؤلمها بشدة كما كان الأمر من قبل. وليس ثمة أحد يمكن أن يعلل ذلك. والشيء الآخر أن أصبح لديها وقت فراغ طويل فجأة ولم تكن تعرف ما الذي تفعل به. حينذاك التقت هذا الشاب».

قال هلال، «روميو جوليت، الشاب الوسيم المندفع».

Twitter: @ketab_n

«لقد شوهد يدخل ويخرج من دارها. وقد شوهدت معه علناً. لقد عرف أنه رجل قاس، أصر على سحق القرى التي يأوي إليها المخربون الصوماليون. وقد خلق الاندحار الفرقة بين أهالي كالافو. تقول مصرا، لذلك، حين حدثت المذبحة غدت أول من يشك به. يقول الناس أنها قادته ورجاله إلى مخبأ مقاتلي جبهة تحرير الصومال الغربي الشهداء. لكنها تحلف بحياة عسكر أنها لم تفعل».

وعلى حين غرة صار طعم البنجر في فمي مرا. ولم يكن لونه أحمر فحسب، بل كان له طعم الدم أيضا. وخشيت أنني قد ألفظه خارجاً لو أنني فتحت فمي أو حاولت أن أقول شيئا.

تساءل هلال، «هل تختلف روايتها عن رواية كارين؟»

«لا تختلف عنها في الجوهر، بل تختلف في النتائج».

فقال هلال مستأنفاً، «تقول أنها لم تكن هناك حين حدثت المذبحة ولم تكن التي قادت روميو إلى مخبأ مقاتلي جبهة التحرير؟»

«هذا واضح».

«ونحن لا نعرف، أليس كذلك؟»

«أخشى ذلك».

ران صمت طويل. هرعت إلى أقرب دورة مياه فوجدت مغسلة. كنت مريضاً، ولكن ليس لوقت طويل. رقدت في الفراش، محاطاً بهلال وصلاتو. كان يروي لي قصة نقطة بدء الإنسان - سفاح القربى.

«إن كنت تؤمن بقصة آدم وحواء في القرآن والإنجيل، فإليك جانب منها». وأعتم وجهه بتركيز متغضن. «لست أدري إن كانت أسطورة إسلامية أو صومالية التي تقول أن حواء لم تكن تلد إلا توائم، ولد وبنت في تتابع متسارع، من أجل أن تعمر الأرض بالناس. ويقال أن التوأمين اللذين يولدان معاً من ولد وبنت كانا يقايضان التوأمين اللذين يتلوانهما مباشرة. ولكن جاء اليوم الذي حين وقع أحد التوائم، هو تحديداً قابيل، في حب توأمه، التي

Twitter: @ketab_n

حكمت النجوم أن تكون زوجة لهابيل. لم يرد قابيل أن يقايض. وكي يتزوجها، قتل، مقترفاً الجريمة الأولى، ولكن ليس سفاح القربى الأول».

تساءلت صلاتو، «ومن هنا بدأنا؟»

«أجل. إن قدّرت أن آدم 'أنجب' حواء على نحو ما. وعموماً، خلقت هي من ضلعه ولحمه ودمه - بدايتها فيه. بدايات آدم في الأمر (الكلمة): كن! فيكون. فكان».

تثاءبتُ. فغادرا الغرفة.

(٦)

لم أتوقف عن التفكير في أن صلاتو كانت مسرورة في داخلها من اختفاء مصرا، على الرغم من أنها كانت تأمل أن لا يحدث لها أي مكروه. أما من ناحيتي فقد كانت عذبة جداً، لا تعلق بشيء ولا تشير إلى مغادرتي المزمعة وليست لديها أية تلميحات بشأن قصة حبي مع ريو. وفي الحقيقة، كانت لصلاتو النظرة البعيدة في اقتراحها أن نترك الأبواب مفتوحة. وكان قصدها من ذلك أن من المحتمل أن تعود مصرا ونحن نيام فتجد الأبواب مغلقة. هيمنت مصرا على تفكيرنا. وهذا ما ذكرني بأيام طفولتي - كنت في تلك الأيام لصيقاً بها؛ وبقيت أبوابنا مفتوحة. لاشيء آخر كان يعني شيئا: الخرائط؛ الأوغادين ذاتها تراجعت الآن إلى ماض ولم تعد تشغل حيزاً في عقلي. ليس سوى مصرا! كل ذلك لأنها اختفت ولأننا لا نعلم ما الذي حصل لها.

ولاح لي أننا لا نعرف عن خصوصياتها. واندهش كل من هلال وصلاتو بعد أن اتضح أنني لم أكن أعرف إسم أبيها. كنت أعرف اسم الرجل الجعجيغي الذي رباها، ثم تزوجها وهو الذي قتلته في النهاية. من المؤكد أنها لم تستطع أن تحمل اسمه على أنه والدها! ثم تذكر أحد أنها دخلت البلاد متخفية، باسم آخر. ما كان ذلك الاسم؟ الاسم الذي كنت

Twitter: @ketab_n

أعرفها به، والذي كانت تهجئته، مصرا أو تنويعاته؟ أو ذلك الذي قالته لي كارين؟ حتى لو أردنا فليس لدينا اسم نعرضه على الشرطة على أنه اسم «شخص مفقود»، وليس لدينا اسم نعرضه على الصحافة. مصرا؟ مصار؟ مصرات؟ مصارات؟ بأي اسم نبحث عنك وأين؟

واستنتجت بحزن أنني لم أكن أعرف مصرا. هكذا قلت.

قال خالي، «كلا، انتظر». لكن صوته قد خضع لتغير مخيف - كان مثل شخص قطع إلى نصفين - وأنت تريد البحث عن النصف المفقود. أضاف، «دعنا لا نيأس. دعنا نفكر».

كنا مرتبكين في ما طرحناه من أفكار، كنا يائسين وضللنا السبيل في تخميناتنا. وفي مرة، هيأت صلاتو طاولة المائدة لأربعة أشخاص بينما كان هلال يعد الطعام. جلسنا وانتظرنا، كانت عيوننا منخفضة كأننا كنا نتلو دعاء. حدثتنا الريح؛ دقت الريح على أبوابنا التي لم تكن مغلقة، جعلتنا الريح نذهب نحو النوافذ التي نقف وراءها، وعيوننا، في هذه المرة، تجلو الفراغ الذي أمامنا، وأذهاننا متيقظة لأية ظلال متغيرة، ننتظر مصرا على أمل أن تأتي وتقول «عذراً، كنت قد نويت أن أقول لكم أنني ذاهبة لزيارة أحد الأصدقاء». وتنبأ كل واحد منا بما سيحدث، ولكن في كل ذلك كانت هي حية وبخير؛ في كل منها كانت تشكو من ألم هين في الساقين أو المنطقة التي تحيط بثديها المبتور، أو في حقويها. لم يلمح أي أحد منا أنها قد ماتت، أو روى قصة متنبئاً بأنها ربما قتلت.

وفجأة، قالت صلاتو بغضب لم ألحظه أبداً فيها، «لن نقدر على الجلوس هنا نفكر بالاحتمالات التي يمكن أن تكون قد حصلت للمرأة المسكينة. يجب أن نفعل شيئاً».

تساءل خالي هلال، «وما هو؟»

وقفت صلاتو على قدميها وهي تقول، «سنذهب إلى مركز الشرطة».

«ونبلغ عن اختفاء مصرا؟»

Twitter: @ketab_n

فقالت صلاتو بحزم شديد، «لم لا؟»

فقال خالي هلال بصوت واهن، «ذلك أمر مبكر جداً. ستقول الشرطة أن الأمر مبكر جداً، وعلينا أن ننتظر ليومين أو أكثر. لا يمكنك أن تبلغ باختفاء شخص حتى تنقضي فترة معقولة».

لا يمكن إقناع صلاتو. كانت حجتها أن المرأة لا تعرف أحداً في مقاديشو وكانت ضيفتنا. كانت مريضة ولا يمكننا القول أنها خرجت لتتنزه أو لتلتقي أحداً، لم تكن في حال يناسب مثل هذه الأشياء. ثلاثة رجال غير معروفين لديها اقتحموا ردهتها، التي دفعنا أجورها، وأخذوها يسندونها إلى خارج المشفى.

قال خالي هلال وهو يرفع إصبعيه في شكل ٧، «ثمة شيئان».

فقالت صلاتو، «الأول؟»

«أنت لست متأكدة من أنها كانت تعرف أولئك الرجال أم لا، ولست متأكدة فيما إذا كانوا قد أخذوها إلى خارج المشفى وهم يسندونها أم لا. ليست لديك المعلومات الكافية لتبلغي الشرطة». قال ذلك وانتظر منها أن تشير له أنها مستعدة للنقطة الثانية.

قالت، «ثانياً».

قال متحدياً، «هل ستخبرين الشرطة بكل القصة؟ هل ستخبرينهم عن ماضيها؟ هل ستتحدثين عن الشكوك، حتى لو لم يكن لها أساس من الصحة، بأنها قادت قوات الأمن الأثيوبية إلى مخبأ مقاتلي جبهة تحرير الصومال الغربي بكالافو؟ هل ستخبرينهم بهذا وأكثر؟»

لست أدري لماذا حينذاك، لكنني وجدت أن من الغريب أنهما نظرا إلي كأنما لاحظا وجودي لأول مرة. شعرت أن نظرتهما تغدو أكثر انتباها من ذي قبل.

قالت صلاتو، «سيكون الشاهد الأساس، أليس كذلك؟»

أومأ خالي هلال برأسه.

Twitter: @ketab_n

تنهدت بحزن وقالت، «تمنيت لو أن ثمة شيء بأيدينا لنفعله، دون أن نشير بأصابع الاتهام إلى عسكر أو أن نصعب الحياة على الآخرين. ليتها تعود، هكذا فحسب». طقطقت بأصابعها. «أحبها كثيراً. إنها امرأة قوية وأنا متيقنة أنها ستنجو من هذا وستتجاوز كل الصعاب. شيء ما يخبرني أنها ستفعل».

قال خالي هلال، «أجل، كانت امرأة قوية».

كان طعم الدم في فمي قد هيمن على فكري فقطعت شريحة خبز ورحت ألوكها. أخذت رشفة من الماء كي أدفعها عبر بلعومي الناشف. قادتني أفكاري إلى منطقة أليفة - عدت لأكون صغيراً مرة أخرى، كنت مع مصرا، وكانت هي عالمي، كانت هي من يقرر مدارات كوني، كان جسدها امتداداً لجسدي، جسدي كان ساقها الثالثة كلما نمنا وشخرنا زمناً، رأسي هو ثديها الثالث كلما تدحرجت عن الملاءة التي كانت تغطيها. تمنيت لو أجد أجوبة عن معنى طعم الدم في فمي؛ تمنيت لو عرفت معنى اختفاءها.

تساءلت، «هل تعتقدان أن جبهة تحرير الصومال الغربي لها علاقة باختفائها؟» وكنت بالطبع قلقاً عما يمكن أن أفعله لو حدث ذلك فعلاً.

قال كلاهما، «لا، لا، لا، لا».

وانتظرنا سماع أخبار مصرا لمدة أربعة أيام كاملات.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني عشر

(١)

بعد يومين، كان الكسوف كاملاً - حل ظلام كامل لمدة ثماني دقائق تقريباً. خلال هذه المدة الوجيزة راح الناس يبحثون عن بعضهم البعض أو يحاولون البحث عن ملجأ لهم في كلمة الله الواسعة، الكلمة التي عثر البعض في حروفها على ملاذ، الكلمة التي نال البعض الآخر وهو في رحمها الدفء والدم والحب. راحت الجوامع تمتلئ بالمصلين؛ وفتح الموسرون من بين المسلمين أبوابهم للشحاذين وعاملوهم بسخاء؛ أولئك العشاق الذين لم يقرروا بعد متى يعقدون للزواج اقترحوا إقامة الزواج مباشرة بعد أن تستقر أرواحهم القلقة من كآبة ساعة المحنة، ساعة الظلام؛ أولئك الذين خططوا لمكائد شر حلوا عقد مؤامراتهم، وندموا على الوقت الذي أهدروه بعيداً عن خالقهم. باختصار كانت شوارع مقاديشو قد خلت من المارة وخلت الأسواق من البائعين والمشترين، وامتلأت الجوامع بالرجال والبيوت بالنساء. وطفقت الكلاب تنبح دون توقف، خائفة على أرواحها النجسة، ونهقت الحمير خائفة بينما شوهدت الخيول تخب، كأنها في خبل، في شوارع مركز المدينة الفارغة بالفعل. قال هلال وهو يسقط في عتمة الكآبة، «القيامة الآن، كما هي دوماً، الجنس أولاً وأخيرا!»

وتطلع عسكر إلى السماء ورأى ظل القمر يحجب ضوء الشمس. كانت تجربة فريدة - ظلام يتجمع كالغبار، حافة نور واهن، السماء تسود

Twitter: @ketab_n

مثل المسار المكسوف، القمر يتحرك، يسرع ظله عبر الأرض من حافة الأفق إلى حافتها الأخرى. من المؤكد أنه كان مذهولاً بكل ذاك، الذي ظن أنه لن ينساه أبدا، مثل من لا ينسى شخصاً شهيراً إلتقاه لمرة واحدة. لسوف يحتفظ عسكر بذكرى هذه اللحظة في رأسه إلى الأبد، فكرة اكتنزت بين أفكاره التي لا تنسى، حادثة من بين الحوادث التي يتذكرها دائماً وأبدا، كالنظرة التي «حفظتها» مصرا في رؤياها له في اليوم الذي وجدته فيه، «النظرة» التي ركزت على بؤرة خطيئتها وجعلتها «تنزف» الدم من رحمها. «إنه الجنس، أولاً وأخيرا».

على أية حال، كان يؤلمه إلى حد بعيد أن يرى صحة الخال هلال وهي تتردى يغلب عليه الصمت والكآبة. (كانت صلاتو قد ذهبت للقيام بجولتها الأسبوعية في التسوق ولم تعد حتى الآن.) كان يبدو أن هلالاً قد شاخ فجأة. سار حول نفسه كما يفعل المسنون، ينظر إلى الأمام باستقامة، حذراً، كما تفعل الخراف إزاء الفضاء الذي يحيط بجسده، قدماه مثبتتان على الأرض، ظهره منحن قليلاً، مشيته بطيئة متثاقلة ومتوقعة، ونظرته ذاهلة تركز على قطع الأثاث في رؤيتها السطحية. قال، «أنا كئيب مثل امرأة في دورتها الشهرية. أخشى أن سبب ذلك هو الكسوف».

ولأن هلالاً كان كئيباً فقد خضع صوته لتغيرات جوهرية. لقد فقد سحره أولاً؛ وثانياً غدا رفيعاً. ولكن لماذا يكون للكسوف مثل هذا التأثير على نفسية هلال؟ ولماذا يتحتم أن يعبث ببنية جسده هكذا؟ لماذا يكون صداع الشقيقة حاداً ليخل بتوازنه، ليقلب وجهة نظره عن الكون، ويضعف بصيرته، فارضاً دوامة على كل ما لديه من أفكار، مشوهاً إدراكه للوقائع، لماذا؟ لم يجد أية حالات مشابهة في سجلاته يمكن أن تقارن بحالة هلال، إلا ذكرياته عن مصرا وهي في دورتها الشهرية. كان جسدها يؤلمها، ويداها تضغطان على لب ثدييها، كانت تجلس لحظة، لتقوم في اللحظة التالية، مرهقة طوال الوقت، وغالباً ما تفقد أعصابها. سقط هلال في هوة مظلمة، عميقة مثل كآبات مصرا - هلال الذي لم يعرف أبداً أنه سينهار.

Twitter: @ketab_n

في هذا الوقت، مر هلال بعسكر مسرعاً دون أن يلحظ وجوده. وبعد دقيقة مر به ثانية، ولكن ببطء، مثل شخص يحمل ثقلاً متأرجحاً فينحني إلى الأمام بسببه. ولكنه لم يتحدث إلى عسكر. وحين فعل، وكان ذلك فيما بعد، فقد كان يشير إلى أشياء، وكان يحدق بفراغ إلى الأشياء كأنه نسي ماذا كانت تسمى. مثال ذلك، أنه لمس معدته، وأشار إلى أن لديه إسهالاً. وبعد قليل، ضرب جبهته ولم يكن عسكر متأكداً إن كان يقصد أن يقول أن رأسه يؤلمه أو أنه قد جن.

أما عسكر فلم يصب بالدوار ولا بالإسهال ولم يوجعه رأسه. لقد حافظ على الماء الذي في داخله، ولم يعان جسده من شيء، ولم تطرد مثانته أي سائل من أي لون، دونما ضرورة. كان يسير ذاهباً وآيباً، ليكون ذا فائدة في تقديم العون عند الحاجة، مرة منشفة وأخرى كأس ماء ومرة كلمة مواساة ومؤازرة، مرة معونة معنوية وأخرى بدنية حين يعود هلال من الحمام مرة بعد مرة. وفكر عسكر أنه كفوء مثل كارين، متذكراً كيف كانت تكدح بين امرأة في عادتها الشهرية وزوج عجوز راقد على ظهره، عاجز ومقعد.

حين بدا أن هلالاً قد تحسنت حاله، عند العصر تقريباً (في وقت القيلولة)، سأله عسكر عن حاله. أكد هلال أنه يشعر بتحسن. ثم قال عسكر، «أتساءل كيف حالها»، دون أن يحدد الشخص الذي كان يشير إليه بالكلام.

«من؟» قال هلال هذه الكلمة مسرعاً كأنه كان يبصقها، كأنها كانت ساخنة ومرة في الآن ذاته.

تجاهل عسكر السؤال (لا أحد يدري أن كان يتعمد ذلك أم لا) واستمر في كلامه، «وهل هي بخير؟»

«من؟» كرر هلال بقوة، كان صوته أجشّ، إذ كانت حنجرته الناشفة تضخم صوته - جعلته يبدو بين السعال وتصفية الحنجرة. تساءل عسكر إن كان هلال قد فقد مع توازنه العقلي ذاكرته أيضا. وفي اللحظة التي كان فيها

Twitter: @ketab_n

عسكر يتذكر أوقات العادة الشهرية الكئيبة لمصرا، بدأ هلال. وفكر عسكر، كان يبدو كأن هلالاً امرأة متقدمة في الحمل والطفل يرفسها على أضلاعها. وفكر عسكر، كلا، كلا. كأنه مثل واحد من تلك الروبوتات التي تطلق قبل أن تتكلم أصواتاً كالفواقة، منبهة الجمهور ليستعدوا لتلقي رسائلها. قال هلال، «هل تعني صلاتو؟»

كان عسكر يريد التبول منذ وقت طويل لكنه لم يكن راغباً في ذلك. وأيضاً، كان يفكر أن هلالاً قد يحتاج إليه لأمر أو لآخر. لذلك فبدل أن يقول، «لا»، لأنه كان يقصد مصرا وليست صلاتو، قال «نعم».

كان هلال محبطاً. أيكون ذكر الاسم - الشفرة مصرا قد أخرج ذاكرة هلال من كآبته؟ وأين كانت مصرا على أية حال؟ أو كيف هي؟ من يدري، لو كانت هنا، لاقترحت أن فصد الدم لهلال سيكون نافعاً جداً. قال عسكر، «آمل أن تكون مصرا بخير أيضا».

وعند ذكر اسم مصرا، جفل هلال لاإرادياً وقال، «نعم، وأين هي بحق الجحيم؟»

إندفع عسكر إلى دورة المياه قبل أن يبلل نفسه.

(٢)

كان في بستان مليء بأشجار ونباتات لها ذاكرتها الخاصة. وتعرف على الشجرة التي ولدت في يوم ميلاده، جلس في ظلها العذب، وأكل ما أمكنه من ثمرتها الناضجة. ثم وفي لحظة إيحاء كتلك التي ترافق التذكر غير المتوقعة لإسم منسي يعود لشخص كان في وقت ما من أقرب الناس، تذكر عسكر من زرع هذه الشجرة - مصرا. كان لسانه يدور في فوضى من الدم؛ وراح رأسه يلتف، مصاباً بالدوار، عيناه حمراوان كالدم المتخثر، ذلك الدم الذي جعل فمه مراً - مراً كالخطيئة! ما بدأ على أنه توحد بهيج مع مصرا التي يتذكرها، انتهى إلى سلوك جسدي شاذ. من أين تأصلت فوضى الدم

Twitter: @ketab_n

هذه في فمه؟ ولماذا هذا الدوار؟ أو لماذا هذه الأقراص الدموية التي يلوكها في خطيئته؟

ثم تغير المشهد. كان يقف عند وسط ساحة البستان وكان يمنح الأشجار والنباتات أسماءها الملائمة لها تماماً مثلما فعل آدم في اليوم الأول للخلق. لم يكن متوتراً. لم يتذكر مصرا. وليس ثمة مرارة، ولا طعم للدم أو الخطيئة في فمه. وعلى العموم كان سعيداً. كان ملتفاً بجلد معزى من المؤكد أنه أكل لحمها. لم يستطع تذكر إسمي المرأتين اللتين أطعمتاه لحم المعزى. لكن الجلد قد رسمت عليه دروب عادت به إلى ماضيه، خارطة عادت به إلى بداياته، خارطة تتوضح عليها الطرق الأرضية والأنهار التي تجري في تلك المنطقة، خارطة وضعت وفق موازين لا يعرفها إلا هو.

وكان هناك ما يسليه. ثمة نسر وثاب ولعوب، ذو نظرة شر حين أظهر غضبه، ملمحاً إلى أنه لم يكن سعيداً بالتغييرات الجديدة في قواعد اللعبة. كان ثمة كلبة، تذكر عسكر أنها لجار غيور، واسمها برودر. تضمنت اللعبة قطعة لحم تسقط من علو معلوم. ينطلق النسر والكلبة من النقطة ذاتها، المؤشرة بطباشير أحمر؛ من المؤكد أن الكلبة على الأرض والنسر فوقها. تنطلق رصاصة (ولم يكن بمستطاع عسكر أن يعرف من أين تنطلق الرصاصة أو من الذي يطلقها)، تنبثق قطعة اللحم من الأعالي مثل الطيور الطائرة، وهي تسقط ذروق الخوف. فازت الكلبة باللحمة ست مرات من عشر. صفق الحشد بصخب. ولكنه سأل نفسه، ما معنى ذلك كله؟

ومثل جواب على ذلك، ظهر العدني والعم قورح. كان العدني يضع حذاءً في فمه يعضه بقوة، وثمة رجل ثقيل يركب على ظهره، وفي كل مرة يشعر فيها هذا الرجل أن الحذاء يوشك أن يسقط من فم العدني كان يركله على أضلاعه. خلفهما كان العم قورح يسير حافياً كأنه كان يتنزه. كان الرمل ساخناً وكان السير حافياً يؤلمه. ولهذا لم يكن يستطيع اللحاق بالعدني الذي يضع حذاءً في فمه. وفي أكبر احتمال أنه قد يوافق لو أعطوه فردة

Twitter: @ketab_n

حذاء واحدة. فقدماه كانتا متقرحتين وبدأ التراب يدخل ويملأ الجروح في أخمصيه الداميين.

وقبل انتهاء الموكب ظهر هناك - جالسة على عرش، بإجلال، وارتياح، كمن أنهت كل عذاباتها، شخص من الممكن أن يتوقع تحسن الأشياء لا غير - إنها مصرا. لوحت لعسكر. ولوح لها بدوره. هبطت من عرشها. إنضم إليها. كانت سعيدة برؤيته. تعانقا. لكن نظرتها كانت بعيدة كالسماوات البعيدة. هل كانت تتشوق للعودة من حيث أتت؟ لقد كانت هي حاكمة مدينة الألعاب هذه، والخرائط التي تخبر الإنسان بماضيه ومستقبله، والنسور التي تبارز الكلاب. تقدم رجل. كان رجلاً عجوزاً يمسك بظهره الذي ربما كان يؤلمه. من المسافة القصيرة التي تفصلهما كان يمكن لعسكر أن يدرك أن الرجل كان ثقيل السمع. كان الرجل يذكره بآخر سأله عن الوقت، مشيراً إلى ساعته اليدوية. من الواضح أن الرجل إما لم يسمع السؤال أو أنه تعمد سماعه خطأ. لأنه راح يتحدث عن شكوى ضغط الدم، وقال لعسكر، «بالمناسبة هل أنت طبيب؟» ما الذي كان يريده (عسكر)؟

كان الرجل يتحدث وهو أدرد، ويقول الأشياء ذاتها مرة بعد أخرى. ولكن ماذا كان يقول بحق السماء؟ من الواضح أنه كان زوج كارين وقد عرف مصرا ورغب في أن يحييها، وإن لم يقل أحد هذا من قبل أمامه، فقد رغب في أن يشكرها نيابة عن أهالي كالافو جزاء ما قدمته من أفضال للصغير عسكر.

ومن بعيد صهلت خيول. ونبحت الكلاب بانفعال. وهب غبار. وأسقط جواد راكبه. ومن خلف الغبار ظهرت فتاة صغيرة تمتطي جواداً أسود ذا منخرين أبيضين. وكان ليل. ثم نهار. وجاءت أشباح. وذهبت أشباح. وحل جمع من الأشباح محل آخر. في حين قالت الفتاة وهي تشيخ، كنت أحد هذه الأشباح، أترك أبوابك مفتوحة وأسمح لتجارب الأمس كي تدخل وتختلط بتجارب اليوم وأسمح للماضي والحاضر بأن يتواجها في رأسك - الحالم. مثل أشعة الشمس وغبار الموسم يمتزجان في

Twitter: @ketab_n

غرفة تواجه الشرق. لبعض الأشباح أعجاز كبيرة وحملوك؛ البعض منهم أطعمك؛ والبعض منهم روى لك القصص. في حين، طرقت أنا أبواب نومك وأيقظتك. لكنني الآن ميتة وأنت حي وهذا كل ما أتمنى أن أكون قادرة على فعله - أطرق أبواب نومك، أدخل في الفراش وأكون معك حتى تفتح عينيك وينغلق باب النوم.

قالت مصرا، «كل ما يتمنى المرء بقاءه هي ذكراه التي تسكن في رأس أحد ما. ففي أي رأس سأقيم؟ أفي رؤوس الذين تسببوا بموتي، أم في رأسك؟»

وتساءل هو، «ولكن هل هاتان الفكرتان، أعني فكرة الموت وفكرة ذكراي، هل جاءتا سوية في رأسك مثلما تأتي المفاتيح بأقفالها في أفكارنا؟»

واحسرتاه، لا جواب. أحد ما طرق باب نومه - هلال.

(٣)

هُيئ جثمانها للدفن ولم يكن عسكر حاضرا. دفنوا مصرا ولم يكن عسكر في الجنازة. في تلك الليلة، قاوم إدخاله إلى المشفى عندما مرض فجأة وأخذوه إلى هناك. وكان من المصادفة أن يكون هو ومصرا في المشفى ذاته - هو في ردهة الرجال، وهي في الردهة المحايدة -المشرحة - ولكن في الجناح نفسه الذي أمضى ليلته فيه، رغم أنها كانت في الدور الأرضي وهو كان في غرفة خاصة في الدور الثالث. كان حياً وهي ميتة؛ هو ساخن جداً بسبب درجة حرارته العالية، بينما هي كانت في الثلاجة ولذلك كانت متجمدة. هو، الذي عرف أنها مسجاة في المشرحة في الطابق الأرضي، رآها في حلمه وكانت ملكة، على عرش، تقود موكباً من كل الأصناف، حدث للنوع. هل تراه مصرا في حلمها؟ هل يحلم الموتى؟

وحين حدثوه عن الدفن والجنازة، تساءل، «لماذا لم توقظوني من الحمى؟»

Twitter: @ketab_n

فقال هلال، «كنا قلقين».

«قلقون؟» ورفع بصره ليرى صلاتو تدخل. إنها تتريث في العادة، لأنها دائما ما تصل متأخرة، إذ يتحتم عليها أن تجد مكاناً في مرآب المشفى أو خارجه لتوقف فيه سيارتها. قبلته بخفة على جبينه تفوح منها رائحة الدخان كأنها الموكلة بمحرقة الجثث.

«كيف حاله؟»، سألت هلالاً ذلك، كأنه غير موجود أو كأنه لم يكن يفهم الصومالية أو كأنه ثقيل السمع أو أطرش. وفي الحقيقة استمر الحديث هكذا لبعض الوقت.

قال هلال برقة، «إنه يطرح أسئلة».

«لم لم يخبره أحد عن الدفن؟»

«وعن الجنازة أيضاً».

وبدأت صلاتو، «في الحقيقة، لم يكن في..». ثم سكتت، مدركة أنه موجود أمامها مباشرة، ملتفاً بالفراش، ثمة كتاب في يده، ويستخدم سبابته في تقليب الصفحات.

قال هلال، «تكلمي معه».

شعرت بالارتباك، مثل من يثرثر عن شخص - متخيلاً أن ذلك الشخص يظهر ويسمع كل ما يقال عنه. كان انتفاخ الإحراج في حنجرتها قد ظل لوقت طويل. ثم، «لنقلها بصراحة أننا كنا قلقين»، وتوجهت بكلامها إلى هلال، إلى هلال بالدرجة الأولى، الذي أبعد نظره عنها إلى عسكر. «إن أقل رعشة تهزك. أنت كما الأرض الرطبة في الوسط - ناعم. كنا قلقين مما قد تفعله لو رأيت جسدها المتقطع وما قد يفعله لك ذلك بقية حياتك».

نظر عسكر إلى هلال. هل كان يريد من خاله أن يصادق على ما قالته صلاتو؟ بقي هلال صامتاً، مثل زوج أخذت زوجته دوره. «مثلوا بجسدها؟ هل مثلوا بجسدها؟»

Twitter: @ketab_n

أومأت صلاتو برأسها، نعم.

قال لصلاتو، «لكنك قلت أن حتى أسماك القرش لم تمسسها؟» ثم قال لهلال، «كنت موجوداً حين قالت ذلك. في يوم الكسوف. في اليوم الذي صلت فيه، ومرضت أنت، وكنت أنا بصحة جيدة».

كرر هلال قلق صلاتو. «أجل كنا قلقين. فمثلاً، كنت أنت مريضاً خلال عطلة نهاية الأسبوع المأساوية يوم أعاد الأثيوبيون، بمساعدة حلفائهم من كوبيين وعدنيين وسوفييت، احتلال الأوغادين. إن أقل رعشة تهزك، وأقلها تصدمك مثل هزة أرضية، فقد ارتفعت درجة حرارتك كثيراً، وارتفع لديك ضغط الدم واحمرت عيناك - ولم نعرف ماذا نفعل». وعانق صلاتو وحين كون جسداهما قوساً مد أحدهما يده اليمنى والآخر اليد اليسرى ليشكل الثلاثة دائرة.

حين عادا وجلسا في مقعديهما الخاصين، قال عسكر، «أخبراني كيف قُطع جسدها؟ أخبراني بكل شيء. ما الذي فقد من جسدها؟ لماذا؟ أخبراني بكل شيء. أخبراني بكل شيء تعرفانه».

تشاورا هامسين. كانت صلاتو هي أول من تكلم. أما هلال فقد بقي خلفها ويساعدها، يصادق على أقوالها إن دعت الحاجة، أو يغيرها قليلاً إن دعت الضرورة. قالت، «نشك أن ربما تكون هناك لعبة خبيثة من النوع الشرير». كان صوتها مرتجفاً، مثل من يأسف لأنه قال أكثر مما كان ينوي. صمت. إلتفتت إلى هلال. من الجلي أنها تستنجد به. فقالت وهي تأخذ يده، «أرجوك».

فتولى هلال الأمر. «كان القلب مفقوداً، مثلاً». وفك يده من قبضة صلاتو. «إننا نشك أن(هم) قد نفذوا جريمة قتل طقوسي على جسدها. ربما نكون مخطئين، فليس لدينا دليل. ولكن إزالة القلب قد حدثت (قبل) أن تقذف في المحيط - وهي ميتة. هذا إذا تعاملنا بجدية مع شكوكنا».

وعلم عسكر أنه عندما يتكلم أحد منهما يظل الآخر يراقبه. فتعابيره تبقى تحت التمحيص، أما حركاته وإيماءاته فتدرس على أنها مفاتيح لما قد

Twitter: @ketab_n

يفعله. كان بخير. ويمكنه أن يبرهن لهما ذلك. تساءل، «وماذا قالوا في المشرحة؟»

قال هلال، «مثلاً، نظراً للتعقيدات التي تتضمنها القضية، فنحن لا نعرف كيف نبعدك عن الدخول في التجربة الجارحة لقضايا المحاكم، وتحقيقات الشرطة وباقي العذابات البيروقراطية التي تتعلق بها، فقد قررنا - آخذين بالحسبان الفخاخ السياسية التي ستفتح، فتدخل فيها أنت ونخرج نحن منها أو العكس بالعكس - بالنظر لكل هذا، قررنا أن لا نرفع دعوى جريمة القتل الطقوسي، أو القلب المفقود أو الجسد الذي مثل به. لكننا لا يمكن أن ننكر أنها كانت موجودة، وأنها هي من كانت... أه... بالنسبة لك، وأنها أصبحت التي... أه... كنت قد شككت بها لتكون وأنك بالنسبة لنا... أه... من كان لنا إبناً. نظراً لهذا، مثلاً، قررنا أنا وصلاتو، وكأننا كنا متيقنين من موافقتك أيضاً -قررنا، أن لا نطرح مثل هذه القضايا اللاهبة أو نطلب فريق تحقيق وتفتح قضية - لا. إنه لمما يؤلم ضميرنا، مثلاً، أننا اقترفنا جناية لا تغتفر».

فتساءل عسكر، «وما هي؟»

«لقد رشونا الفنيين في المشرحة لنسكتهم»، قال ذلك بنبرة حزينة، مضيفاً، «قد تسأل لماذا فعلنا ذلك؟ لقد فعلنا ذلك كي لا تتقرح من جديد جراحك التي تندمل. بكلمات أخرى، فعلنا ذلك من أجل كل من له علاقة. آخذين بالاعتبار، كما قلت، مثلاً، التعقيدات البيروقراطية والسياسية. ومسألة الضمير أيضا».

وافقت صلاتو على ذلك، «نعم»، وتطلعت كأنها كانت تقرأ مسودة إفادة هلال. «تحدثنا في الأمر. نعم. لقد آلم ذلك ضميرنا، ولكنه كان أفضل ما لدينا، هكذا فكرنا».

قال هلال، وقد اتخذ دور المساند، متفقاً مع صلاتو، «هذا صحيح».

تساءل عسكر - هل تدربا على كل هذا قبل أن يأتيا لزيارته؟

تساءل منضبط النفس، «هل نعرف من (هم)؟»

Twitter: @ketab_n

قالت صلاتو، «لا نعرف أكثر مما تعرف».

فقال، «أنا لا أعرف شيئاً».

فقال هلال، «وكذلك نحن».

وعند ذاك قال عسكر لصلاتو، بعد برهة، «لا أذكر. ربما قلت ذلك ونسيت. ولكن كيف علمتما أن جثمانها كان في المشرحة؟»

غلب الإحساس باليأس على صلاتو، وذلك لوجود فجوة بين ما كانت تعرفه على أنه الحقيقة وبين ما تشك بما يعتقد أنها عرفته. بكلام آخر، لم تعتقد أنه يصدقها. «كنت في أحد المحلات عندما..»، ثم هزت كتفيها وهي تقول، «ماذا تريد أن تقول، أنت لا تصدق كلمة مما قلته؟»

فقال، «لم لا؟»

ومثل من يتقلب في نومه المعذب، نطقت صلاتو صوتاً غامضاً، هو صوت بين الضجة التي تند عن الناس الذين يسيرون في نومهم والذين يتحدثون إلى محاوريهم في الأحلام.

سألها عسكر، «هل تخفين شيئاً عني؟»

«لا».

«فحدثيني إذن».

قالت، «حين أخبرته، هلال لم يصدق قصتي».

سألها عسكر، «من أنا؟ هلال؟»

وفي الحال تنبهت صلاتو إلى نفسها. أبدت اعتذارها على نحو كاف ورغبت لو انه لم يدفعها أبعد من ذلك. وترقب الاثنان تعليق هلال - لقد فهما أنه قرر البقاء خارج الموضوع. وبعد ذلك تحدثت ببطء، «كنت في ذلك الذي يسمونه السوق الكبير، وسمعت امرأتين، كلاهما ممرضتان تعملان في المشفى العام الذي يسمى (ضفار)، كانتا تتحدثان عما وصفته إحداهما ب'جثة امرأة سوداء مثل سمكة قرش ميتة.' لم أهتم في أول الأمر، إلا أن الفضول القليل الذي أثاره الوصف في ذهني اللامبالي،

Twitter: @ketab_n

جعلني نصف مصغية لما كانت تقول. ولكنني كلما سمعت المزيد كلما تأكد لي أنهما كانتا تتحدثان عن مصرا. وتأكد لي ذلك حين ذكرت عملية استئصال الثدي التي أجريت مؤخراً لواحد من ثدييها. ولا أدري كيف قطعت الخطوات التي تفصلني عنهما. ولا أتذكر الكلمات التي استخدمتها في الكلام مع الممرضتين. إندفعت سريعاً إلى المشفى، وعثرت على طبيب أعرفه وذهبت معه إلى المشرحة. لقد كانت مصرا - لم يطالب أحد بجثتها. هكذا تراجع بها الحال».

فقال، «وطالبت أنت بجثتها؟»

«لقد طلبت بنقلها من قسم 'الجثث التي لا يطالب بها أحد' إلى قسم لابد من دفع مبلغ يومي فيه. ثمة فرق بين الأغنياء والفقراء حتى في الموت. الفقراء يتعفنون»، قالت، مشمئزة من تذكر حالة النتانة والقذارة التي عليها «قسم الجثث التي لا يطالب بها أحد». واستمرت تقول، «لقد مرضت. لم استطع العودة إلى البيت مباشرة، لم أرد أن أنقل إليكما عدوى المرض الذي أصابني. كنت اروي لكما قصة اشمئزازي ويأسي، قصة موت مصرا قبل كل شيء، حين حدث الكسوف. لقد صليت مع الجميع. أخشى أنني لم أستطع أن أتذكر سورة الفاتحة، ولا أية آية أخرى من القرآن. عزوت ذلك إلى حالتي الذهنية - ولكنني لا أستطيع تذكر أية آية حتى هذه اللحظة. هل تصدقان هذا؟ (أنا)، صلاتو، صليت مع الجميع. كنت وفية مع إسمي - صلاتو، التي تعني الصلاة أو التقوى».

صمت. لم يطرح عسكر أي سؤال، لاشيء. كان ظهره مستقيماً، يبدو مرهقاً، كانت تفاحة آدم تعلو وتهبط، كان يبلع ريقه، ليدخل عبر حنجرته طعم الدم، لعاب خطيئته. سأله هلال، «هل أنت بخير؟»

قال، «نعم».

لكنه، كان مستاءً جداً وكان ذلك بادياً عليه.

«ما الأمر يا عسكر؟» ولمسته صلاتو من ركبته. إشارة للتوسل. لماذا؟

Twitter: @ketab_n

وقال مخاطباً هلالاً هذه المرة، «هل تتذكر أية آية من القرآن، أية سورة قرأ الشيخ الذي قام بطقوس جنازة مصرا؟»

«أية آية، قلت؟» قال ذلك وهو نصف ينظر إلى صلاتو أيضا، بعيون تدور على محور التساؤل المتكرر. «أنت تسأل عن أية آية يا عسكر؟»

«نعم».

«لماذا؟»

«هل تتذكر الآيات التي كان الشيخ يتلوها في الجنازة على جثة مصرا؟»

«كلا».

«هل يمكننا أن نسأله؟»

قالت صلاتو، «لا نعرف... أه... لم نعرف من كان ذلك الشيخ. إقترحه أحد الناس. جاء وقام بعمله ثم ذهب. لم نفكر بتلك الناحية من الجنازة، إننا آسفان».

«ما معنى كل هذا يا عسكر؟»

فكر لدقيقة. ثم قال، «لأنني لربما كنت قد اقترحت آيتين. لو كنتما قد جئتما وأيقظتماني من الحمى».

سأله هلال، وهو يكاد يكون غير مبال، «مثل ماذا؟»

«الآيات الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة من سورة لقمان».

لم يكن لأي أحد مزاج للكلام لبعض الوقت. إعتذر هلال وصلاتو له بإسراف. جمع الثلاثة أياديهم وتعانقوا، ليلف كل واحد منهم جسد الآخر وثيابه، مجهدين أنفسهم، مثل حشد من الناس تداعى عليهم مشمع.

(٤)

ها هو قد عاد - إلى غرفته، بالبيت. عاد إلى الفضاء الدافئ بين أفكاره - دافئ كالفضاء بين الملاءات التي تغطيه. عاد إلى كتبه التي لم

Twitter: @ketab_n

يقرأها، عاد إلى خرائطه التي لم يدرسها وهي على الحائط في غرفته - بالبيت. عاد إلى مراياه، التي هي على الحائط أيضاً، مرايا تعكس الحاضر فحسب، ولكنها ليست جيدة في السفر إلى الماضي أبعد من المزيج القصديري الذي يغطي ظهورها. عاد إلى مستقبل لم يخطط له - مستقبل بلا مصرا؛ عاد أيضاً إلى الاستمارات غير المملوءة وغير المقدمة من جبهة تحرير الصومال الغربي وتلك التي من جامعة الصومال الوطنية. الفراغ غير المملوء للأسئلة الواحد والعشرين الغريبة تحدق فيه، مانعة ذهنه من التعامل معها، مشتتة ذاكرته، مثل غبار في زوبعة، إلى آفاق الكون السبعة - إلى عالم بلا مصرا!

كان يقف أمام المرآة. رأى وجهاً غير سعيد - هو وجهه. إنه «يبلى» مثل قناع. ظن أن ثمة شيء عبثي عن حزن يقتصر على الوجه فحسب، حزن لا ينتشر إلى باقي جسمه؛ شيء عبثي عن وجه أصبحت ملامحه غامرة مثل جوف عنكبوت، عنكبوت بلا أطراف مرئية بينما تحوك معدته الشباك - والخرافات والحكم. لذلك تساءل، من هي مصرا؟ إمرأة، أو أكثر من ذلك؟ هل هي موجودة كما أتذكرها؟ أم أنني تدحرجت بين الكثير من الأشخاص الآخرين، مغزولاً من الخيط الذي يقودني إلى الوراء حيث بداياتي، مندمجاً مع تلك الخيوط التي تعيد الإنسان إلى البدايات الأخرى، الحيوات الأخرى؟ مصرا؟ مصارا؟ مصرات؟ ماصار؟ مرة بـ«التاء» وأخرى بدونها.

إنه الآن يدرس الخارطة كما عكست بأمانة في المرآة أمامه. مئات الكيلومترات إلى كالافو، ومئات الكيلومترات إلى جغجيغا؛ الكثير منها من جغجيغا إلى هارجيسا؛ ومن هارجيسا إلى مقاديشو؛ والكثير جداً منها من مقاديشو إلى مارسابت في الجزء الصومالي من كينيا. خرائط. حقيقة. عقل يسافر عبر الخارطة المتدرجة، والعين تزيح الألوان الملائمة للقارات المختلفة. يحتاج الجسد لوقت أطول ليقوم بالرحلة ذاتها. إن الشبكات العشرية، تبعاً إلى آرنو بيترز، تختلف تماماً عن خارطة ميركاتور، التي

Twitter: @ketab_n

وجدت في منتصف القرن السادس عشر. وفكر عسكر أن ثمة اختلافاً كبيراً مؤلماً بين الوضع الصومالي اليوم وذلك الوضع في الأربعينيات، عندما كانت كل المقاطعات الصومالية، عدا جيبوتي، تحت إدارة واحدة. وعادت كذلك ثانية، لفترة قصيرة في ١٩٧٧ و١٩٧٨، عندما كانت الأوغادين بأيد صومالية. لكن الصوماليين، من الحكومة والشعب، كانوا منشغلين بالحرب على الأرض وفي المسالك الدبلوماسية ولم يحرر أحد خارطة مقرة للمنطقة المحررة. الحقيقة. خرائط.

سمع خطوات تقترب لكنه لم يلتفت ليرى من القادم. دخل وجهان في خلفية المرآة - صلاتو ترتدي ثوب هلال، وهلال يرتدي قفطانها. كانا في قيلولتهما لكنهما لم يغيبا وقتاً طويلا. سألته صلاتو، «هل تحب أن تأتي معنا؟»

«إلى أين أنتما ذاهبان؟»

قال هلال، «سوف نشتري معزى».

«من أجل ماذا؟»

قالت صلاتو، «تعبيراً عن شكرنا للآلهة التي حمتنا. نحن، أيضاً، مثل كل المقاديشيين، قررنا أن نذبح معزى أضحية».

وأضاف هلال، «ثمة أسباب أخرى. مثلاً».

«مثل؟»

قالت صلاتو، «ال أ ض حية. إنها تغطي مسافة هائلة - أعني فكرة الأضحية. تحدثنا أنا وهلال كثيراً بشأن ذلك وهو يعتقد ذلك أيضا».

من المؤكد أنها قد أضحت متدينة.

أعاد الكلمة على نفسه، مثل أعمى يتلمس الأشياء من حوله، رجل يؤالف بين أحاسيس جسده وما يعرفه عقله من قبل. و(رأى). (رأى) مصرا تتنبأ، (رأى) نظرتها إلى لحم المعزى المذبوحة تواً، و(رأى)ها تتنبأ بالمستقبل حين ارتعش اللحم. وتغير المشهد. (رآها) الآن تفتح دجاجة،

Twitter: @ketab_n

(رآها) تعطيه بيضة أخرجتها من مبيض الدجاجة الميتة و(رآها) تتحدث عن رحلات المستقبل، المغادرة والوصول. وتغير المشهد ثانية. و(رأى) جواداً يسقط راكبه، (رأى) فتاة تختطف، (رأى) فتاة تكبر لتغدو امرأة ناضجة كالذرة. (رأى) اليد التي سقت الذرة تقتطفها، ثم تأكلها - (رأى) الرجل ذا اليد الساقية مقتولاً. ال - أض - حية! بالنسبة لمصرا - استئصال الثدي؛ وبالنسبة لهلال قطع القناة الدافقة؛ وبالنسبة لصلاتو - إزالة المبيض؛ وبالنسبة لقورح - فصد الدم، نزف شديد؛ وبالنسبة لكارين - حياة من التضحيات؛ وبالنسبة لآرلا وعلي الحمري - والداه - حياتهما؛ وبالنسبة للشعب الصومالي - أبناؤهم، وبناتهم واقتصاد البلاد. الحياة، باختصار، تضحية. وباختصار، الحياة (هي) الدم، وذرف الدم في سبيل قضية وبلاد الإنسان؛ باختصار، الحياة هي شرب دم العدو والانتقام منه. والحياة هي الحب أيضاً. صلاتو وهلال حب. آرلا هي - الأرض؛ قورح - هو الشمس في تجلياتها الذكورية؛ هلال -هو القمر؛ صلاتو - هي المهابة، والصلوات، وما إلى ذلك؛ مصرات - أساس الأرض؛ كارين - تل في الشرق، سنامات على الظهور؛ علي الحمري - عودة إلى البداية؛ وريو - أحلام تحلم بأحلام!

إنه الآن يرى وجوهاً ولا يراها؛ رأى ظلالا - مثل يرقة تحت المجهر، وتحركت هذه في المرآة. جفل. وحين عاد الهدوء إليه، نظر نظرة غير مضطربة. كان هلال وصلاتو في الممر. كانا قد غيرا ثيابهما وارتديا ثياباً لائقة ليخرجا. سأله هلال، «هل أنت آت معنا أم لا؟»

قال عسكر، «لدي سؤال واحد وأريد جواباً له قبل أن أضع قدمي خارج هذا البيت». سكت ولم يستطع إلا أن يشعر أنهما كانا يراقبانه بنوع من الاهتمام.

قالت صلاتو، «ما هو هذا السؤال؟»

«من (يكون) عسكر؟»

كان للسؤال وقعه على مستمعيه خلال دقيقة أو أكثر. لم يقل أو يفعل

Twitter: @ketab_n

أحد شيئاً بعد وقت طويل، كأن ذلك احتراماً للسؤال الذي طرح. وعموما فقد ساد نوع من الصمت كالذي يفرضه التابوت على أولئك الذين يواجهونه خلال الرحلة إلى المقبرة. ودخلت الشمس، بصمت، في الغرفة التي كانوا فيها، ثم هب نسيم عليل، به رائحة البحر، دخل في يقظته، وعند ذاك اختلط الغبار بأشعة الشمس، كالأفكار، وكانت هذه تنعكس في المرآة، كوجوه تشرق بالابتسامات. أوشك عسكر أن يكسر الصمت حين لاحظ أن الغيوم، التي كانت داكنة مثل ظلال مهاجرة، تهبط على أشعة الغبار في المرآة، مثل نسور هجمت على طريدة. كان القمر يجري عند نهاية ذيل الغيوم بسرعة سيارة مسحوبة. ثم. . . !

ثم هبط ظلان آخران ومحيا الغيوم ولم يشك عسكر أن الرجلين، اللذين يعودان الظلان لهما، أحدهما طويل وقبيح والآخر قصير ووسيم، كانا يرتديان ملابس الشرطة. وكان الطويل هو الذي تكلم أولاً. قال، «من منكما»، وراح ينظر بين هلال وعسكر، «إسمه عسكر؟»

لم يكن ثمة وقت للانغماس في مراوغات ميتافيزيقية، ولا وقت للاهتمام بالجوانب البلاغية للإجابة على الاسم. ودون أن ينظر عسكر إلى هلال أو صلاتو، التي كانت شفاهها تنطق بالصلوات من قبل، قال، «أنا هو». وبعد صمت قال، «لماذا؟»

وجاء دور القصير في الكلام. قال، «إننا من مركز الشرطة القريب، جياردينو. نود أن نطرح عليك بعض الأسئلة، فتعال معنا من فضلك».

إقترب هلال من الشرطي القصير. وسأله، «أية أسئلة؟ وبأي صدد، أتوسل إليك؟»

فقال الرجل الطويل، الذي ربما كان أعلى مرتبة وسناً، «هل اسماء مصرا(ت) وعوضان وقورح وكارين تعني أي شيء لعسكر؟ هذا هو السؤال»، واقترب من هلال أكثر وقال، «أعتقد أنك هلال وهذه صلاتو؟»

سكت الجميع. خلال هذا الوقت إنحنى الشرطي القصير (ربما ليشد رباط حذاءه) لكن عسكر أحس أن الرجل كان يحفر الأرض ليستخرج منها

Twitter: @ketab_n

جذور الظلال، القصيرة كالشجيرات. نهض جسد الشرطي فجأة، واستقام ظهره وسبحت الغرفة بضوء الشمس. قال هلال، وكان صوته ناعماً ومتوتراً، «ماذا ننتظر، هيا بنا».

كان مركز الشرطة (جياردينو) يبعد نصف كيلومتر ولذلك ذهبوا مشياً، عسكر وهلال وصلاتو في الأمام، ويتبعهم ضابطا الشرطة كأنهما سجانان يتبعان المساجين. كانت فوقهم مظلة من الغيوم، مطمئنة كالهالات، وعلى وجوههم، ظلال طويلة ومعقوفة كأنها علامات سؤال. الشرطي الطويل الذي تبنى قيادة المسيرة في الأمتار العشرة الأخيرة، كان يلبس خلخالاً من الظلال حول قدميه، ويدوس على الذكريات المستثارة لغبار (عسكر). دخلوا المركز بصمت.

كان هنالك شرطي ثالث يجلس خلف آلة كاتبة، وقد سأل عسكر، «ما اسمك؟»

«عسكر علي حمري».

وهكذا بدأت -قصة (مصرا/ مصرات/ مصارات و) عسكر. رواها في الوهلة الأولى بوضوح ودون زخارف، مجيباً على أسئلة ضابط الشرطة، ثم رواها إلى الرجال الذين يرتدون العباءات، الرجال الذين يشبهون الغربان ولهم جماجم بيضاء. ومضى الزمن على وجه عسكر، كلما أعاد رواية القصة مرة أخرى، مضى الزمن لينمو كالشجرة، بمزيد من الأغصان وبتساقط للمزيد من الأوراق أكثر من تلك التي على وجه القمر. وشيئاً فشيئاً، أصبح هو المدعى عليه. وكان كذلك في الوقت نفسه، المدعي والمحلف. وفي الأخير، وكي يسمح لشخصياته المختلفة أن تلعب دور القاضي والجمهور والشاهد، رواها عسكر لنفسه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

في هذه الرواية الغنائية الملفتة للنظر يقص فارح قصة اليتيم عسكر. كان عسكر قد فقد والده قبل أن يولد في الحرب الدموية التي دارت بين الصومال وأثيوبيا، وتموت أمه عند ولادته. ويعود الفصل إلى «مصرا». لكن عسكر طفل يمثل عصره بحق، فما أن يكبر حتى يجد نفسه يشعر بالاختناق من الحياة في قرية «مصرا» الصغيرة. ولكونه مراهقاً صغيراً يبحث عن منظور لبلاده ولنفسه، يذهب للعيش مع خاله وزوجة خاله الكازموبوليتانيين في العاصمة مقاديشو.

ويقحم عسكر نفسه فى النشاط السياسى الراديكالى الذي يتحدى باستمرار الآفاق المعتمة لوجوده، تماما مثلما تعيد كل «ثورة» تعريف الحدود الصومالية.